يوميات طفلة...
من كربلاء

بسم الله الرحمن الرحيم

يوميات طفلة...
من كربلاء

رواية تحكي حياة السيدة رقية

بنت الإمام الحسين عليه السلام

كتبتها

رجاء محمد بيطار

دار المحجة البيضاء

© جميع حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٣٤هـ/٢٠١٣م

ISBN: 978-614-426-230-6

الرويس - مفرق محلات محفوظ ستورز - بناية رمّال
ص.ب: ٥٤٧٩ / ١٤ - هاتف: ٠٣/٢٨٧١٧٩ - ٠١/٥٤١٢١١
تلفاكس: ٠١/٥٥٢٨٤٧ - E-mail:almahajja@terra.net.lb
www.daralmahaja.com info@daralmahaja.com

والصلاة والسلام على سيد الخلق وأعز المرسلين
سيدنا محمد (ص) وعلى آل بيته الطيبين الطاهرين

كلمة لا بدّ منها... وإهداء

بسم الله وبالله، وعلى ملة رسول الله، وعلى محبة أولياء الله، . . . بهم نهتدي، وبهم نقتدي، وبأرواحنا، بأعز ما وهبنا المولى، نضحي في سبيلهم ولهم نفتدي. . .

كلمة لا بدّ منها. . .

حين تكون الفكرة سامية بهذا القدر، وعظيمة بهذا القدر. . .

حين تكون المسؤولية كبيرة بهذا القدر. . . وحين يكون الحمل ثقيلاً بهذا القدر،

يكون أمامك حلّان؛ . . . فإما أن تتخلى عن الفكرة ومسؤوليتها وثقلها، فتتخلص من عبء ما يمكن أن ينجم عنها من سوء فهم أو تقدير، . . . وإما أن تتمسك بها أكثر، وتتعلق بسموها وعظمتها، فتسمو بها، وتنسجم مع مسؤوليتها، وتتقوى بثقل حملها بدلاً من أن تنوء به، . . .

وتكون النتيجة، عملاً، . . . يُراد به وجه الله، ولا يُراد به

سواه. . . عملاً، يُراد بصوغه وسبكه وتنميقه، مثلما يُراد بالذهب الخالص حين يُفعل به ما يُفعل، لا لتزداد قيمته، فقيمته في جوهره الأصلي، بل ليستحسن الراؤون منظره، وليستطيعوا التزين به والتحلي بجماله.

ولأن القيم خالصةً بلا مثال، لا يمكن لنا نحن المفتقرون إلى كمالها، أن نفهم جمالها، وأن نتخذها قدوة وأسوة، لذا فقد جعلها الخالق في الأبرار الأطهار، محمد وأهل بيته، ليكونوا لنا أئمة، ولتلك الصفات الكاملة مثالاً، يمكن فهم ظاهره. لمن أوتي من العلم والحكمة ما يكفي!. . .

ولأن السيدة الطفلة، الطاهرة العظيمة، «الراقية» الكريمة، سيدة الأطفال والكبار، بنت سبط المختار، «السيدة رقية بنت الإمام الحسين» عليها وعلى والدها سيد الشهداء والعظماء، أزكى وأرقى السلام، . . . لأنها قبس من ذلك النور الأكمل، ولمحة من ذلك المثال الأجمل، . . . لأنها سرّ من أسرار آل محمد، كان لا بدّ من هذه الكلمة. . .

«**يوميات طفلة، من كربلاء**»، . . . قصة، حاولت من خلالها، أن أتقمص، وهيهات لي أن أفعل، شخصية تلك الطفلة العظيمة، التي خاضت أقسى مأساة في التاريخ، مأساة كربلاء، وسجلت، بين ولادتها في حضن ريحانة الرسول واستشهادها فوق

هامته الأبية المخضبة بدماء الحق، عن عمر لا يجاوز الأربعة أعوام، أعظم ما يمكن لطفلة أن تسجل.

وإني، إذ أبحت لقلمي أن يتحدث بلسان حال تلك العظيمة، وهو جماد فانٍ وسواد، وهي حياة أبدية وشعاع، فقد حاولت أن أرسم ظلالاً للحقيقة، لأن الحقيقة أعظم وأسمى من أن يتمكن قلم من رسمها. هي محاولة لتقديم صورة مصغّرة مبسّطة لما جرى، إذ أن أنظارنا قاصرة عن إدراك تلك الحقائق الباهرة، والأسرار المكنونة.

ولعلني استطعت أن أقارب الحقيقة، وإن لم ألامسها حقاً، وربما استطعت أن أسجل خفقة من فؤاد **رقية**، الزاخر بالخفقات العظام.

لقد استقيت الأحداث من مصادرها المعتبرة، وحاولت جهدي أن لا أحيد عن المسار التاريخي، بل أن أتقيّد بما ورد، خصوصاً إذا أتى على لسان المعصوم، . . . ولكن القصة، بالمعنى الفني للكلمة قد تحمل تفاصيل لم ترِد في مصدر، ولكنها بالطبع، لا تنافي مقتضى الحال، بل هي تناسب المقام، ولذا فقد أوردتها حيث كان لا بدّ من إيرادها.

وبذا، تكون «يوميات طفلة من كربلاء»، قصة تروي حياة السيدة رقية عليها السلام، ورؤية لتلك الحياة القصيرة زمناً، اللامتناهية

عظمةً وسمواً وعطاء، . . . لاحقتُها منذ الولادة حتى الوفاة، تنشقتُ عبق طيبها، وأردتُ أن أتضمّخ بذلك الطيب، أن يكون لي نوراً في ظلمات الأرض، يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم، . . . وإذا هي أيضاً، خاطرةٌ جادت بها مهجتي ودمعةٌ فاضت بها مقلتي، فسكبتها حبراً على صفحتي.

. . . عساي أكون قد حققت شيئاً، . . . ولا بدّ لمن استمسك بذلك الحبل المتين، أن يحقق الكثير، . . . وإنما أستقلّ عملي، لأنني أخشى أن لا أكون قد وفيت بالمراد، فالمقصد صعب المنال، والهدف عسير المسلك، . . . وعساي أكون قد قاربت المأمول.

. . . سيدتي، . . . يا بنت الطاهرة البتول، يا حبيبة ريحانة الرسول،

يا سيدة الأطفال وطفلة السادات، يا عظيمة الأطفال وطفلة العظماء.

يا نوراً تلألأ هنيهات، . . . ثم توارى خلف أفق من ضياء، . . . ثم عمّ الكون نوراً وسناء.

إليك يا سيدتي، أرفع هذه الصفحات، . . . عشقاً واشتياقاً وولاء،

إليك يا بنت الزهراء، . . . يا فاطمة الصغرى، . . . يا رقية، أيتها الشهيدة الطاهرة، المظلومة الأبية،

أقدم هذه اليوميات... غيضٌ من فيض ذاك العطاء.....

أمَتك

الراجية نظرة منكِ، ومن أبيك وجدَّيك في الحياة وشفاعتكم بعد الممات

رجاء

التمهيد

هي يوميات طفلة...، تنسج البراءة والطهر أثوابها الجديدة على نول الأيام، وترسم ريشة الأحلام لها كل ليلةٍ لوناً من البسمات...،

هي يوميات طفلة...،

وهل للطفلة أن تسجل في دفتر الزمان حروفاً وكلمات، وجملاً وعبارات... فضلاً عن يوميات طفولتها المشرقة التي غطَّت شمسها الدافئة يوماً غمامات ربداء، فألقت على فجرعمرها الغضّ ظلالاً وليلاً وصقيعاً ينهش فؤادها الصغير؟...

هي يوميات طفلة...، لم تكتبها بيدها، لأن القلم كان قاسياً على أناملها الطرية...، ولم تدوّنها بحروف الأبجدية، لأن حدود الكلمات تسجن أحلامها الوردية، بل كتبتها همسات للزمن، ورسمتها على صفحة التاريخ بتنهّدات تحفر في القلوب وجداً، وتبعث في الجماد شعاعاً من حياة....

هي خفقات قلب، ما عرف إلا مشاعر القدسية والطهارة، فراح يضخّها في أوردة القلوب العاشقة لتلك المعاني السامية.

هي خفقاتها المتسارعة قرب قلبي، ونبضات وريدها قرب وريدي...، تسلّلت إلى فؤادي، وراحت تنساب في شراييني...، لتضخّ الحياة في قلمي، وتعطي الحبر معنىً لا كالمعاني...، وترسم الحروف متفرّقة متراصّة، والكلمات متعانقة على صراط مستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم، غير المغضوب عليهم ولا الضالّين....

بيت من بيوتات الحسين عليه السلام
مدينة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم،
يوم مبارك
من أيام سنة سبعة وخمسين للهجرة

تألّق الفضاء...، ربما تعانقت حمرة الشمس الغاربة مع هلال رقيق بزغ على حين غرة، يخترق لجّتها ويصارع توهّجها...، وربما تهادى بدر منير في وسط ذلك الظلام الدامس، فألقى بضوئه الساجي على عينين صافيتين تفتّحتا اللحظة على الحياة، فاستقتا من ذلك البدر نوراً غريبا...، بل لعله بدر ذلك الحي، والمدينة، والكون بأسره، بدر ليل الحياة الذي اتخذه كل ذي قلب رشيد، منارا يهتدي به لينقذه من البحر اللجّي إلى بر الأمان...

لا أذكر ذلك اليوم...، ولكنني أراه بقلبي...، أرى وجه أمي الحنون التي أرهقتها آلام الوضع، حتى إذا نظرت إليّ، ونظرتُ إليها، نسيت كل ألم وعناء، وراحت شفتاها تشكران الله على رحمته، وعلى عظيم مننه.

أرى أنني حُملت في ذلك اليوم، كما سائر إخوتي وأخواتي

عند ميلادهم، لأوضع بين يديه...، لُففت بقماط أبيض ووضعت بين يديه...، ربما كانت الحاملة لي هي عمتي زينب الكبرى، التي تعوّدت دائماً أن تواكب كل أفراح والدي وأتراحه.... ويطيب لي أن أراها بعين القلب، تحملني، تحمل عن طفولتي الأولى ثقل الهواء الذي لم أعرفه إلا الساعة، وترفعني بين يديها الرحيمتين، لتقدمني...، إلى والدي....

... عيناه الناظرتان إليّ سكبتا في روحي أول شعاع...، بل الثاني...، إذ أنني منه....، من ذلك النور الذي بلغ يوماَسدرة المنتهى، وكان قاب قوسين أو أدنى إلى العلي الأعلى...،

يداه الكريمتان تحملان الطفلة مزهوة متألقة، لا بد أنني كنت مزهوة متألقة...، إذ من ذا الذي تطل عليه تلك الطلعة البهية فلا يزهو ويتألق؟...

وينطلق الأذان من تلك الحنجرة المقدسة، لينسكب في سمعي الملهوف...، أظنه لا يزال يرن في أذني اليمنى حتى الساعة، والإقامة لا تزال تعبق في اليسرى...، وتندمج الكلمات لتبث في قلبي كل ما في الوجود من حب ومن حياة....

هل تراني نظرت إليه آنذاك؟.... لست أدري...، إذ لعل النور الساطع من عينيه ومحيّاه قد أعشى بصري، الحديث العهد بأنوار الدنيا، فما بالك بأنوار الآخرة؟!...

كان يوماَ...، أشكر الحق تعالى أنه كان، أنه أخرجني إلى

هذا الوجود، لأكون قطرة من ذلك الينبوع العذب، وشعاعاَمن تلك الشمس الطاهرة...، لتبدأ مسيرة حياتي، برعماَفي حديقة الحسين عليه السلام، بل ثمرة من جنته، أتغذى من كوثره وأتفيأ طوباه، وأقبض بأناملي الصغيرة على كفه المعطاء...، هو يلاطفني...، وأنا أستمد الحياة من نبضه، الزاخر بكل معاني الخلود والعطاء.

ثم إنه أسماني...، كما سائر أخواتي من قبلي...، فاطمة!...

... بعد سبعة أيام

مضى أسبوع على ولادتي...، أرفل في نعمة ما بعدها نعمة: أب لا كالآباء، وأم عارفة بحقه وحق ولايته، جديرة بحمل أطفاله ورعاية أنواره، إنها أم إسحاق بنت طلحة.

صحيح أن نسبي لأبي لا يرتفع إليه نسب، ولكنها، بشرفها وتشرّفها بالإنتماء إلى قدس هذا البيت الطاهر، صارت منه وإن لم تنتسب أصلاً إليه.... لقد عشت أشهراً تسعةً في طهر تلك الأم، أتغذى بدمائها النابضة بحب محمد وآل محمد، وأبي منهم، فإذا أنا فضلاً عن كوني ثمرة من دوحة المصطفى، أرتوي من معين قلب يخفق بعشق ولده، عشق السماء للضياء، والعين للنور والوليد لأنفاس الحياة....

أسبوع مضى على ولادتي...، هي سنة أبناء الرسول في بناتهم، أن تتم تسمية المولودة «فاطمة»، حتى إذا مضت سبعة أيام على الولادة، تمت تسميتها بعد حلق الرأس والتصدق بوزن الشعر فضة.... ولكن والدي، عزيز روحي وفؤادي، شرّفني بشرف لا مثيل له، إذ أبقى على الإسم الكريم وأطلقه عليّ.

ربما قال له قائل، أن في بناتك من اسمها «فاطمة»، ولعله تبسم بسمته الهادئة التي تشرق بها ثناياه، وأعاد القول بأنني «فاطمة»، ولا بأس بأن يكنيني بالصغرى، وأختي بالكبرى.

... ترى...، ما عشقه لهذا الإسم العظيم؟...

... بل ما سر تمسكه بأن يدعوني به؟...

هل سيخبرني يوماً، وأنا التي أرى في عينيه كل جواب لكل سؤال؟... بل هل ستخبرني الأيام؟... ربما!...

..... بعد بضعة شهور

تتحرك عيون الرضّع بعد الولادة، بحثاً عن مصدر الماء والغذاء والحنان، لتجد مبتغاها بين يدي والدة رؤوفة تعتني وترعى وتروي من ينبوع الروح.

... وأنا، فاطمة الصغرى، فقدت ذلك الينبوع العذب الزلال قبل أن أرتوي...، فقدت الصدر الحنون الذي كان يرضعني ويغذيني، باللبن تارة وبحب المصطفى وأهل بيته أخرى...، ولكن لا...، إنني حتماً لم افقد الصدر الحنون، فصدر أبي لا يزال لي مأوى وذراعاه لي مهداً، وحبه العميق لا يبرح لي كوثراً وسلسبيلاً لا تضاهي عذوبة مورده كل ينابيع الدنيا، والآخرة أيضاً...،

يتيمة أنا؟... أبداً، فاليتم لا يعرفه من كان له الحسين عليه السلام أباً وأماً والناس أجمعين.

لقد وجدت مبتغاي، لا بين يدي والدتي التي فقدت، بل بين يدي أب ليس في الآباء من يماثله، ولا في الأمهات...،

يا لأبوته الأبية الحانية...، ويا للثغة المناغاةعلى شفتيّ وأنا أحرّك لساني الصغير بكلمة «أب».

كان النطق سهلاً عليّ، رغم أن الأحرف الأولى هي دوماً الأصعب، والنطق بها على الرضّع عسير...، ولكن خفقات قلبي كانت هي الناطقة، ولذا فقد سهّلت عليّ مخارج الحروف...، أنا التي أمضيت هذه الشهور وأنا أترقّب مع كل صباح ومساء طلّته...، وأقرقر بضحكاتي المبتهجة حالما ألمح إشراقة وجهه، ليجيبني بابتسامة صافية، ويحملني بين يديه...، فأمضي ساعات بصحبته...، وما أحلاها من ساعات....

لقد تعودت عيناي على نور طلعته البهية، فما عادت تعشي ناظريّ أنواره، بل تبقى عيناي متعلقتان بتلك الصورة العلوية، أطبعها على فؤادي لمحة لمحة، لأتزود بها عند غيابه عني...، ذاك الغياب الممتد بين اللقاء واللقاء.،

«أب...، أب...» ويسره سماع مناغاتي...، ويجيبني...، يخاطبني فأفهمه...، ويزرع في وجداني، بلا كلام، كل ما أغتني به من فهم على مدى الأيام.

«أب...، أب»... وأرى بعض العجب في عيون من حوله، من غرباء.... يتساءلون: «أليس له أولاد سواها؟»... ويتبسم عارفوه ليجيبوا: «بل له...، ولكنه حنانه المعروف، وعطفه الفياض، لا على أولاده فحسب، بل على كل أحد صغيراً كان أو كبيراً، حراً كان أو مملوكاً، حنان وعطف لا يعرفان حداً ولا نهاية....»

طوبى لي...، طوبى لكل من تنعم بهذا الفيض الزاخر الذي لا ينضب أبداً.

«أب...، أب»... وأغفو على نبض قلبه الكبير الذي يحدو لسمعي الملهوف، أعذب وأحلى حداء.

مدينة الرسول ﷺ،

يوم مبارك من أيام الحسين عليه السلام

سنة ثمانية وخمسين للهجرة

... سنة قد مضت، أصبح عمري الآن سنة كاملة....

هي حزمة من شهور طويلة، وأيام أطول، وليالي وساعات... أقضيها وأتنفس ثوانيها بين جدران هذا المكان الطاهر....

علمت أنه طاهر لأنه ينطق دائماً، بشره وحجره، بتسبيح وتهليل وتمجيد...،

نهاراً...، لا يسمع للنساء سوى حديث عذب متخافت، ولا ترى لهن صورة إلا داخل خدورهن، وحيث تقتضي الضرورة...، أسمع حديثهن، وأفهم...

هل قلت أن أبي زرع فيّ الفهم كبذرة سخية، وتعهدها بالريّ حتى أينعت قبل الأوان؟!..

وليلاً...، إذا أفقت لأرتوي بشربة ماء في هذا الحر، أجد عمتيّ زينب وأم كلثوم.. ، وخالتيّ ليلى والرباب...، وأختيّ فاطمة

الكبرى وآمنة، التي يدعونها «سكينة»، ربما لهدوئها وسكون روحها...، أجدهن واقفات في المحاريب، يذكرن ويصلين...

... وربما طاب لي يوماً أن أتابع نومتي القريرة في حضن يؤويني، فأجد حضن عمتي زينب...، هي تصلي...، أنتظر جلستها...، وأرتمي بين ذراعيها.

... ما أظن أن حضن أمي الذي لم أنعم بدفئه إلا قليلاً، كان ليحميني أكثر...، إنها عمتي زينب...، عزيزتي...، عزيزة والدي... أرى فيها صورة منه...، وألتمس في نبض فؤادها صدى نبضه....

وقد تسألها إحداهن:

«هل آخذ الطفلة لتنهي صلاتك يا سيدتي؟»

وكأني بها تهز رأسها نافية...، أجل فإن صلاتها لا تنتهي، فأنفاسها تسبيح، وتنهداتها سجدات طويلات، ودموعها حال الصلاة كوثر فياض يشعرني بالرهبة والاطمئنان معاً،

وكأني بها تشير إلى جدها الرسول الذي كان عاتقه المبارك وظهره، محملاً وممتطىً لولديه الحسن والحسين، حتى حين الصلاة.

وتتابع القائلة، وقد رأت تعب عمتي ونحولها:

«ألن تنامي يا سيدتي؟!... ألن تأخذي قسطاً من الراحة؟!»

وتجيب ببسمة تشبه بسمة والدي، ونبرة هادئة، بأن لا بأس عليها، فهي لا تجد راحتها إلا بين يدي بارئها.

... وأنا لا أجد راحتي إلا بين يدي والدي...، إذاً فالبارئ هو الذي علّمه أن يمنحني ويمنح الجميع هذه الهبات العظيمة.

وتقول إحداهن للأخرى:

«دعيها يا أختاه...، دعي فاطمة الصغرى في حضنها...، فإن أمها «فاطمة»!

... وتحتبس أنفاسي لسماع الإسم العظيم، ويخفق قلبي، وتدمع عيني الصغيرة...، لا لجوع أو ظمأ...، أو حاجة أخرى من حاجات الأطفال...، بل لأن الإسم، عدا أنه إسمي، يحرّك في كياني مشاعر غريبة...، دائماً يذكرونه وينظرون نحو البعيد، وتدمع العيون...، ترى، من تكون «فاطمة»؟!...

... إن عمتي تنادي تلك المرأة الحنون الرقيقة، ذات القامة المديدة والوجه المشرق بأنوار خفية...، تناديها أحياناً بـ«أمي»...، فهل تكون هي «فاطمة»؟!....

... بعد يومين...
في مجلس الحسين عليه السلام

... اليوم...، أنا فاطمة الصغرى...، وعمري سنة وبضعة أيام...، أمشي وأتعثر في خطواتي، لأقع هذه المرة في حضن والدي...، وأتعرف اليوم...، بل أدرك بعض الإدراك، من هي «فاطمة»!...

... كنت أمشي كما قلت، فتعثرت...، ولعلني سقطت، فأدركتني يده الرحيمة، ورفعتني، أحسست أنني ارتفعت إلى عليين، وتبسم بعض الأصحاب، وقال شيخ كبير ذو لحية بيضاء:

«ما أشبه اليوم بالأمس، عندما كنت يا أبا عبد الله طفلاً، تعثرت وسقطت وأنت تمشي في مسجد جدك...، فنزل جدك الرسول عن منبره، قطع خطبته ونزل، ليحملك ويقيك كل سوء، ويقول: «حسين مني وأنا من حسين».

... وتحولت ابتساماتهم وجوماً، ثم نشيجاً، فبكاء...، خِفتُ...، فمسح والدي على رأسي، ثم ذكر الله، ذكر جده

محمداً، ذكر أباه علياً...، وذكر أمه فاطمة!... ثم استعبر...، وابتلّت لحيته بالدموع...،

مددت يدي إلى وجهه، أحاول ان أجفف دمعه، أن أخفف حزنه، وأنا التي عبقت عيناي بعطر دموعه.....

وسمعت بين أصوات الحاضرين من يذكر «فاطمة»...، ووصلت إلى مسمعي الملهوف لمعرفتها كلمات كثيرة...، ورغم النحيب المسيطر....، ميّزت بعض ما قيل: «... بضعة الرسول...، سيدة النساء...، المظلومة...، الشهيدة....، أم أبيها....!».

... وأعجبني اللقب الأخير...، «أم أبيها»....

واعتنقت رقبة والدي...، ورحت أربّت على عاتقه المقدس...، أظنه فهم مرادي، فقد ضمني بدوره...، وبدأت أعرف من هي «فاطمة»....

كلا... لم تكن تلك المرأة الجليلة التي حسبتها هي، أدركت أنهم كانوا ينادونها بـ«أم البنين»... كانت امرأة عظيمة القدر عند والدي...، ولكنها لم تكن هي «أمه فاطمة».

.... وأظنني بدأت أفهم...، عندما عادت تلتقي عيناي المتشوقتان لفيض نوره بعينه، لماذا دعاني عند ميلادي، بـ«فاطمة»!...

... بعد بضعة شهور.....
سنة ثمانية وخمسين للهجرة

... لست أدري لماذا صار لي مع الأيام إسم آخر...،

هل أراد والدي أن يضفي عليّ لمحة أخرى؟... وهل يترك اسم فاطمة مجالاً للمزيد؟

بل إن الإسم لا يزال يفيض عليّ بأنواره ويلفني بعليائه...، ولكنه لقب صرت أنادى به أحياناً:... «راقية»...، وربما «رقية».

أجل...، فلقد تعلمت الكثير عن جدتي فاطمة...، صرت أجمع بسمعي وقلبي ما أسمعه حولي من هنا وهناك...، من أبي وعماتي...، وإخوتي وأخواتي، وكل من حولي...، وأنسج من كل هذا كساءًيقيني برد الزمان وحره، ويؤنس أيامي بعطرها الزاخر....

أما تسميتي الجديدة، فكانت لقباً أحببته، خاصة عندما كان والدي يناديني به...، كنت أشعر بأنه يصفني أكثر من كونه يناديني، لأن نداء «فاطمة» لم يكن يبرح عينيه لحظة، ولا لسانه.... وآنسني أن والدي يرقى بي إلى ما لم أعرفه بعد!...

على كل حال....، إن اسم فاطمة كان ولا يزال يسكن أعماقي ويدثرني بحنانه...، ويعزف على أوتار قلبي عندما يناديني به بين الحين والحين...،. أعلم أنه يريد أن يخبرني الكثير...، وتصل إلى عمق روحي كل أخباره جملة لا تفصيلاً...،

وأكتفي...، وأرتوي...، وأرتاح.

وأسعى لأن أرفع قامتي الصغيرة بين أخواتي...، لأفتخر بهبة والدي...، لأستحق أن أكون «رقية»...، وفوق ذلك «فاطمة».

... أيضاً بعد شهور أخرى...،
سنة تسعة وخمسين للهجرة

عصر اليوم، اصطحبني أخي الأكبر، علي...، إلى مسجد جدنا النبي، بعد إلحاح شديد مني لرؤيته...، ورؤية أبي....

كان يحملني تارة ويماشيني أخرى، فأصر عليه بأن يدعني أمشي...، يجرني بحذر لكي لا أتعثر...، ولكنني أحب أن أمشي، خصوصاً عندما أعلم بأنني ذاهبة إلى ذلك المكان المقدس العزيز...، أحب أن أحس بالحصى تحت قدميّ وأنا أمشي...، أحب أن أسقط وأنا أمشي، لأشعر حقاً بصعوبة الوصول، ولذة الوصول إلى حضن الرسول، وسبط الرسول.

... وأرتع هناك في روضة من رياض الجنة...، وكيف لا تكون جنة تلك البقعة التي يشرّف باطن ثراها جسد أكرم المرسلين، وظاهر ترابها محراب سبطه الحبيب الحسين؟!...

ويتلقاني مصلاه...،

إن أحب لحظة إليّ هي تلك التي أشم فيها موقع سجوده، ففيه تعبق أنفاسه الزكية.

وهناك رأيته بين إخوته وأصحابه، كالشمس بين الكواكب...،

ميّزت بينهم أخي علياً السجّاد، الذي هب يستقبلني بحنوه المعهود، وعمي العباس الذي كان جالساً بين يديه كما هي عادته.

هشّ والدي لقدومنا، ورحب بنا، ثم التفت لحظة، ليرحب بعلي الأكبر مكنياً إياه بـ «شبيه المصطفى».

وكما في مرة مضت، أجهش الحاضرون بالبكاء.

ترى ما بال ذكر المصطفى يبكيهم هكذا؟... هل هو شوقهم إليه؟!

وأسمع الجواب على السؤال الذي لم يتجاوز حدود ذهني إلى لساني: «إن علياً أخي هو أشبه الناس خَلقاً وخُلقاً بجدنا رسول الله ﷺ، وإن أبي ينظر إليه عندما يشتاق لرؤية جده»، وما أكثر ما يشتاق، خصوصاً في هذه الأيام، لا أدري لماذا!...

أرى نظرته إليه دامعة عميقة، تكتنفها معانٍ لا حصر لها....،

أتشبهها نظرته إليّ؟... هل أنا أذكّره بأمه فاطمة؟... وددت هذا.

... شددت على يده ليلتفت إليّ...، فشدّعليّ، وعلمت أنه كان في كل لحظة ينظر إلي....

سألته عن مرقد جده...، ثم عن مرقد أمه...،

لست أدري لماذا سألت ذلك السؤال، رغم أنه خطر لي مراتٍ عديدة ولم أسأله...

وأبكاه سؤالي...، أربكني بكاؤه وأشعرني بالذنب، ولكن أخي علياً احتملني بسرعة، وأجابني بما زاد حيرتي وشجني:

«إن جدتنا لها مرقد لا يعرفه إلا الأبرار...، إنه في قلوبنا...، إنه سر من الأسرار».

«ولكنها بضعة الرسول...، هي ابنته ووحيدته، لِمَ لم تدفن قربه...، وهي الأقرب والأحب إليه، هي أم أبيها؟!...».

مسح علي عينيه بسرعة وأجاب...، أنها لم تدفن قربه، رغم أن قربه كان منتهى أملها...، ولكن حال دون ذلك ما جرى عليها...،

أردت أن أسأل من جديد، عما جرى عليها...، ولكن سؤالاً آخر اخترق قلبي في لحظة، كشعاع ساطع: «وأنا، هل سأكون كجدتي فاطمة؟... هل سأرقد قرب أبي، أم سيجري عليّ مثل ما جرى عليها؟...».

رأيته مطرقاً إلى الأرض...، لم ينظر إليّ كعادته حين أطرح سؤالاً بلا كلام...، ربما ازداد بكاؤه...، لم أفهم...، واعتنقني الأكبر، وأعادني إلى البيت.

... يا رب!... لا أحد غيرك يعرف كم أحب والدي...، لا أحد غيرك يعرف عمق الحب وامتداد الحب...، فأنت تعلم الشهادة والغيب...، إن بيني وبين جدتي الطاهرة المظلومة، سرٌ لا أدريه، ولكنه ينكشف لي مع الأيام...، ترى...، هل ستكون حياتي شبيهة بحياتها، ومصيري مؤاخياً لمصيرها؟!... لست أدري، ولكن فؤادي يرتعش لذكرها، وأطرق ملياً...، وأنتظر!...

بيت آخر من بيوتات الحسين،
مدينة الرسول ﷺ،
يوم مبارك آخر من أيام الحسين،
سنة ستين للهجرة

كنت حتى البارحة صغيرة البيت، كبيرة عند رب البيت...، كنت الأصغر سناً بين إخوتي وأخواتي...، لم يكن بينهم من يصغرني...، ولذا فقد كنت آمر وأنهى كما يحلو لي، وكان الجميع، كباراً وصغاراً، يحترمون لهوي، وأمري ونهيي، ويحيطونني بالحب والرعاية....

... كنت ولا أزال أحبهم جميعاً.

ولكن صرخة شقت اليوم فضاء البيت، فزرعت في أنحائه بهجة وسروراً، بعد بهما العهد...، بعدما ران على فضائنا جو الحزن منذ زمن...، منذ راح والدي يعود كل يوم من مسجد جده ومجلسه حزيناً مهموماً...، وعلمتُ من كلمات التقطها سمعي المتشوق لمعرفة كل شيء، أن الظالمين يتربّصون بأبي...، ينصبون

له أفخاخ الدنيا...، ويلحون عليه بأمور فيرفض...، لا بد أنهم يطلبون منه ما يغضب الرب...، لأن أبي لا يحزن ويغتم لشيء كما يحزن ويغتم لرؤية المعاصي....

لقد جلجلت تلك الصرخة العذبة في فضاء بيتنا، لتزيح عن وجه والدي بعض ما اعتراه من كدر...، زقزقة عصفور جديد جاء يزين عشنا الهانئ بترانيم تسبيحاته العلوية...، لقد ولد لنا أخٌ صغير....

لم أستوعب الفكرة في البداية، أن يكون لي أخٌ أصغر، بعد أن كان الجميع أكبر مني..... ولكنني استوعبت الفكرة فيما بعد، بل وأحببتها.

كان ملتفاً بقماطٍ أبيض عندما رأيته أول مرة، وقد أتت به عمتي زينب إلى أبي، لتقدّمه له...،

... رحت أنتظر دوري لأراه...، وبعدما أنهى والدي أذانه وإقامته في يمنى أذنيه ويسراهما، دخل به على أمه الرباب، ليقدمه لها بحب عميق وبسمة علوية، وليهنئها بقدومه...، ثم يعرج عليّ ببسمة أخرى، وكأنه يهنئني أنا أيضاً.....، ثم يتركنا.

للمرة الأولى في حياتي، لم أتعلق به عند رحيله...، بل تعلق به نظري فقط، وراح قلبي يتوزع بينه وبين أخي الصغير الذي استقرّ في مهده، ينتظرني..،.... ولما عاينت غياب والدي، عدت إلى أخي...، اقتربت من مهده بشوق وحذر، فأشارت إليّ خالتي

الرباب بابتسامة وهمسة متعبة، أن لا بأس، على أن لا أحاول حمله.

وأطللت عليه..، أردت أن أرى هذا الصغير السعيد، الذي حوّل كآبة البيت حبوراً، وأعاد إلى وجه والدي الحبيب، بعض البهجة والسرور...، ركعت أمام المهد وأنا أضع كفيّ على حافته برفق...، مال المهد ميلاً خفيفاً، فانتفضت خالتي فزعة...، ولكنها لم تقل شيئاً، بل راحت تراقبنا من طرف خفي...،

... وأصبح وجهه الصغير مواجهاً لي، مما سمح لي برؤيته بوضوح...، كان صغيراً...، كل ما فيه صغير، رأسه، يداه، وجهه، عيناه...، ، ولكن كان فيه شيء واحد كبير، لا يمكن إغفاله، حدقتاه السوداوتان...، ، كانتا تنظران إليّ...، لم أستطع أن أتوقف عن النظر إليهما...، كان فيهما شعاع خفي...، ارتجف فؤادي، علمت لماذا...، لقد كان فيهما شيء من تلك الأشعة المنبثقة من عيني والدي.

أحببت ملء قلبي أن أمسك بيديه الصغيرتين، وأن أجمعه إليّ وأعتنقه...، فقد أشعرني بأنني كبيرة حقاً، وتذكرت صفة جدتي فاطمة، «أم أبيها»، ولكنني لم أجرؤ على تنفيذ ما أردت...، خشيت أن تعاتبني خالتي، أو أن أؤذيه من حيث لا أشعر...، وعانقت بدلاً عنه أختي «سكينة»، التي وصلت في تلك اللحظة مبتهجة، وهرعت نحوي لتحتضنني وتهنئني بولادة أخينا...، دمعت

عيناي وأنا أبادلها العناق...، لم أكن حزينة، لكنني شعرت بشيء يعتصر قلبي...، وسألتها:

«أين كنت؟»

فأجابت بفرحة مكبوتة:

«كنت عند عمي أبي الفضل...، أزف إليه خبر ولادة أخي...، وهاهو قادم إلينا...»،

أمسكت يسراي بيمناها، وهي تحثني على القيام لاستقبال عمنا، تقاعست قليلاً فقد كان جاذب الطفل أقوى، ولكنني أطعت في النهاية، وأنا أرنو إليه بنظرة تعِده بقرب الرجوع...، ورأيت في نظرته الموجهة نحوي ما يوحي بأنه فهم ما أريد، ولاح في حدقتيه شبه ابتسامة، وتململ كأنه أراد أن يبكي، إنه يفتقدني...، إنه يحبني...، وأنا...، لشد ما أحبه...، إنه سيكون المفضل عندي...، كيف لا، وهو جزء من والدي...، جزء أستطيع أن أراه طويلاً، وأجالسه طويلاً...، بقدر ما أريد...، وسأستطيع بلا ريب أن أعانقه طويلا طويلا، دون أن يحول بيني وبينه حائل من هموم الدنيا والآخرة.

... بعد سبعة أيام...، سنة ستين للهجرة

لقد تغيرت حياتي مع قدوم الضيف الجديد...، لم يكن ذلك سيئاً، بل كان جميلاً، وجميلاً جداً.

إن وجود أخ أصغر لم يكن ليسلبني جزءاً من رعاية أبي واهتمامه، فإن رعاية أبي لنا هي ينبوع لا ينضب، لا يستقي منه ظامئ إلا ازداد غزارة وتدفقاً...، ولذا فلا خشية من نقص أو إملاق.

ولكن تسمية والدي لأخي جعلتني أفكر طويلاً، وأتذكر....

لقد دعاه محمداً، جرياً على سنة جدنا ﷺ، حتى إذا أتم الأسبوع الأول، وبعد الحلق والتصدق، أسماه علياً، وكناه بـ«عبدالله».

إن أبي يدعو كل أولاده باسم «علي» وكل بناته باسم «فاطمة»...،

يا لهذه البركة والقدسية التي يحبونا بها أبي، ويا لهذا الحب والتعظيم الذي يكنه لوالديه العظيمين...، هنيئاً له ولنا بهما.

... ولكن، مهلاً...، إن أبي كان يكنى بـ «أبي عبد الله» منذ صغره، فهي كنية أطلقها عليه جده الرسول ﷺ...، هكذا أخبرتني سكينة عندما سألتها يوماً، وأخذنا نتساءل حينها: «لِمَ لم يسمّ والدُنا أحد بنيه بـ«عبد الله» بعد؟!...».

لم نجد جواباً آنذاك، أما الآن، فأنا أتساءل: «هل كان والدي ينتظر هذا الطفل بالذات، ويحضّر لاستقباله، كل هذه السنين؟.... هل إن والدي يرصد لأخي هذا ما لم يرصده لسواه؟...».

إن هذه الفكرة تجعلني أتعلق بأخي علياً الأصغر، أو عبد الله، أكثر فأكثر، إذ أنني أعلم يقيناً، أن لعبد الله هذا شأناً من الشأن، لم نعرفه بعد، ولا بد أن نعرفه يوما...، لا أدري كيف ولا متى!...

... بعد شهرين...،
سنة ستين للهجرة

... فتحت عينيّ صباح اليوم على صوت أعرفه...، إنها أم المؤمنين «أم سلمة»، السيدة الطيبة التي يحبها كل من في البيت، صغاراً وكباراً، ويناديها والدي أحيانا بكلمة «أماه»...، كيف لا وهي زوجة جدي رسول الله، المرأة الصالحة التي عرفت حق الرسالة والولاية حقاً، وكانت لجدتنا فاطمةعليها السلام كالأم الحنون، فإذا هي لنا كالجدة الحنون....

أحب جدتي «أم سلمة»...، وهي تحبني...، وترحب بي حين أطل قائلة: «أهلاً بحبيبة الحسين»!... وهذا ما يزيدني بها حباً، فهي تناديني بأحلى صفة إليّ......

انطلقت أسلّم عليها...، أتلقى قبلاتها الحارة على وجنتيّ، وأجلس بقربها أستمع إلى حديثها العذب... لم يصرفني عنها سوى قدوم أختي سكينة، التي سلّمت على الجدة أم سلمة، كما سلّمت، وجالستها كما فعلت، ولكن وجودها دعاني إلى الانصراف عما كنت فيه، لأنتحي بها جانباً وأمطرها بوابل من الأسئلة المتتابعة:

«كيف حال عبد الله يا سكينة؟... هل عاد يبكي؟... لقد آذاني بكاؤه البارحة ليلاً، حتى إنني لم أستطع النوم خوفاً عليه، إلى أن سكت!....».

أقبلت عليّ سكينة تهدّئني وتربت على خدي قائلة بصوتها الخافت:

«رويدك يا رقية...، لا تخشي شيئاً يا أختاه...، إنه بخير والحمد لله، وما كان بكاؤه البارحة إلا لمغص أصابه، وهذا يحدث للرضّع عادة، هكذا تقول أمي، وها هو هادئ الآن، وقد ذهب ما به من ألم».

«أريد أن أذهب إليه الآن، فقد اشتقت إليه»!

قلت ذلك وأنا أتهيأ للذهاب، ولكن سكينة دعتني للبقاء قائلة أنه نائم، وأن من الأفضل أن ألعب قليلاً في فناء الدار ريثما يستيقظ، وعرضت عليّ أن تلاعبني بنفسها.

أنا أحب أختي سكينة كثيراً، فهي قريبة جداً إلى قلبي، أولاً لأن أبي يحبها كثيراً، كما يحبني طبعاً، وثانياً لأنها تفهمني، وتشعر بي، وكأنها تقرأ أفكاري، ربما ليس بقدر ما يفعل والدي، ولكنها تفهمني على كل حال...، وإن هدوءها وسكون طبعها يبعثان في روحي هدوءاً عجيباً حالما أراها...، وكذلك كلامها العميق الذي يلامس شغاف قلبي، حالما أجالسها ونتكلم.....

لهوت قليلاً بصحبة سكينة في فناء الدار...، لم يمضِ وقت طويل حتى تناهى إلى مسامعنا وقع خطىً نعرفها، وسبقتني سكينة للقول مبتهجة وهي تهب قائمة لتفتح الباب:

«إنه عمنا العباس...، لا بد أنه يريد والدي...، ولكنه ليس في الدار، وليس مصطحباً إياه...، أين هو إذاً؟!...».

... لم أفهم سبب قلقها الذي ارتسم فجأة في كل ناحية من ملامحها، التي كانت قبل لحظة مستقرة باسمة...، وأجبت سؤال سكينة، وسؤال عمي قبل أن ينطق به، بكلمات تبادرت إلى ذهني على الفور:

«لا بد أنه قرب قبر جدنا!...».

وأكملت عني سكينة وهي تتنهد:

«... أجل...، لا بد أنه هناك...، إنه لا يبرحه إلا قليلاً، في هذه الأيام!...».

ربّت عمي على رأسي بيد رؤوفة....، وحيّانا، ثم استدار ليطلب والدي حيث أرشدناه...، وهو يخبّئ نظرة أشد قلقاً من نظرة سكينة، ويزفر آهة زادت حرها شمس الضحى القائظة...، وقبل أن يغيب، التفت إلينا...، كانت عيوننا لا تزال تشيّعه، فابتسم قائلاً، ربما بنبرة حزينة:

«ألا تدخلان الدار يا عزيزتيّ؟... إن حرارة الشمس قد تؤذيكما وتلفح وجهيكما!...»

تبسمنا ونظرت إحدانا إلى الأخرى، وسارعت سكينة تقول:

«أنت على حق يا عماه...، إنها أختي رقية، أرادت اللعب، وأنستني صحبتها مرور الوقت وحرارة الشمس...، ها نحن داخلتان».

ودخلنا...، كان ظل الدار أقل إيناساً من رعايته واهتمامه...، ولكن سكينة سرعان ما أذهبت وحشتي بقولها، محاولة الالتفاف حول ما نشعر به كلتانا:

«لا بد أن عبد الله قد أفاق...، فلنذهب إليه...، وعساك تظفرين بملاعبته قليلاً قبل ان يحتاج لنومة أخرى».

... سرى النشاط في جسمي عند ذكر الاسم الحبيب، ورحت أهرول صوب غرفته...، وهناك...، وجدته قد أنهى رضاعته للتوّ، وراح ينظر حوله إلى الفضاء المحيط لمهده، وكأنه ينتظرني...

كانت خالتي الرباب في الغرفة، فتبسمت تدعونا للدخول، وتطلب منا أن ننتبه للرضيع، ريثما تؤدي صلاتها.

أقبلنا بلهفة، سكينة وانا، ثم تراجعت سكينة قليلاً وهي تتمتم:

«ولكن عليّ أن أصلي أولاً أنا أيضاً، إنتبهي له أنتِ يا رقية...، هل في ذلك بأس يا أماه؟».

اتسعت ابتسامة الرباب وهي تدنو مني وتضمني قائلة:

«لا بأس في ذلك يا سكينة...، فرقية ليست صغيرة جداً، وهي قادرة على الاهتمام بأخيها...، أنا أعلم أنها حريصة على رعايته، ولا يفوتها حسن التصرف...، فهي متيّمة بحبه كما أنا متيّمة بحبها...».

وغمرتني بقبلة طويلة...، أغمضت عيني لحظة، وأنا أتنعّم بحبها...، لم تكن أمي ولكنها كانت تغدق عليّ أمومتها السخية...،

إني حقاً أعيش في نعمة متدفقة، فأبي هو الحسين، وعمتاي هما زينب وأم كلثوم بنات الزهراء، وأعمامي كُثُر، أحبهم إلي عمي الحسن الذي رحل، وعمي العباس الذي يرعاني دائماً...، وإخوتي، الذين أحبهم أكثر من عينيّ، علي الأكبر والأوسط السجّاد والأصغر عبد الله، وأختاي، عزيزتا روحي وفؤادي، فاطمة الكبرى وسكينة...،.... إنني حقاً لأنعم بعطاء زاخر ما بعده عطاء، فالحمد والشكر لله على الدوام!...

وانفلتّ من حضن خالتي، لأتفرغ لرعاية حبيبي الصغير، الذي بدأ يحرك يديه ورجليه حالما رآني، ويقرقر بضحكته العميقة التي تبهجني، وتحملني إلى حيث لا مكان للحزن والهم، مهما كان ما يكتنف الزمان من هم وغم...

وإن أنسَ لا أنسى اللحظات التي قضيتها اليوم قرب عبد الله...، أحادثه فيجاوبني، وأناجيه فيناجيني، وأناغيه فيناغيني،

وأمسك بكفيه الصغيرتين بين يدي، فأرى يديّ كبيرتين تكفيان لاحتوائه...،

أنظر إلى الرباب، تقرأما يدور في خلدي، فتقوم إليّ، وتحمل عبد الله...، تطلب مني أن أبسط يديّ، ثم تضعه فوقهما قائلة:

«إنتبهي له يا رقية...، فهو وديعة الحسين»!

وأرتجف، أشعر بثقل عظيم...، تدمع عيناي بشدة حتى أكاد لا أرى...، حتى شخص والدي الذي يطلّ في تلك اللحظة، فيرانا، عبد الله وأنا...، ويقبل نحونا، يحملنا سوية، ويقبّلنا سوية، ويرى دموعي التي تنهمر، لست أدري لماذا...، فنبكي سوية...، وأشعر أننا نحن الثلاثة قد انصهرنا في هالة واحدة من نور والدي الحبيب....

رباه ،ماذا دهاني؟!... بل ماذا أصابني حين كان لا بد من إنهاء تلك الضمةالتي لم أشأ أن تنتهي...، لقد احتواني فراغ هائل حالما تباعد عني والدي، وعبد الله، ورحت أبكي وأبكي...، فعاد والدي إليّ... وحده هذه المرة، بعد أن أسلم عبد الله إلى أمه...، وحملني وصار يلاطفني ويهدئ من روعي، حتى هدأت.

... إنني أعلم يقيناً، أن بين روحي الصغيرة اليافعة، وروح والدي العظيمة المتسامية، مثل ما بين البرعم والشجرة، فأنا أستمد منه الري والحياة، وهويعطيني كل ذلك...، بل كل شيء، وفراقه لي يعني فراق الحياة!...

مدينة الرسول ﷺ،

العشرون من رجب سنة ستين للهجرة

... لست أدري ماذا أصاب بيتنا الهادئ السعيد....

الكل في وجوم وصمت...، والحزن يسيطر على كل وجه، كأنه يوم ذكرى استشهاد عمي الحسن، أو استشهاد جدي أمير المؤمنين، أو جدتي فاطمة...، أو حتى ذكرى استشهاد جدي الرسول الأعظم ﷺ...، الفارق أن لا بكاء هناك ولا نحيب، بل دموع تترقرق بين الحين والحين في عيون الجميع؛ أختيّ فاطمة الكبرى وسكينة، خالتيّ ليلى والرباب، عمتيّ زينب وأم كلثوم، الجدة أم سلمة...، حتى السيدة الطاهرة الصالحة أم البنين...، فهي تزورنا بشكل متكرر هذه الأيام، ربما أكثر من السابق، ولا تفتأ تخلو بعماتي، بعمتي زينب خصوصاً، وتناجيها وتحدثها، وتبكيان...، حتى إذا وصلت أو وصل أحد الصغار، سارعوا إلى تغيير الحديث أو التزام الصمت.

لكنني لاحظت كل شيء، لعلهم لم يعلموا أني ألاحظ، ولكنني كنت أرى....، وأفهم أو لا أفهم! ...

إن أمراً ليجري، أقرأه في سيماء أخويّ علي وعلي...، وفي نظرة عمي العباس حين يجلس مطأطئ الرأس بين يدي والدي...، إنه لطالما كان يطأطئ الرأس أمامه احتراماً وإجلالاً...، ولكنه اليوم يخفض رأسه بحزن، وهو قلما يتكلم، وإذا فعل تهدّج صوته...، حتى إني رأيت في عينيه دموعاً عندما كانت أمه أم البنين تخاطبه البارحة، على مسمع ومرأى من عمتي زينب...، لقد سمعت شيئاً من كلامها، كنت في ناحية من الغرفة ألعب بعرائسي، بل أحاول اللعب لأتشاغل عما يدور...، ولكن يبدو أن ما يدور لم يكن ليتشاغل عني...، فسمعت ما سمعت...، وفهمت شيئاً...، يبدو أن رحلةً ماستبدأ، رحلة محفوفة بالمخاطر والأهوال، سيقوم بها والدي...، وسيصطحب معه عمي العباس...، وربما عمتي زينب!....

إن القلق يساورني...، والحزن يعتصر قلبي.....، على أن ما يهدئ من روعي، أن أبي يبدو هادئاً مطمئناً لا يطرف له جفن...، وهو يحادثنا ويلاطفنا، كعادته، أو ربما أكثر، حتى أنه يكثر من حملي ومداراتي، وأستمع لخفقات قلبه الكبير حين يضمني، فآنس بعزفها، ويزداد هدوئي، بل تنتابني غبطة عارمة يمازجهاحزن غريب، هو خليط عجيب من المشاعر المتناقضة التي لا أعرف لها تفسيراً...، وإن كلمات عمتي زينب، التي عقّبت بها اليوم على كلام أم البنين، لا تزال تطن في مسمعي، فتحرمني لذيذ الرقاد...، إنها رنّة صوتها المفعم حسرة، وهي تخاطب عمي العباس مشيرة

إليه بأن الرحلة ستكون له باتجاه واحد، أما لها فستكون باتجاهين، الأول معه والثاني بدونه...، فصبر جميل والله المستعان!....

كذا قالت عمتي، وغصّت بعبرتها، فأقبلت نحوها أم البنين تواسيها، وفي وجهها المعبر ونظرتها العميقة عمق المعاناة...، أما عمي العباس، فقد صمت طويلاً، قبل أن يعود إليها، وفي عينيه بقايا الدموع، وفي بحة صوته آثار غصة مكبوتة، ليمسك بيديها قائلاً بقوة وانفعال، أنه كفيلها...، ما بقي فيه عرق ينبض!...

أجل...، كنت أعلم أن عمي العباس هو كفيل عمتي زينب، دون سائر إخوتها، فهي مهمة أوكلها إليه جدي أمير المؤمنين، قبل رحيله عن هذه الدنيا...، وهو سعيد مفتخر بهذه الفضيلة التي تضاف إلى فضائله الأخرى.

... ولكن، ما معنى ما يقول، وما تقول، وما يجري؟!...

إنني أحاول أن أفهم...، فأصيب شيئاً وتغيب عني أشياء...، ولكنني أدرك أن الغد القادم سيحمل لي، لأبي وإخوتي وأختيّ، لعماتي وأعمامي، لنا جميعاً...، بل للمدينة وللكون بأسره، أمراً عظيماً ذا شأن عظيم...، يتخلله هم جسيم عظيم!....

مدينة الرسول،

الثالث والعشرون من رجب سنة ستين للهجرة

...الأيام تترى، ولا أريد أن أحصيها...، أحاول أن أتغاضى عما يدور...، فأقضي وقتي بين غرفة عبد الله، وصحبة سكينة وفاطمة الكبرى...، وصحبة حميدة، ابنة عمتي أم كلثوم، ووالدها ابن عم والدي وصفيّه وأحب أصحابه إلى قلبه، خلا عمي العباس طبعاً، قصدت العابد الزاهد العارف مسلم ابن عقيل....

... أنا أحب حميدة، فهي في مثل سني تقريباً، وجداها لأمها هما جداي لأبي، أي علي وفاطمة، اللذان نحبهما كلانا حباً يفوق الوصف، ولا يفتر لساننا عن التحدث بحديثهما؛ أخبرها بما لدي وتخبرني بما لديها...، ونسأل أحياناً أسئلة كبيرة، نجد جوابها لدى سكينة، أو لدى فاطمة الكبرى...، وهما رغم انشغالهما بمساعدة السيدات الكبيرات في أعمال المنزل، أو الإجابة على أسئلة نساء المدينة حول عباداتهن ومحادثتهن بشؤون الدين والحياة ، أوانصرافهما إلى الذكر والعبادة، تجدان وقتاً للإجابة على أسئلتنا أكثر من غيرهما....

على أن سؤالاً واحداً طرحتُه على فاطمة الكبرى، فلم يشفِ جوابها غليلي، وإن كان قد أسكت فضول حميدة...،

لقد سألتها بعدما كانت تسرد علينا بحزن وتأثر قصصاً تتعلق بجدتنا فاطمة...، بسبب استشهادها، ودفنها سراً...، وأتى سؤالي ليترجم عظيم حسرتي وانفعالي، اللذين لم أقوَ على ضبطهما، وكان السؤال مصحوباً بتنهدة عميقة جسّدت كل همومي التي ما فتئت أحملها منذ مدة غير يسيرة:

«ألا يجدر بهؤلاء القوم، الذين يعرفون صاحب الحق، أن يؤدوا الحق إلى صاحبه، وهم يعلمون أنهم إن لم يفعلوا، فستكون عاقبتهم وخيمة؟!...»

تنهدت فاطمة وهي ترمق البعيد، كعادتها عند جواب الأسئلة العسيرة، ثم أطرقت قليلاً، ثم أجابت:

«إن الإنسان جهول يا أختاه...، وهولا يدرك قرب الأجل إلا إذاوافاه، كما لايتنبه لحرارة النار إلا حين يلامسها!...»

وفتح لي السؤال باباً لأسئلة أخرى عدت ألح بها:

«ولماذا يكون الإنسان جهولاً، وقد أعطاه الله العلم وأولي العلم؟!... أليس جدنا رسول الله، وجدنا علي، وجدتنا فاطمة...، وعمنا الحسن وأبونا الحسين،... أليسوا هم أولي العلم؟!»

أرادت فاطمة أن تجيب، فقد كانت طويلة البال لا تمل أسئلتي، ولكن نوبة من السعال فاجأتها فغلبتها.

نظرت إليها بقلق، بينما سألتها حميدة:

«هل أنت عليلة يا فاطمة؟»

فهزت برأسها وهي لا تزال تسعل، فأسرعتُ أخرج من الغرفة لأحضر لها قدحاً من الماء، يخفف عنها ما بها، وأنا أشعر بالحرج، لأنني أرهقتها بأسئلتي الكثيرة...، وعدت إليها بالقدح معتذرة، ثم جررت حميدة خارجاً لنتركها ترتاح.... فهتفت حميدة:

«ألا نلعب بعرائسنا يا رقية؟... لقد اشتقت إلى اللعب معك!...»

واستجبت لندائها...، ولكن قلبي كان في مكان آخر...، كان سارحاً خلف أفكاري وأسئلتي التي لا اجد لها جواباً يشفيني...، فالجميع يراني صغيرة، ويحاول ان يبسّط الإجابة لي فأجدها غير كافية...، سوى والدي، الذي يرى ما بداخلي، ربما أكثر مني...، ولكنه غير متفرغ لي في هذه الأيام...، إنه يعطيني من عاطفته الفياضة ما يرويني دهراً، إن كان للارتواء من عاطفته سبيل...، ولكنني لا أجد في نفسي الرغبة بطرح أسئلة عليه، قد تبعث بالهم إلى عينيه...، اللتين تنظران إليّ لترتاحا مما بهما من غم عميق...، ولا أرغب في أن أكدّر صفوه، في الوقت الذي يبحث فيه عن صفو العيش قربي، حين يأتيني، فيلاعبني، ويمضي معي أحلى لحظات حياتي، وربما حياته أيضاً!...

مدينة الرسول،

الخامس والعشرون من رجب، سنة ستين للهجرة

... ها نحن أولاء نعد العدة للرحيل، نحو مكة أم القرى...،

ترى، هل هي الرحلة التي تحدثت عنها عمتي زينب مع عمي العباس وأمه قبل أيام؟!... ولماذا تكون هذه الرحلة محفوفة بالمخاطر وهي رحلة يقوم بها والدي عادة، للعمرة أو للحج إلى بيت الله الحرام؟!...

هل هناك جديد؟!... لا ريب في هذا...، فإن والدي، الذي أعلم أنه، كما شهدت حيناً وسمعت أحياناً، قد حج خمساً وعشرين حجةً مشياً على قدميه المباركتين، من المدينة حيث منزلنا، إلى مكة، منها بصحبة عمي الحسن عليه السلام، ومنها بعد استشهاده، واعتمر عدداً لا يحصى من المرات، وهو لم يكن في كل ذلك يحسب ما يحسب اليوم من حساب....، بل لم يكن يغتم لخروجه من المدينة كاغتمامه الساعة...، كما أنه لم يكن يصطحب معه كل عائلته، وأبناء إخوته وعمومته، رجالاً ونساءً وأطفالاً!...

أما اليوم، فها هو يجول بين دورهم وداره، ويعرّج على قبر

جده مراراً، فيمكث عنده طويلاً، بل يبيت عنده أحياناً...، ويخرج إلى البقيع، حيث مرقد جدتي المعفيّ أثره، ومرقد عمي الحسن الشهيد المسموم، فيطيل المكوث أيضاً...، ثم يعود إلينا بعيون محمرة من أثر البكاء...، ووجه تلوح على جبينه المشرق بأنوار الإمامة، علامات اكفهرارٍ لم نعهده فيه....

«الحال حال مودّع قد لا يعود!...»

كذا سمعت من بعض نساء المدينة اللاتي أتين يودّعننا قبل الرحيل، والدموع في العيون تفيض وتزداد.

قلقت بشدة...، أردت أن أسأل...، عرّجت على غرفة فاطمة الكبرى لأطمئن عليها، فوجدتها تلتهب بالحمى...، حتى لقد كادت حالتها المؤسفة تنسيني سؤالي.

ووجدت سكينة هناك..، تساعد الجدة أم سلمة في تمريضها، فنقلت إليها ما سمعت.

دمعت عينا سكينة وهي تنظر إلى فاطمة، التي فتحت عينيها بغتة حينما نطقت بكلامي...، وضعت سكينة الخرقة المبللة بالماء على جبين فاطمة الملتهب حرارة، ثم أخذتني بيدي إلى خارج الغرفة، وما إن أصبحنا خارجاً حتى أكبّت عليّ تهمس في أذني قائلة:

«بالله عليك يا رقية...، إن فاطمة شديدة المرض، ولكنها تسمع كل ما يدور...، وهي تعلم أنها لن تقدرعلى الرحيل معنا إن

بقيت على حالها هذا من المرض والحمى...، بالله عليك يا رقية، قولي لها ما يخفف عنها، ولا تنطقي أمامها بما يزيد بلواها!...».

... طأطأت برأسي...، ، ولكنني لم أسمع جواباً لسؤالي...، علمت أن لا جواب هناك...، فسلمت أمري إلى الله، فهو حسبي ونعم الوكيل...

... عدت إلى غرفتي...، وأنا أحاول أن أقرر، بعدما فهمته من قرب الرحيل، ما ينبغي أن أحمله معي من عرائسي وبعض أغراضي...، وللمرة الأولى في حياتي، شعرت بالزهد في كل شيء...، لم تعد كل أشيائي تعنيني...، صار كل ما يعنيني أن أتردد بين باحة الدار وغرف السيدات الكبيرات، أراقب كل ما يجري، وأستمع لكل ما يقال، أحاول أن ألملم من هنا وهناك أجوبة لأسئلتي...، وأنتظر قدوم والدي، لأغرق كل خفقات قلبي الحائرة في عمق قلبه الكبير، وكل تنهداتي الحرى في صدره الواسع...، وأستمد من صفاء نظرته القوية، وبسمته الهادئة المستقرة، ما أضحيت أفتقر إليه من هدوء واستقرار!....

مدينة الرسول ﷺ،

الثامن والعشرون من رجب سنة ستين للهجرة

... اليوم هو يوم الرحيل...، بكل ما في الكلمة من أنين ودموع!...

جريان دموعي يمنعني من رؤية طريقي بوضوح، ولكن غرفتي التي أتركها خلفي مصورة في عمق ذاكرتي، وكذلك البيت كله، جدرانه وأثاثه...، ولا تمنعني الدموع الجارية من رؤية النياق المصطفة خارجاً، قد أوثقت عليها أحمالنا، والخيول المحيطة بالنياق، تنتظر فرسانها، ليمتطوها بعد التوديع....

أهل المدينة مصطفّون على جانبي الطريق، بعضهم يبكي وينوح، والبعض يتحسر ويتأوه...، ويحاولون أن يثنوا أبي، للمرة الأخيرة عن الرحيل...، لكن إصراره يزيد أساهم، وكلماته الملوّعة تهيج أشجانهم المتراكمة وأشجاننا، منذ استشهاد جدنا حتى الساعة:

«ما خرجت أشِراً ولا بطِراً، ولا ظالماً ولا مفسداً...، إنما

خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي رسول الله ﷺ، أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر»...

وبدأنا بالركوب، وبدأ أهل المدينة ينتحبون...، كأنهم لم يصدقوا أن ما يجري حقيقة، حتى بدأت الرحلة حقاً!...

تقدّم أعمامي وإخوتي ليركبونا في الهوادج...، تأخرت عنهم...، أردت أن يركبني والدي، أقرب ما أكون إليه.

ورصدت ما يجري...، قام علي الاكبر بإركاب أمه ليلى، وقام القاسم بن عمي الحسن بإركاب أمه رملة، و...، و...، وقام عمي العباس يريد أن يُركِب عماتي، ثم أخذ بيد عمتي زينب حتى أوصلها إلى محملها...، وأتى أخي علي الأكبر ليُركِبني أنا وسكينة...، كما ركبت خالتي الرباب مع أخي عبد الله...، صحيح أنني أرغب في مجاورة والدي، ولكن الهوادج للنساء والأطفال كالخدور، ولا يمكن ان أرفض يد أخي علي الأكبر إذا ما امتدت إليّ، فهي تذكّرني كثيراً بيد والدي...،

ولكن ما أخّرني وأخّره قليلاً، كان صوتاً من داخل الدار...، إنها أختي فاطمة الكبرى، إنها لا تزال عليلة ولن تستطيع مرافقتنا...، جذبني الصوت إلى الداخل من جديد، داخل قلبي وداخل البيت، أنا التي لم أخرج منهما حقاً بعد.

... وعدت بلهفة إليها، أعانقها، وأفرغ كل شوقي لهذا

المكان الحبيب في دموع تمتزج بدموعها...، ، ويأتي أبي...، يستحضره صوتها الضعيف المنكسر، فينكسر قلبه وتدمع عينه...،

وتنتحب فاطمة وهي تعانقه وتتعلق به كطفلة صغيرة، وتقول:

«أبتاه...، هل ستتركني وحيدة؟... هل ستتركني خلفك وترحل؟... هل سترحلون جميعاً من دوني؟..

ويجيبها أبي بنبرة تقطر أسفاً، أنها ليست وحيدة، فهي في حمى الله عز وجل، وبين أحضان جدها المصطفى وجدتها أم سلمة، التي ستقوم بتمريضها ريثما تشفى وتلحق بنا...،

ويزيد أبي بقوله، أن خروجه ليس بيده، وأنه أمر من الله...،

وتصمت فاطمة، تعلم أن دموعها ونحيبها يزيدان من هم والدنا، فتصمت وتتجلّد وتذعن بالقبول، وتفارقه مودعة في رضىً وتسليم.

هنيئاً لك هذا التسليم يا فاطمة، وكان الله في عونك، إذ أنني ما كنت لأتحمل ما تحملتِه لو كنت مكانك...، لا يمكن أن أتحمل الابتعاد عن والدي أبداً مهما كانت الأسباب...، علمت كم تعانين عندما لاحظت شحوبك ووجومك بعد التوديع...، وبعدما ركبنا وتهيأت القافلة للمسير، إذ رأيتك تتسترين بباب الدار، بعدما زحفتِ نحوه لتنظري إلينا من خلفه نظرة أخيرة...، وتمسحين إن كان بمقدورك أن تمسحي ما جرى من دموع.

وجهك لا يزال يلوح لي خلف الباب، فيذكّرني بباب جدتنا

فاطمة...، لم تستطيعي أن تشيّعينا مع المشيّعين، مع الجدة أم سلمة والسيدة أم البنين، اللتين وقفتا مع النساء الباكيات، وارتفع نحيبهن قبل المسير...،

بل إن أم البنين تقدمت من أولادها الأربعة، أعمامي عبد الله وجعفر وعثمان وأبي الفضل العباس، وراحت تزيدهم من توصياتها، وتؤكّد عليهم بأن يلزموا سيدهم الإمام الحسين عليه السلام كظله، وأن لا يفارقوه حتى يرِدوا مورده...، أن يظلّلوه من شمس الصحراء المحرقة ويدثّروه من بردها القارس، أن يقوه من كل سوء ولو بأرواحهم...، وأن تكون أنفسهم له فداءً ووقاء...، فكانوا يرددون بلطف ومودة، وقد خفضوا رؤوسهم تسليماً لكلامها: «حباً وكرامةً يا أماه!... لا تخشي على أبنائك من التفريط بمولاهم، فأنت قد ربيتهم على ذلك!...»

ويزيدهم عمي أبو الفضل وهو يطبع على يديها الحانيتين ثم جبهتها الأبية قبلة الوداع:

«لقد أينعت الثمار التي تعهدتِها بالري يا أماه...، وآن أوان القطاف...، فلمثل هذا اليوم ادخرني والدي!...»

ويعلو صوت يشقّ القلوب والفضاء:

«أين أخي؟... أين كبش كتيبتي؟... أين قمر بني هاشم؟»

ونلتفت جميعنا ثانية إلى عمي أبي الفضل، الذي ينفلت من وداع أمه، ويهب نحو أبي قائلاً بلهفة ما مثلها لهفة:

«لبيك لبيك... يا سيدي!»

أجل...، إن عمي العباس، لم ينادِ والدي يوماً بكلمة «أخي»...، وهذا ما ألاحظه دائماً دون أن أفهمه...، فأجده غريباً ولكنه معتاداً...، إن عمي العباس دائم الحضور بين يدي والدي، يرعى شؤونه ويخدمه، ولعله لا يجد في لسانه، وهو الفصيح الشجاع، القوة والقدرة على دعوته بكلمة «أخي»!... هل إن إكباره له يمنعه، واستصغاره لقدره أمامه يثنيه، وهو العظيم القدر ذو المهابة والمكانة؟!... إنه ذاك بلا ريب، كما أنني اليوم فهمته أكثر، بعدما سمعت خطابه لوالدته الحنون وهي توصيه...، خطابها له، ثم خطابه لأبي...، وذكره لوالده، جدي علي...،

أجل...، لله درك يا عماه...، إنك حقاً لجدير بما يطلقه عليك والدي من ألقاب وصفات...،

والآن، ها هو يطلب منك أن تقدم له جواده، وها أنت تسارع إلى تلبية الطلب بنفسٍ تواقة لخدمة أخيك بل سيدك الحبيب...، وتلزم ركاب الفرس حتى يركب الحسين، كالخادم المطيع، وأنت الفارس المقدام...، وبذا تكون أنت آخر من يركب!....

... مع ركوب عمي العباس، يعلم أهل المدينة أن الفراق قد حان، فترتفع الأصوات بالنحيب؛

.... ترى....، كيف ستستطيعين أيتها الأم الطاهرة، يا أم البنين، أن تتحملي هذا الفراق؟!...

أعلم أن الجدة أم البنين هي زوجة جدي أمير المؤمنين، وأنها خدمت والدي الحسين عليه السلام وإخوته، أبناء وبنات الزهراء، بعد وفاة أمهم سيدة النساء...، فكانت لهم نعم المربية المضحية المحبة...، حتى إنها رفضت أن يدعوها جدي باسمها، أي فاطمة، كي لا تنكأ جراحهم وتذكرهم بأمهم فاطمة، فصار جدي يدعوها بأم البنين،.. وربما كان رفضها ذاك، كرفض ولدها الآن، أي استصغاراً واستحقاراً لنفسها أمام عظمة ومكانة الزهراء....، فهي عارفة بحقها وحق أبنائها المعصومين.

لشد ما يزداد حبي وإكباري لهذه المرأة الصالحة، كلما لاحظتُ أي حب عظيم تكنّه لوالدي...، حتى إنها ترى نفسها وأولادها خدماً في باحة قدسه!...

... ها هي أم البنين تودع بنيها...، وهاهو عمي العباس يرمقها بنظرة طويلة دامعة، قبل أن يلوي عنان فرسه، ليلحق بأبي الحسين...، وهو يرفع راية الحمد، راية جدنا رسول الله وأبينا أمير المؤمنين..،

يرفعها عالياً عند المسير ويقول:

«هذا والله الفراق...، والملتقى يوم القيامة!»

مشارف مكة،

الثالث من شعبان سنة تسع وخمسين للهجرة

«إنها مشارف مكة...، الكعبة المشرّفة تطل من بعيد!»

كان نداء القافلة يتعالى ببشر بعد عهدنا به، فأطللت برأسي من المحمل لأرى ذلك المكان القدسي، الذي طالما سمعت خبره في قصص جدتي أم سلمة، وجدتي أم البنين، وأختيّ سكينة وفاطمة الكبرى...، هاجت شجوني عندما تذكرت فاطمة، ولكني تجلدت، وتشاغلت بالنظر بعيداً أبحث وأدقق لأرى ما يرون، وأستشعر البشر الذي يشعرون.

... ورأيتها...، بناء قاتم اللون يتوهج من البعيد بضياء غريب...، لم أكن أعلم ان الحلوكة يمكن أن تضيء وتتوهج، حتى رأيت ذلك المنظر.

... وازداد شوقي للوصول، وازداد شوقي للنزول من المحمل، لأطأ الأرض المباركة، وأمسك بيد والدي، عساه يأذن لي بالنزول إلى الطواف معه!...

... ها هو محرم قد لبس البياض...، وهاهم جميعاً محرمون، وهم يهتفون ويلبون: «لبيك اللهم لبيك».

إني لم أرَ والدي في مثل هذا اللباس من قبل!... ولذا فقد هالتني رؤيته...، كان أشبه بمخلوق سماوي هبط إلى الأرض على حين غرة...، وتبسمت وأنا أفكر...، إني سمعت في حديث دار يوماً بين نساء الدار، أن من كرامات جدتي الزهراء ووالدي الحسين عليهما السلام عندما كان رضيعاً، أنها كانت إذا صلت أتى ميكائيل فهز مهده، وكان جبرائيل له مناغياً...، إذاً، فالتشبيه في غير محله...، ليس والدي مخلوقاً سماوياً...، بل إن مخلوقات السماء هي التي تقوم على خدمته وتتبرك به...، إذاً فهو مخلوق أسمى وأرقى!...

طفت به مراراً وهو يسير، وأنا أسأله أن يحملني معه إلى الطواف...،

تبسم وهو يحملني ...، ثم نادتني سكينة، لتحكي لي حكاية من حكايات الكعبة، بل أهمها وأروعها.

علمت أنها أرادت أن تشغلني لتبعدني عنه، كي يتفرغ لعبادته...، ولكن، هل أنا أحول بينه وبين عبادته؟... أنا التي تعودت منذ عرفت الحياة وعشت الصلاة، أن أفرش له مصلاه، وأمهد له مكان عبادته!

إني متشوقة لأن أطوف بكعبتي التي أراها في عينيه، فيما هو يطوف بكعبة جده، فهل هذا كثير؟!...

لكنني رغم كل ذلك استجبت لنداء سكينة، فقد شاقني حديثها...، على ان تظل يدي في يد والدي، أحس بقربه، وأتلمس نبضه...،

وأستمع إلى القصة...، قصة ولادة جدي علي عليه السلام.

«وما لولادة جدي وللكعبة؟!...» سألت مستغربة.

تبسمت سكينة وهي تجيب:

«إن جدنا ولد في الكعبة يا رقية!... لقد كرّمه الله بهذه الكرامة!...»

«بل كرّمها به يا سكينة...، فهو كعبة المتّقين!...»

كان تعليقاً من أخي علي الأكبر، فسارعت سكينة تتدارك حديثها بالقول:

«إن شدة الشوق إلى الكعبة أربكتني يا أخي، فاعذرني!...»

«أوليس شوقك للغري(*) أكبر؟!...» سألها علي بإصرار، فتدخل عمي العباس:

«إن الشوق يبدو زائداً مع قرب الوصول، وإن كان الشوق إلى كعبة الغري لا يماثله شوق!...»

توقف الجميع لحظة، واتجهت الأنظار دامعة لتعبر البيداء باتجاه مشرق الشمس، علمت أنهم يتوجهون صوب مرقد جدي علي...، وهاجت الأشجان، وكاد يرتفع بكاء ونحيب، ولكن أبي أشار إلينا بمتابعة المسير بحسرة هادئة:

«إن البكاء أمامكن، فلا تبكين الآن...، وليس الوصول إلى المرام ببعيد!...»

(*) الغري: هو النجف الأشرف، مكان دفن أمير المؤمنين عليه السلام في العراق.

مكة أم القرى،

الخامس من رمضان، سنة ستين للهجرة

... بين البيت والمقام، كان لنا مقام، في منزل عمنا العباس بن عبد المطلب...

ومع الطواف والسعي طافت بنا أيام طويلة، قضيناها في جنب المسجد الحرام نلبي نداء الرب...،

وها هو شهر المغفرة يطل علينا ليحمل لنا تباشير الرحمة، فالأنفاس فيه تسبيح والنوم عبادة...، والصوم يبدأ بالسحر، ذكراً وشكراً وتهجداً وتلاوةً للآيات المنزلة، ولا ينتهي بإفطار قوامه الزهد في درجات هذه الدنيا، والتصدق بما فيها لنيل الآخرة ونعيمها.

أما النوم، فقلةٌ منا النائمون، وقليلٌ نومهم، فهم عن النوم منشغلون، يتزودون بخير الزاد، عساهم يعدون العدّة ليوم المعاد.

وأما الأنفاس، فهي في ظل سبط الرسول تسبّح وتهلّل، والكعبة تحت وهج ضيائه يزداد إشراقها.

لست أدري، لِمَ أشعربأنني أنتظر أمراً...، منذ خرجنا من المدينة «خائفين نترقب» إلى أن وصلنا مكة «عسى أن يهدينا ربنا سواء السبيل»، وأقمنا فيها، لست أدري لِمَ أتنفس فيها عبق عطرٍ آن أوان فيضه، ورشح ندىً أتى حين هطوله...، إنها أيام يستغلها كل من في الدار، صغاراً وكباراً، للتزود واختزان الري ليوم قد يظمأ الناس، فيرتوون بما يجدون في طيات القلوب، وبواطن السرائر والنفوس المطمئنة.

... أعلم أن والدي، الذي يعتكف، على عادته في شهر رمضان، ويتفرغ للعبادة على عادته فيه وفي غيره من الشهور، وهو الذي يصلي في اليوم والليلة ألف ركعة في كل آن، أعلم أنه يتلقى ما يتلقى من الوعود والعهود، والدعوات والتحيات، من أهل ذلك البلد، حيث مرقد جدي علي، ليعود إليهم ويكون لهم قائداً ومرشداً، وحاكماً بالعدل.

لا أرى الاطمئنان في حديث والدي و ردّه، ولكنني أرى الطمأنينة، التي لا يغيرها شيء...،

وأسأل أختي سكينة، عن سبب ذلك، فتجيب بغصّة:

«إنهم أهل الكوفة يا رقية...، أنت لا تعرفين أهل الكوفة!»

«... هل هم أشقياء يا أختاه؟»

تتنهد بهمّ وهي تجيب:

«فيهم الشقي وفيهم التقي، كما هو حال كل البشرفي كل

البلاد، ولكنهم قلّما يجتمعون على كلمة الحق، وهم إذا اجتمعوا قلّما يبقون على عهد ووعد.... لقد خذلوا جدنا أمير المؤمنين عليه السلام، ثم بكوه منتحبين حال استشهاده، وخذلوا عمنا المجتبى عليه السلام ونصروا أعداءه، حتى إذا عاد إلى المدينة يلوذ بساكنها، لم يتركوه حتى تآمروا عليه، وأوردوه مورد أبيه، ظلماً وبغياً علينا...، إنني أخشى على والدنا الحسين منهم ومن غدرهم يا أختاه!....»

... زاد كلام سكينة من قلقي وخوفي على والدي، حتى صار خوفي عليه ديدناً تعودته، لا يغيب عن بصري ساعة، حتى أجلس في انتظاره ملهوفة ملتاعة...،فإذا أطل، كان ذلك غاية أملي وسؤلي، فأندفع نحوه، لأنعم بفيئه وأستظل بدوحته...، وأقضي بصحبته ما أمكن لي...، لأتزود من معين قربه لساعات بُعدٍ قادمة.....

مكة أم القرى،

العشرون من رمضان سنة ستين للهجرة

في الدار حزن وفراق...، وفي القلب لوعة واحتراق...،

... كلا، لا زلنا في مكة نلبي نداء الرحمان، بصيام وقيام...، أحاول أن أجاري الكبار، فأقدر أو لا أقدر، ، حسب ما يسمح لي سني، وقدرتي على الامتناع عن الطعام والشراب...،

أحسب أن هذا ليس بعسير، فإني أصلاً لا أحب تذوّق الطعام ما لم يتذوّقه والدي، وكذا الشراب...، إذاً فصيامي أمر واقع، لا لفريضة فرضها الله عليّ وأنا لا زلت في عمرٍ دون التكليف، لكن لفريضة فرضها قلبي وحبي وكل كياني...، شرط شرطه عليّ بدني الملوّع دائماً بانتظار والدي الحبيب، أن لا يكون لي غذاء إلا ما له فيه نصيب، بل أن يكون غذائي أنا بعضاً من غذاء والدي.... ألست أنا قطرة من ديمته، وفلذة من فؤاده، ودمعة من فيض سخائه، الذي يجري من عينيه وكفيه، في كل حين؟!...

إذاً فالصوم عليّ قدر وإن لم يكن فريضة، وأنا به متهنية مسرورة، لأنه يصونني عن كل ما منعه والدي عن نفسه، حتى إذا

سمح به، سمحت لنفسي، بل سمح لي بأن أشاطره جزء إفطاره، كما أشاطره موضع صلاته، فأنال من ذلك الخير الوفير، وإذا لقيمةٌ لي، أسوغها من يده المباركة، تشبعني لساعات وساعات، فلا أطلب بعدها الماء ولا الزاد.

... ولكن ما لي منشغلة عن أترابي؟!...

إن الوفاء لقلبي لم يدع لي فرصة للحياة معهن كإحداهن....،

على أن أمراً قد ساقني اليوم للسعي إليهن، أمراً له صلة بوالدي، وبوالد حميدة، عمي مسلم بن عقيل.

لقد رأيت دموعها على خديها يوم سافر أبوها...، إذ أرسله أبي إلى أهل الكوفة، سفيراً وممثلاً له بين ظهرانيهم، ليتبين له صلاح أمرهم أو فساده، وليوطّئ له الأرض، إن صلح الأمر، ويأخذ له البيعة.

لقد كان في دموعها إباء وعزة، وحزن ووحشة؛... عزة لافتخارها بأن أبي الحسين، حجة الله في أرضه، وسبط رسوله الكريم، قد اختار والدها واصطفاه على من سواه من صحبه وأهل بيته، ليكون ممثلاً له...، وحزن على فراق والدها لأمد لا تعلم طوله أو قصره!...

أما أنا...، فقد كان لي حزن على ذلك الفراق، وخوف أيضاً؛... حزن لحزن حميدة، صديقتي ورفيقتي، وابنة عمتي الحبيبة أم كلثوم...، وخوف على صفيّ والدي وسفيره، عمي

مسلم، بعدما سمعته من أختي سكينة قبل أيام، حول غدر أهل الكوفة وسابقتهم في نقض العهود!...

«... ولكن اثني عشر ألف كتاب قد ورد إلى خالي الحسين، من أهل الكوفة...، كلهم يبايعون ويعِدون بالنصرة...»،

سمعت عبد الله بن مسلم، أخا حميدة، يحاول ان يطمئن أمه، التي ربّتت على كتفه وتبسمت في وجهه بسمة، أشرقت بها ملامحه، فتركها، ولكنها نضحت بما في نفسها الصافية من هم وغم.... فسعيت نحو حميدة...، التي كانت لا تزال تمسح دمعة وتذرف أخرى، وجلست قربها...، رحت أبحث عن كلمة تخفف عنها، فلم أجد، ولكن مجرد جلوسي قربها جعلها تتجلّد وتصمت، وتمسح آخر دمعة وتزفر آخر آهة لتلتفت إليّ قائلة:

«أنت هنا يا رقية؟!... لم ألتفت إليك عند دخولك!...»

«أتيت لأقضي بعض الوقت برفقتك، فهل أنت خالية؟»

شهقت قليلاً وكادت تعود إلى البكاء وهي تقول:

«أجل، ولكن قلبي غير خالٍ...»،

ومنعها عن مواصلة الشكوى وضع يدي على يدها وقولي:

«إنه في حمى الله يا حميدة، أليس هكذا يقول والدي دائماً...، ثم إنه يطيع أمر الله وأمر إمامه، فلا بأس عليه إذاً، ولا داعي للبكاء....».

... هزت برأسها مقتنعة وقمنا سوية...، وأحببت أن أزيدها

سلوى، فدعوتها إلى بيتنا، حيث أختي سكينة وأخي عبد الله.

رباه...، لشد ما اشتقت إليك أيها الحبيب الصغير، يا علياً الأصغر، ألست أنا فاطمة الصغرى وأنت علي الأصغر، أي أن كلينا أصغر من في هذا البيت المبارك عمراً، متبركين بحمل أشرف الأسماء؟!...

لقد أهملت أمرك أياماً، فأنا أراك ولا أرعاك، وألقاك فلا أناغيك وأناجيك...، وربما انتابني الشوق إليك ساعات طويلة، ولكن ما يشغلني عنك كان يصرفني...، فهل قصّرت في حقك يا ترى؟...

مجرد الفكرة في التقصير تلهب جوانحي، فأنت حبيب والدي، وفي رعايتك رعايته، وفي عينيك نظرته، وفي قلبك الصغير الدافئ نبضته وخفقته.... إذاً...، عذراً أيها الحبيب، عذراً عن التواني...، وأعدك وعداً لا أخلفه، أن لا أهجرك بعد قط، وأن أكون على الدوام صفيّتك وحبيبتك، كما أنا صفيّة والدي وحبيبته!...

مكة أم القرى،

الأول من شوال سنة ستين للهجرة

... اليوم عيد!...

كذا انتشر في جوار الحرم، وانصرف الناس يهنئ بعضهم بعضاً...، وازدحم مجلس والدي بالغادين والرائحين...، يهنئونه بحلول العيد، ويهنئون أنفسهم بحلوله بينهم في الحرم المكي في هذه الأيام المباركة، على غير العادة من أيام عيد الفطر من كل عام، حيث تعودنا أن نقضيها بجوار قبر جدنا في المدينة، حيث كنا نصوم ونفطر.

ولكنها سنة غريبة، كل ما فيها غريب، صيامها، فطرها...، حتى عيدها ليس كالأعياد!

لقد خصنا والدي بالطيب من الطعام والجديد من اللباس، جرياً على عادته في كل عيد، وبعد أن خص فقراء مكة بهذا وأكثر، إذ كان لا يُدخِل بيتنا شيئاً في أيام الصيام وغيرها، إلا كان آخر مطافه في العطاء، وقدوته في كل ذلك جدنا أمير المؤمنين عليه السلام، الذي اكتفى من دنياه بطِمريه ومن طُعمه بقرصيه،

بل إنه كان لا يشبع من طعام قط، حتى إذا سئل في ذلك أجاب: «أأشبع وربما كان في بعض الأقفار من لا عهد له بالشبع؟!»

تلك أخبار حدثتني بها سكينة، فروت بها بعض ما يعتريني في كل حين، من ظمأ لا يرتوي، إلى أخبار جدي وجدتي الطاهرين...، ذينك النورين اللّذَيْن كانت إحدى ثمارهما وأزكاها وأنداها، ثمرة والدي الحسين!

لله درك ياأبتاه، ما أرق قلبك وأحن فؤادك...، أنت أبو الأرامل واليتامى والمساكين...، إنك بحق وريث أخيك الحسن وأبيك علي، وجدك المصطفى وأمك الزهراء...، أنت أحد الذين ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾....

... لست أدري لِمَ يزداد شوقي إليهم جميعاً حين أذكرهم، رغم أني لم أعرف أشخاصهم في هذه الدنيا، ولكني عرفت أنوارهم وأرواحهم، وقرأت عشقهم في سِفرك المكنون...، ورأيت آثارهم في حركاتك وسكناتك، وخصالك وصفاتك....

... ولكن...، ترى، لِمَ لم أر في وجهك فرحة العيد؟!.. إنك تتحفنا وتحادثنا، تريد أن تبهج قلوبنا...، ولكن أنى للبهجة أن تعرف سبيلها إليّ، وهي عنك في منأى؟...

أعلم أنه قد كتب علينا منذ زمن، منذ بداية المصائب والهموم، مع مصابنا بجدنا المصطفى وأمنا البتول، أن تكون

أفراحنا أتراحاً، حتى وإن ألبسناها لبوس العيد...، ولكني أعلم أيضاً، أن لهذا العيد اليوم موقعاً مختلفاً عن كل عيد آخر!...

... وسمعت همساً في زاوية الدار...، أظنها كانت عمتي زينب تخاطب أبي وتناجيه، أو ربما تناجي أباها أمير المؤمنين، على عادتها كلما اشتد بها إليه الحنين:

«أهو العيد الأخير؟!... هل قضي الأمر وأقرّالمصير؟!.. إذا كان الأمر كذلك، فلا حول ولا قوة إلا بالله العليّ القدير»!

... همست الكلمات في أذني...، وعزفت على أوتار قلبي المشدودة، فدفعت في جوارحي دفقاً من الأسى العميق.

إن هذا العيد، لولا اضطراري فيه لإظهار السرور، مراعاةً لعزيزتي حميدة، ووفاءً بوعدي لعبد الله الرضيع، لما كان فيه من «العيد» إلا اسمه، وتبقى عينه وداله، «دمعاً» على خدي أخفيه ولا أبديه، لكيلا يحزن والدي ويغتم، إذا رآني غير مبتهجة كما يحب لي أن أكون.....

مكة أم القرى،

السابع من ذي الحجة سنة ستين للهجرة

... يا رب أنا أمتك رقية، أسألك الصبر يا رب!...

هما شهر وبعض شهر قد انصرما...، ولكنني لست أدري لماذا أشعر وكأن كل يوم من أيام هذه الرحلة يزيدني سنة من العمر...، أو ربما أكثر!..

كل يوم أتعلم الكثير، وكيف لا أتعلم، والصحبة القريبة هم أهل البيت، صغيرهم وكبيرهم، وصفوة أهل العالم؟!...

كيف لا أتعلم وأذني الصاغية وقلبي الملهوف للمعرفة، يتشرب ري كل كلمة وكل حديث يدور بين أهل بيتي المحيطين بي؟!و أفهم... وأفهم، ربما بغير حدود...، حتى لأشعر بأني قد أصبحت مكلّفة بالحج والصلاة، وكل الواجبات، وإن يكن عمري لا يجاوز الأعوام الثلاثة...، وما الأعوام الثلاثة أمام بحر من العلم يروي عمق الفؤاد، فيثمر ما لا تثمره أمهات الشجر؟!....

... ها هو مصلى أبي ينتظره..، لقد أعددته له حالما أذن المؤذن للصلاة...، علمت من حديثه مع عمتي زينب قبل ساعة،

أنه لن يعود إلى الحرم ثانية...، هو لن يستكمل حجته التي كان قد بدأ إحرامه لها...، لقد أحلّ من إحرامه، وأمر أصحابه وأهل بيته أن يفعلوا!...

«لنا حج أكبر قد دعينا إليه...، ولامفر من التلبية!...».

«لبيك اللهم لبيك...، لبيك يا ابن رسول الله لبيك!».

وتلتفّ الكواكب حول الشمس، شمس والدي الحبيب، ويتألق بينها القمر، قمر عشيرتنا عمي أبو الفضل...، ويصطفّ الموكب على طريق الرحيل من جديد!...

رباه...، هو الفراق ثانية، فراق بيت الله بعد فراق رسول الله...، هو الوداع ثانية، ولكن إلى أين؟...

... عند العشية يأتي إلى والدي بعض رجالات مكة، يحاولون أن يستبقوه في الحرم.

أحدهم يدخل عليه متوكئاً على غلام له، فيستقبله أبي بحفاوة وترحاب.

أسأل سكينة عنه، من مجلسنا خلف الحجاب، حيث كنا نراقب ما يجري قلقات، فتجيبني بحسرة:

«إنه صفي جدنا علي، حِبره وأقرب أصحابه إليه...»،

قاطعتها أعلّق مصححة:

«ليس عمي عبد الله بن جعفر، زوج عمتنا زينب، فذاك

أعرفه جيداً...، يبدو أنه مكفوف البصر كإياه، ولكنه ليس هو، لعلك لا ترينه جيداً!»

تبسمت سكينة وهي تجيب بثقة:

«ليس هو، أعلم ذلك يا رقية، ولكنه كما قلت لك...، حبر جدنا وصفيه، وتلميذه الأنجب...، إنه ابن عم جدنا، عبد الله بن عباس، ولا بد أن أكون قد ذكرت لك شيئاً من حديثه من قبل.»

تذكرت أمراً، فعاودت النظر إلى الرجل المهيب الذي أجلسه والدي بجواره، وانصرف إليه يستمع لحديثه، ويحادثه...، ثم سارعت أسأل:

«أهو ابن عمنا العباس بن عبد المطلب، صاحب هذه الدار؟»

هزت سكينة برأسها موافقة، وقبل أن تنطق بشيء كنت أعاود السؤال بغصة:

«أهو الذي أخبرتني عنه يوماً، أن حزنه وبكاءه على جدي أمير المؤمنين قد ذهبا ببصره؟!»

«إنه هو!»

دمعت عيني وأنا أراقبه، أحاول أن أستشف مظاهر عشق الإمامة في محياه، ذاك العشق الذي جعل البصر يأبى أن يرى الدنيا خالية من وجه الحبيب، فراح يبحث عنه في عمق البصيرة، ومكنون القلب الملوّع الملهوف.

كان الرجل منصرفاً بكله إلى والدي، يحاول بكل ماأوتي من علم ورأي أن يقنعه بالعدول عن قرار الرحيل، ولكن إصرار والدي، وهو الحجة العارف بخفايا الأمور، حمل إلى عينيه المطفأتين دموعاً سخية، ثم إنه قام يجرّر أذياله آيساً، بعدما ودّع والدي وداع الراحلين، وكأنما هو الوداع الأخير.

لم يكد عبد الله ابن عباس ينصرف، حتى أتى عمي محمد بن علي...، هو من سكان مكة، ولذا فإني قلما كنت أراه في بيتنا بالمدينة...، هو رجل مهيب ذو مكانة وجلال...، أوليس ابن جدي علي؟!...

هو يحاول أن يثني أبي عن عزمه، يرجوه ويلحّ عليه بعدم الخروج...، ويبكي...، كل الرجال المهيبون، حين يتطلعون إلى وجه والدي يبكون، أما أنا، فأطمئن وأرتاح!...

ويقول عمي:

«إن أهل العراق قد غدروا بأبينا علي وأخينا الحسن...، أنت تعرفهم يا أخي، وأخشى أن يغدروا بك أنت أيضاً...، فهلا أقمت بمكة وكنت بالحرم المطهر فهو آمن؟...».

ويجيب أبي بهدوء واطمئنان، ولكن، بهم لا ينكر:

«يا أخي، قد خفت أن يغتالني يزيد بن معاوية، فأكون الذي تستباح به حرمة البيت!...».

رباه!... أبي؟!... تستباح به حرمة البيت، وهو ابن البيت

وابن وليد البيت؟!... ولكن... ترى من يزيد ابن معاوية هذا؟... يبدو أنه رجل سوء وخبث، وإلا لما فكر في أن يغتال والدي، وفي البيت الحرام أيضاً!... أجل...، إني لأذكر أن والدي قد ذكره يوماً في المدينة فقال لواليها، كما سمعت من بعض نساء الدار: «إن يزيد رجل فاسق فاجر، قاتل النفس المحترمة، ومثلي لا يبايع مثله».

ويح هذا الرجل...، تراودني عند ذكر اسمه أفكار كثيرة ومخاوف أكثر، وأسئلة عصية؛ إن هذه الصفات التي وصفه بها والدي مخيفة...، رباه وهل يكون في ديننا، وبين المسلمين رجل هذه صفاته، وينصره المسلمون؟!... إن هذا حقاً لغريب، ولعل هذا هو ما يحزن والدي ويزيده حزناً يوماً بعد يوم...، لشد ما أنفر من هذا الرجل اللعين، ولشد ما أخشاه!... ولكن نظرة واحدة إلى وجه والدي تجعلني أجد الطمأنينة التي أكاد أفقد.... أجل، فمع والدي لا مكان للخوف والوجل، ومع صوته المطمئن الهادئ تسكن الأصوات والهمسات، ولا تبقى إلا النبضات والأنفاس، التي تندمج بشكل عجيب ساحر بنبضه القدسي، وتغرق في لجة قلبه الذي لا منتهى لعمقه وحدوده، فهو يتسع لكل القلوب والآهات والاصوات.

... على أن تتمة الحديث تذهلني وأخشى أن أسأل فأجاب فلا أفهم الجواب، أو أفهم فلا أطيق أو أتحمل...، إن عمي محمداً عاد يقول:

«إذاً فسر إلى اليمن أو بعض نواحي البر، فهي أمنع لك ولا يُقدر عليك!».

وعاد أبي يجيب:

«والله يا أخي لو كنت في جحر هامة من هوام الأرض لاستخرجوني منه حتى يقتلوني!...».

الحديث أخافني من جديد... فأقبلتُ حتى ارتميتُ في حضن والدي أحتمي به، وربما أحاول أن أحميه...،

أقبلت عمتي زينب...، أرادت أن ترفعني عنه وتأخذني إليها، ولكني تمسكت به...، أردت أن أستظل بفيئه، وأهدئ روعي وروعه...، أولست أنا فاطمة؟!... أوليست جدتي فاطمة أم أبيها؟!..

.... أرى به رغبة بالصلاة والاستزادة من عبادة ربه، فأتنحى، لا لأتركه، بل لأسوي مصلاه، ولأجلس قربه...، تريد عمتي أن تبعدني ثانية...، فيشير إليها والدي بأن تتركني، ويهمس لها بصوت أسمعه...، وينطبع على شغاف قلبي بنبرته وكلماته، التي يختمها والدي بزفرة وعبرة:

«ألا ترين يا أختاه كم هي شبيهة بأمنا فاطمة؟!... ألا ترين إلى مشيتها وجلستها؟... ألا تنصتين إلى صوتها ونبرتها؟ أليس هكذا كانت تمشي وتجلس وتتحدث أمنا فاطمة؟...»

أتيه فخراً... أنا؟!... أشبه جدتي؟!... أنا، فاطمة الصغرى...، صغيرة الجرم كبيرة القدر عند والدي...، واهنائي!. واسعدي!... إذاً لم يكذّبني شعوري، بأن والدي يرى فيّ ما لا يراه في سواي من أخواتي...، لم يفاجئني حديث والدي، فقد كنت أدرك في صميم قلبي فحواه منذ وعيت الحياة...، ولكنه أثلج فؤادي، وأتى ليؤكد اعتقادي...، ليرسم لي درباً كنت أحياها، فصارت مشعّة بالحياة، وكنت أدركها وأعرف كل خطوطها...، فصارت أمامي صراطاً لا أتنكّبه، صراطاً مستقيماً كشعاع نورٍ ساطع، يرقى ويسمو ويتعالى، من الأرض نحو عنان السماء.....

مكة أم القرى،

الثامن من ذي الحجة سنة ستين للهجرة

ها نحن أولاء نجد المسير إلى حيث رسم لنا العلي القديرذاك المصير...، أجل، فعند السحر انطلقنا...، أيقظتني حمحمة الخيول ورغاء النياق، قبل أن توقظني عمتي زينب، عند اكتمال الركب وقبيل الانطلاق...، بل إنها لم توقظني، وإنما أيقظني ارتفاعي من مرقدي فجأة، لأجد نفسي محمولة بين ذراعي عمي العباس، الذي وصل بي إلى محمل عمتيّ زينب وأم كلثوم ثم ناولني لعمتي زينب التي سبقتني بالركوب، فاستلمتني منه، وضمتني إلى حضنها الدافئ، عساي أخلد إلى النوم من جديد.

كانت عمتي أم كلثوم وابنتها حميدةقد سبقتانا، وكانت حميدة قد خلدت إلى النوم حالما ركنت في الهودج واستسلمت لحضن أمها، أما أنا، فقد طار النوم من عينيّ، وجلست بين يدي عمتي بدل أن أنام، ورحت ألتفت يمنة ويسرة، لأرى والدي، لأسكّن وجيب فؤادي بنور طلته...، وما إن لمحته يعتلي ناقته في مقدمة القافلة، حتى هدأت واستكنت، وحاولت العودة إلى النوم....

... ولكن أصوات الرجال في الخارج أقلقتني...، والنظر إلى وجه عمتيّ المتوتر ونظرتهما المتطايرة، وشفتيهما المرتعشتين اللتين كانتا تلهجان بالدعاء...، كل ذلك أخرجني من سلطان النوم، وأدخلني في عالم آخر.

كان صوت عمي محمد بن علي، يخاطب والدي...، لم أفهم كل ما قيل، فقد كان الصوت منخفضاً وحمحمة الخيول تشوّش عليه أحياناً...، لم أفهم تماماً ما قاله عمي، ولكن نبرة والدي المميزة لديّ، رغم انخفاضها، كانت أكثر انجذاباً إلى سمعي، ربما لأنني كنت أسمعها بقلبي قبل أذني...، وفهمت أننا راحلون نحو العراق...، نظرتُ إلى عمتي أم كلثوم مستفهمة:

«إلى حيث عمي مسلم؟»

هزت عمتي برأسها، وأردت أن أسأل مجدداً، إن كان هو المكان الذي أشار إليه عمي محمدٌ البارحة، وحذّر والدي منه...، وعرفت من قبل طبائع أهله وغدرهم...، ولكن كلمات أخرى دوّت في سمعي مجدداً كالرعد القاصف، وحملت إلى عيني عمتيّ دموعاً كالمطر، رغم أن صوت والدي كان كعادته هادئاً مستقر النبرات:

«إن الله شاء أن يراني قتيلاً، وشاء أن يراهن سبايا!...».

ويحي ما هو المعنى؟... ماذا يقصد والدي؟....

واندفعت الدموع من عينيّ غزيرة مدرارة، وراحت الكلمات تتوالى على لساني دون أن أستطيع إيقافها...، كانت نابعة من عمق وجداني المتصل بوجدان والدي...، رحت أطالب بوالدي وألح في الطلب...، أردت أن أبقى قربه...، أن أحميه من الخطر المحدق ولو بروحي...،

لم أكن لأهدأ، حتى أن عمتي زينب تشاغلت عن همها، واندفعت نحوي تحتضنني وتحاول تهدئتي، فاهتز بنا المحمل وكاد يقع...، وفتحت حميدة عينيها...، وأظن أن صوتي وصل إلى المحامل الأخرى، فقد سمعت فجأة صوت بكاء أخي عبد الله.... ولكني لم أكن لأتوقف، كان ذلك خارج إمكاني...، أما حميدة، التي أيقظها صراخي، فقد حاولت تهدئتي بأن هتفت تقول:

«ما بك يا رقية؟... غداً نصل إلى الكوفة، حيث أبي مسلم يهيّء لنا المنزل والمكان، فنرتاح من السفر، ويكون لنا بيت كالذي بالمدينة، نلعب فيه كما نشاء ونلهو كما نريد...»،

... لم يزدني حديثها إلا شجناً، فهي ويا للأسف، لا تعرف ما أعرفه...، ولم يُصمِت بكائي ونحيبي سوى قول عمتي زينب محذرة، وهي تغالب دموعها ودموعي:

«إنا خارجون بأمر الله يارقية، وعلينا أن نقبل بقضائه.... لا ترفعي صوتك بالنحيب يا بنيتي، كي لا تزيدي هم والدك وهمنا...، نحن في حمى الله يا ابنتي وأبوك كذلك!...».

لو أن أحداًكمّ فمي لما صمتّ بمثل تلك السرعة...، لقد أيقظني من فورة انفعالي كلامها؛ «أن أزيد هم والدي؟!»... أبداً، فإن ذلك لا يكون....، إن أنا إلا بلسم لهمومه ودواء لجراحه...، نفسي لنفسه الوقى وروحي لروحه الفداء والحمى.

وازدردت غصتي، ومضيت أنشج دون صوت...، كاد حلقي يتمزق ولكني لم أرفع صوتاً بعد....

وضمتني عمتي، وراحت تمسح دموعي المنسجمة تارة، ودموعها المنحدرة أخرى...، حتى مضت بنا القافلة، وأرخى هدوء الكون عليّ سكينة وسلاماً، فأسلمت أمري لله، وغبت في نوم عميق....

... لقد هدّأ النوم بكائي، ولكنه لم يهدئ شجوني. لقد أفقت بعد ساعات، لأستشعر جفاف الدمع فوق خدي وشفتيّ ملوحة وتشققاً.

راحت حميدة تحدثني عن الأيام القادمة لنا في الكوفة، في ظل حكم والدي الحسين، ورعاية عمي العباس وأبيها مسلم...، أحببت أن أعيش الفكرة وأتنعم بنعيمها، ولكني لم أستطع، لا أدري لماذا!

لم أتمكن من التشاغل عن همي، بل كان كل ما يهمني، أن أزيح ستار المحمل بين الحين والحين، لأطل منه ملهوفة، حتى

إذا رأيت رجالنا المحيطين بنا، ورأيت كثرتهم، ثم رأيت أخويّ علياً الأكبر والأوسط، ثم رأيت عمي العباس، اطمأن فؤادي، ولكنه لم يكن ليهدأ تماماً إلا حين أحظى برؤية والدي فأبتسم له، وأرى في نظرته الهادئة الثاقبة الموجهة بعيداً، ما هو أشبه بالبسمة لي، فيبتسم فؤادي ويستقر.....

بعد الخروج من مكة،

الثامن عشر من ذي الحجة سنة ستين للهجرة

.... عيد آخر مرّبنا...، واليوم أيضاً عيد...، الأول كان بعد خروجنا من مكة، والثاني اليوم.

الأول كان الأضحى، وقد فاتنا حضوره بمكة، وتقديم الأضاحي بعد رمي الجمار،

«إن لنا جماراً أخرى لم نصل إليها بعد، سنرميها بإذن الله ثم نضحي!....».

كذا كانوا يتناقلون...، لم أفهم...، ولكن ما لاح في وجوههم جميعاً كان يطمئنني...، كانت نظرات مطمئنة مستبشرة....

واليوم...، اليوم عيد الله الاكبر!...

في مثل هذا اليوم نحتفل عادة...، في المدينة كنا نهنئ بعضنا بعضاً بولاية جدنا أمير المؤمنين...، ونحزن ونغتم لغصبه حقه واستحلال حرمته...، وتختلط البسمة بالدمعة....

أما اليوم، فيبدو أنه لم يعد للفرحة مكان بيننا...، غادرناها

هناك بين نخيل المدينة ومسجد جدنا...، تسبح بين جدران بيوتنا وأسقفها...، وتلوّح لنا من بعيد، ربما بيد أختي فاطمة العليلة، وقلب الجدة أم البنين المفطور، وعين الجدة أم سلمة الدامعة....

كان كل حظنا من هذا العيد الذي أطل علينا مع بدر ذي الحجة الذي بدأ يشحب ويتقلّص...، ليترك السماء لبدورنا الطالعة...، ولبدر جدنا علي الماثل أمامنا في كل حين...، كان كل حظنا الوقوف متّجهين نحو الغري، مسلمين على جدنا زائرين له، بكل ما في القلوب من شوق وحنين لظله الآمن وحنانه الأبوي الذي يغدقه علينا على الدوام، بشخص ولده الحبيب، أبي ونور عيني ومهجة فؤادي الحسين!...

على طريق الكوفة،

الرابع والعشرون

من ذي الحجة سنة ستين للهجرة

جداه...، يا أمير المؤمنين...، لست أدري لماذا يزورني طيفك كثيراً هذه الأيام...،

إن طيف جدتي فاطمة كان يكثر من زيارتي في المدينة...، ولكن مع اقترابنا من مرقدك الشريف، بل مع اشتداد المسير ووعورة المصير، ألمحك دائماً هناك؛... عيناك تنظران إلينا من بعيد، وقلبك يدعونا...، وأنا...، أنا لا أفهم شيئاً كما أفهم لغة القلب...، تارة هو قلب والدي إذ ألتجئ إلى صدره، عندما نخيّم ليلاً لنرتاح، فأجد لي في حضنه ملجأً من برد الصحراء وصقيع البعد عنه، تؤنسني خفقات فؤاده، ويطربني تردد أنفاسه...، وتارة هو قلبك الذي يلوح في زرقة السماء ووهج الشمس، وفي نقطة ماهناك، في الأمام، حيث نتّجه عبر الصحراء، إلى واحة من خضرة النخيل تنعم بشذاك، وتنتظرنا.

... واليوم، تذكرنا وذكرنا، تصدقك بخاتمك...، فتسابق

الجميع إلى التصدق، وهم في كل لحظة يتصدقون بأنفسهم وأنفاسهم في سبيل الحق وأهله.

وسمعت سكينة تقول متمثلة:

«خذها فإني إليك معتذرٌ واعلم بأني عليك ذو شفقة
لو كان في سيرنا الغداة عصاً أمست سحاباً عليك مندفقة
لكن ريب الزمان ذو غِيَرٍ والكف مني قليلة النفقة»

... سألتها مستفسرة:

«لمن الأبيات يا أختاه؟... هل هي من نظمك؟!...»

تبسّمت خالتي الرباب وهي ترفع أخي عبد الله عن الأرض حيث كان يحبو، إذكنا نستريح، وقالت لي:

«بل هي من نظم والدك الحسين...، أفلا تخبرينها بالقصة يا سكينة؟»

تنهدت سكينة وهي تقول همساً...، واضعة يدها على خدها:

«إي والله، هي من نظم والدي...، قالها لذلك الأعرابي الذي أتاه سائلاً في مدينة جدنا».

«وهل كان العطاء قليلاً؟... بل متى كان والدي قليل النفقة؟!».

تابعت سكينة تجيب وهي تتنهد من جديد:

«لقد كان أربعة آلاف درهم...، وهي أقل القليل لجود والدنا

يا رقية، كما تعلمين...، أما قلة النفقة، فلعل الأعرابي أتى بعد كُثُرٍ قبله، حتى لم يكن بحوزة والدنا إلا ما أعطاه، فاستقلّه عليه».

«وهل استقلّه الرجل؟»

دمعت عينا سكينة وهي تجيب:

«بل بكى له، حتى إذا سأله والدي إن كان قد استقلّ العطاء، أجاب بأنه يبكي كيف يأكل التراب كفاً تجود بكل هذا الجود».

... واستكملت الرباب وهي تنظر في عيني وليدها، وتدمع عيونها كما سكينة:

«كان حرياً به أن يبكي كيف تأكل السيوف جسداً يجود بكل هذا الجود!...».

... وانتحت جانباً تخفي دموعاً منسجمة، فاقتربتُ من سكينة منقبضة الفؤاد هامسة:

«ما تقصد أمك يا سكينة؟».

فربتت على يدي قائلة وهي تنسحب لاحقة بها:

«غداً تعلمين، عليك الآن بتفقّد مصلى والدي، لعل شيئاً ينقصه...، أليس هذا ما تودين القيام به؟!....».

... لم أجب، بل حملت همي وأسئلتي معي، وسارعت ألبّي مطلبها...، بل إنه كان مطلبي أنا، منذ عرفت الحياة، ورأيت

الصلاة تزهر على محيّا والدي، علمت أنها مهمتي أنا، أن أبسط المكان، وأهيّء موضع العبادة، وأجلس بالقرب أستمع وألاحظ...، لكي أتزوّد من ساعات مناجاته ما يلحقني بالصالحين!...

الثعلبية، موقع بين مكة والكوفة،

السابع والعشرون من ذي الحجة

سنة ستين للهجرة

... منذ أيام خلت، لاحظت في والدي تغيراً ما!

لم يكن ذلك بسبب أولئك الجند الذين راحوا يتوافدون علينا ويتزايدون يوماً بعد يوم، وهم يسايروننا من بعيد، وقد علمت أنهم علينا لا لنا...،

كلا...، لم تتغير نظرته الهادئة المطمئنة، ولا بسمته المترقرقة بحنان بلا حدود، فقد كان يقابل كل ذلك بقوته المعهودة، ونظرته الثاقبة التي لا تريم.... ولكن، كنت ألمح بريقاً في عينيه...، دمعة تجول في مآقيه فيمنعها من النزول تارة، وتفر فيطأطئ رأسه ليخفيها عنا تارة أخرى!...

رباه!... أي حزن جديد فاض بوالدي حتى فاضت عيناه بالدموع؟...

... واليوم أتاني الجواب...،...، ويا له من جواب!

... كان الوقت مساءً...، وكنا قد نزلنا في موضع يقال له الثعلبية...، فرشت مصلى والدي كعادتي...، حتى إذا صلى العشاء، انتقل إلى مجلسه، والتفّ حوله إخوتي وأعمامي، وأصحابه الأوفياء، الذين يرافقوننا في هذه الرحلة.

أما أنا، فانتقلت إلى خيمة النساء...، حيث أختي سكينة وعماتي وخالاتي وسائر النساء...،

وانتهى إلى مسامعنا فجأة صوت بكاء، بل نحيب...، كان الرجال في مجلس والدي يبكون!....

نظرت العيون في العيون، وأجفلت القلوب...، وهبت عمتي زينب لتستطلع الخبر...، وما أعجل ما جاءت...، ودموعها تجري فتحاول إخفاءها...، أقبلت نحوها عمتي أم كلثوم، فلما رأتها ازداد بكاؤها...، سألتها بوجل عما هناك...، فأجابتها عمتي زينب بدموع منسجمة وهي تقول:

«إنه من الكوفة يا أختاه!»

«الكوفة؟!... حيث والدي مسلم؟!» صرخت حميدة بين الخوف والرجاء...، فأقبلت عليها عمتي زينب تضمها بلوعة وهي تقول:

«بنية حميدة...، تعالي...، إن خالك الحسين يطلبك!»

... واصطحبتها، تاركة النساء في ذهول ووجوم، وعمتي أم كلثوم بين حيرة ودموع...،

لحقت بهما...، لم يكن بمقدوري أن أصبر...، أردت أن أعرف الخبر...،

... كان والدي هناك...، يجلس في خيمته وحده، يمسح دموعه...، حتى إذا أقبلنا، دعا حميدة فأجلسها في حجره، وراح يمسح على رأسها...،

نظرتُ متوجّسة، واحتبست في أعماقي غصة مكبوتة وأنا أتأمل حميدة، التي راحت تنظر إلى والدي بحب وسلام كعادتها...، ، لكن مسحه على رأسها أشحب وجهها المتورد، فهمست تسأله بخوف:

«أي خالي الحبيب، ما لي أراك تمسح على رأسي؟!... ما الخبر؟!... هل أصيب والدي مسلم بمكروه؟!...»

كانت عمتي زينب تنظر إليهما، ولا تني تمسح دموعها وتزفر...، واستعبر والدي باكياً...، عندها علمتُ، وعلمت حميدة، بما هناك...، فهتفت بملء قلبها المجروح، وهي تدفن وجهها في صدر والدي الحسين:

«وا أبتاه!... وا مسلماه!...»

للمرة الأولى، أرى نحيب والدي...، لم أتمالك نفسي، واندفعت نحو عمتي...، ضممتها، وضممت صوتي لصوتهم، ودموعي لدموعهم....،

وعاد والدي يغالب عبرته ليقول:

«بنية حميدة...، أنا أبوك، وبناتي أخواتك!...»

وأقبلت عمتي زينب، ترفع حميدة عن صدر والدي، وتضمها...، تضمنا معاً، لنعود إلى عمتي الثكلى، أم كلثوم...، التي أخبرها واقع الحال بما هناك...، فراحت تنظر حولها غير مصدقة...، دموعها تجري، وآهاتها تتصاعد وتتوالى...، حتى إذا التقت عمتي زينب، ألقت حملها على كتفها...، وأعولت نادبة....، فتجاوب مجلس النساء بالبكاء والعويل!..

أسفي عليك يا عماه!... أي يدٍ استحلت حرمتك، بل أي خبيث ملعون سيلقى الله بدمك، وأنت سفير الحق ومبعوث الصدق، مضيت عنا شهيداً وتركت في قلوبنا، وقلب والدي الذي اصطفاك واجتباك جرحاً لا يبرأ، ودمعاً لا يرقأ!..... أسفي عليك يا حميدة...، لقد غاب أبوك، بدراً قد اكتمل ضياؤه...، ليشرق في سماء الملكوت...، ولكنه قد غاب عنا وعنكِ...، فأي يتم قد اعتراك وأي ذبول، وأنت بعد ريحانة طرية العود من رياحين جنة المصطفى النضرة الزكية!...

... هي ذي أختي سكينة، تمسح دمعها المنسجم، لتجلس إلينا، فتلاطف حميدة، وربما تبتسم لها لتحبسها عن الإغراق في الحزن والبكاء.... ولكن، هوذا والدي يطّلع علينا، فيزفر زفرة حرى ويقول:

«بنية سكينة...، دعي حميدة...، لا تبتسمي في وجهها...، دعيها تبكي...، دعيها تشفي حرقة قلبها...، بنية سكينة...، لك يوم أعظم من يومها...»،

رباه، أي يوم هذا!... كلامك يا أبتاه يخيفني، ربما أكثر مما أخاف سكينة، التي انزوت جانباً شاردة تائهة اللب. أبتاه...، أنا في حماك آمنة، وفي ظلك لا أعرف الخوف...، أنت حماي ورجائي، ولا أريد أن أسمع غير هذا قط!...

على طريق نينوى،

الثامن والعشرون من ذي الحجة

سنة ستين للهجرة

«القوم يسيرون والمنايا تسير بهم»....

كلمات سمعتها من والدي...، لم أفهم تماماً ما أراد...، ولكن قلبي أجفل شيئاً ما...، وأرهفت السمع لأفهم...، وإذا أخي علي الأكبر يدنو ويسأل:

«أبتاه...، أولسنا على الحق؟!».

فيجيبه أبي بإشراقة هدّأت قلبي:

«بلى يا ولدي...، إنا وأيم الله على حق!».

فيشرق وجه علي أسوة به، ويبتسم قائلاً:

«إذا لا نبالي، أوقعنا على الموت أم وقع الموت علينا!...».

... ويلفّ الركب هدوءٌ وإشعاعٌ غريب...، أجل،... رغم ذكر الموت الذي ما فتئ يتردد كل حين، إلا أن الهدوء يزداد؛... هي سماء الحب الإلهي، والعطف والحنان الملكوتي، تلفّ الجميع، كلها تنبثق من عيني والدي وكلماته!...

... لعل كل هذا، حمل تلك الجموع التي رافقتنا من مكة، على التفرق عنا؛ «فإن الشمس تحرق من يقترب منها، إلا إذا انصهر في نورها، وذاب شعاعاً في ضيائها...، إن أولئك المرافقين كانوا يطلبون الدنيا في رحلة نحو الآخرة، فحقّ لهم أن يسلكوا سبيلاً آخر!...».

كان ذلك جواب سكينة، عندما سألتها عن سبب ترك كل أولئك لوالدي.

يعجبني في حديث سكينة إليّ، أنها تناجيني كمن يناجي نفسه، لا تتكلف عناء التبسيط وتقريب المعنى، فهي تعلم أنني أفهم، وأجد في جوابها ما أريد.

... ويستمر المسير، والوجهة أَلَقٌ يحتلُّ المدى، لا سراب يلوح ويتبدد، بل نور يزداد وضوحاً مع كرّ الخطوات، رغم وعورة المسلك وتلبّد الظلمات، فقد كان منار التائهين في ليل الصحراء منارنا...، نستضيء به في الظلمات الحالكة، كما استضاء أهل موسى بقبسٍ من شجرته...، أولسنا في طور سيناء؟!... هكذا أُخبرت...، إذاً فالطور مكاننا والطور وجهتنا...، ولست أدري، أهو الطور مستقرنا في النهاية؟!....

كربـلاء،

الثاني من المحرم، سنة إحدى وستين للهجرة

... لم تجف الدمعة بعد، ولم تسكن الزفرة.....

لا زال دم عمي مسلم رطباً، ومع ذلك، لا زال هنالك متعطشون للمزيد من الدماء! ...

... إنهم هؤلاء المحيطون بنا...، جند بعدد الحصى، أرسلهم ذاك الخبيث يزيد، ليأخذوا والدي.

ولكن، هيهات!...

لقد قالها والدي مراراً، ولا يزال يعيد:

«لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل ولا أقرّ إقرار العبيد!»

... لقد تفرق عنا أنصارنا، واجتمع علينا أنصار الباطل ليزيلونا عن مقامنا، وما زالوا بنا حتى أنزلونا بهذه الأرض القاحلة الجرداء...، سألت عمتي بوجل:

«أين نحن يا عمة؟... أهي الكوفة؟»

... دمعت عينا حميدة لذكر الكوفة، فضمتها أمها وهي تجيب:

«بل هي أرض يقال لها كربلاء».

... خفق فؤادي، وانقبض بشدة...، وهمست لنفسي:

«كربلاء؟!... يا له من اسمٍ موحش...، حزين!..».

... أجل هي كربلاء، منزلنا الساعة...، ولعلنا سنطيل فيها المكوث، فقد أقيمت المضارب ونصبت خِيَمٌ وفسطاط كبير...، لقد اختارها والدي دون سواها من البلاد، لنحطّ فيها رحالنا بعد سفر طويل!...

بل إن جواد والدي «ذا الجناح» هو الذي اختار...، لقد توقف فجأةعن المسير، وظل واقفاً لا يريم، فهتف والدي يسأل عن اسم المكان...، ولما أُخبر أنها كربلاء، دعا أصحابه إلى النزول قائلاً:

«هذا موضع كرب وبلاء...، انزلوا، ههنا مناخ ركابنا ومحط رحالنا ومقتل رجالنا ومسفك دمائنا!...».

... ونزلنا...، كانت السماء زرقاء ساطعة متوهّجة، والأرض صفراء ساطعة متوهّجة...، خيامنا تنتصب وسط الرمال اللاهبة، كواحة وسط الصحراء...، فيها رجال زهر الوجوه كالبدور، راسخون كالجبال: أبي، إخوتي، أعمامي، أبناء عمومتي، وأصحاب أبي الأوفياء...، وأطفال كالورود اليانعات، ونساء قائمات قانتات، راكعات ساجدات، كالملائكة المقربين...،

... وفيها حراب وأسنة منتصبة كرؤوس الشياطين، تواجه مخيّمنا وتحيط به...، تترصدنا، وتتطلع نحونا بحقد هائل ليس له

مثيل....، ورجال كأنهم من بني إبليس، يجولون ويصولون، ويتصايحون ويتشاتمون، ويتهددون ويتوعدون، فيأتيهم أبي تارة، يعظهم فلا يعتبرون، ويذكّرهم فلا يتذكّرون، ويحدثهم فلا يفقهون ولا يفهمون..، ﴿بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾.

ويأتيهم عمي العباس تارة أخرى، فينصحهم ويرسم لهم درب الآخرة، يضيء لهم بنور معرفته مناراً ليهتدوا به، وإذا بهم يشيحون عن النور، ويهيمون في عتمة قلوبهم، ويسرحون قُدُماً في طغيانهم يعمهون.

أي عماه...، لعمري لقد نصحت وبلّغت، وأنعم بك ناصحاً ومبلّغاً، ولكن هؤلاء القوم قلوبهم كالحجارة أو أشد قسوة، بل إن من الحجارة لما يتفجّر منه الماء الزلال، أما هؤلاء، فلا يتفجر من قلوبهم إلا الكفر والعصيان ومعصية الرحمان.

... لا عليك يا عماه...، فنحن ها هنا نازلون، في حمى الله وحماكم، «لا اعتراض على حكم الله»... هكذا علّمني والدي، وبهذا أتمسك، وعليه أتوكل وإليه أنيب.

... ها إن والدي يكثر من تفقد الخيام، خيامنا وخيام أنصارنا، وكأنه يتأكد من منعتها، أو...، لست أدري!

وها هو يكثر من التردد إلى خيمة معينة، إنها خيمة أخي علي السجّاد...، هو يخلو به كثيراً، أكثر من السابق...، ولكن، تالله، لِمَ لا يدعوه إليه كما كانت عادته، وهو أسرعنا في التلبية؟!...

ربما أعلم سبب اختلاء والدي بأخي علي، فهو كما نعلم جميعاً، الإمام المفترض الطاعة من بعده!

إن هذا يزيد من قدره عندي ويعظّمه في عيني وقلبي، فضلاً عن منزلته الخاصة عندي أصلاً، فهو أخي ونور عيني، هو أبو تِربي محمداً، الذي أعلم أيضاً أنه الإمام بعده، ولكن منزلته عندي، بدأت قبل أن أعرف كل هذا...، ذلك أنه وإياي، شريكان في اليتم المبكر!... كلانا فقد أمه بعدما ولد، وكلانا ترعرع في حضن أبٍ قام له مقام الأم والأب معاً...، كلانا ذاق مرارة اليتم، وحلاوة الأبوة والأمومة مجتمعتين في شخص والدي الحسين...، وأنعِم بوالدي الحسين من أبوين...،

إذاً،... لا غرابة في أن يكون لعلي السجّاد عندي منزلة، لا يرقى إليها أحد من إخوتي جميعاً، فهو عاش يوماً ما أعيشه...، هو يراني، كما أرى نفسي، ويتنفس أنفاسي ويشعر بقلبي ويفهمني، ربما...، قريباً جداً مما يفهمني والدي... ولعلني وإياه، شبيهان أيضاً، بجدتنا فاطمة، وعمتنا زينب، اللتين كان اليتم في الطفولة قدرهما أيضاً، وكان لكل منهما، كما لنا، والد لا يدانيه في حنوه وعطفه أحد!

يبدو أن ليتم الطفولة هذا سر تكشفه الأيام، التي طالما كشفت المستور، وإني لأنظر إلى هذه الأيام القادمة، بعين الحذر والترقب حيناً، وبعين الخوف والوجل في أكثر الأحيان!....

كـربــلاء،

السادس من المحرم سنة إحدى وستين للهجرة

... أربعة أيام مضت على نزولنا بكربلاء...، أربعة أيام من شظف العيش وقلة الزاد والماء...،

«... لا بأس، قليل من الطعام يسد الرمق، وقطرات من الماء تذهب غائلة العطش...، لا بأس يا أختاه...، المهم أن نأكل جميعاً ونشرب جميعاً...، ونبقى على قيد البقاء، ليبقى الحق وتسطع شمسه...، لا بأس يا أختاه!...».

كانت أختي سكينة تعزيني، وتؤثرني وتؤثر الأطفال بحصتها من الزاد، والماء أحياناً، فتبيت ظامئة طاوية، وهي تنظر إلينا مبتسمة، وتمسح على قلوبنا بكلماتها الرؤومة.

ويبكي عبد الله، يزحف على الأرض ليبلغ أمه الجالسة بالقرب، فترفعه، تحاول إرضاعه، ولكنه يبكي...،

تنظر خالتي الرباب إلى عمتي أم كلثوم بهمٍ وهي تهدهده هامسة:

«ما أفعل يا بنت الزهراء؟ ليس عندي من اللبن ما يشبعه!... ما أفعل؟!...»

فتؤثرها عمتي بمائها وزادها، فترفض قائلة:

«لا أكون إن أكلت كل هذا وأنتم ساغبون...، لا يكون لي طعام وبنات الزهراء لا طعام لهن!»

وتحاول عمتي إقناعها:

«ليس لك الطعام يا رباب، بل لحبيب الحسين، لهذا الرضيع...، لا بأس عليك يا رباب، كلي واشربي وقرّي عيناً».

... تضعه في المهد دامعة العين، وتهز المهد حيناً...،

«لشدّما يؤنسني هزّمهده يا خالة، أتسمحين لي، لعله يهدأ وينام؟!...»

لعلها قرأت شدة الشوق في عينيّ كعادتها، فأفسحت لي المجال بجوارها قرب مهده.

«لابأس عليك يا رقية، هزي المهد برفق ولين، عساه ينعس وينام».

أهزّ المهد، فيتناعس صوت البكاء...، وتقبل حميدة، نتناوب على هز المهد...، وتلوح على شفتيها بسمة طال بي العهد على رؤية مثلها، فأسالها:

«أتحبينه كما أحبه؟!».

فتجيبني:

«أحبه؟... أجل...، ولكن ما لهذا أتبسم يا رقية، بل أرى نظرته إليك، ونظرتك إليه...، إنها كنظرتك إلى... أبينا الحسين...، أنت كالأم الصغيرة له، وهو كالأب الصغير لك...، إن هذا لعجيب!...».

ثم تطأطئ الرأس بحزن من جديد...، أترك المهد لحظة...، لقد هدأ عبد الله...، لقد نام...، وأسألها بقلق:

«ما بك يا حميدة؟... أما آن لحزنك أن ينقضي؟.... أبوك في جنان الله ورضوانه، وأنت هنا آمنة بيننا، أنت منا كإحدانا، فما يشجيك؟!».

«إنه أخي عبد الله...».

«ما به؟!».

«كان الساعة عند أمي، وأخبرها بأن أخاك، علياً الأوسط، السجّاد علياً، مريض...، إنه مريض جداً!».

ويحي!... علي مريض؟!... علي حبيبي ومهجة فؤادي مريض؟!.. إذاً، هذا هو سبب تردد والدي على خيمته بدلاًمن دعوته إليه!..

ويحي!... «علي» إنسان عيني وصنو فؤادي...، صورة أبي، سر والدي الحسين بل مستودعه ومستقره، العظيم كإياه، الحليم

العابد كإياه...، إنه الساعة مريض، فماذا أفعل؟... كيف أطمئن عليه؟... كيف أروي فؤادي برؤيته؟!... ولكن، مهلاً...، نظرت حولي...، تذكرت أن عمتي زينب لا تفتأ تخرج من الخيمة فتطيل الغياب، إذاً، هي عنده تمرّضه، لأنها غالباً ما تمرّض مرضانا، فكيف إذا كان المريض هو علي؟!...

سعيت نحو سكينة، أرجوها وأتوسل:

«بالله عليك يا سكينة، بحق أبينا الحسين، وأخينا عبد الله...، خذيني إليه!...».

لم يكن أمام سكينة أمام قسم كذاك، إلا أن تلبي طلبي، فاستأذنت أمها، وخرجت بي.

... وهناك وجدته...، مستلقياً لا يقوى على الجلوس، وجهه شاحب وعيناه مغمضتان...، وشفتاه تلهجان بكلام خافت، والعرق يتصبب من جبهته المباركة...، كانت عمتي زينب جالسة عند رأسه تمسح عرقه وتبرّد حماه، بما تيسر لها من ماء قليل، ودعاء كثير، حتى إذا رأتنا أشارت إلينا بالصمت كي لا نزعجه، ثم بالرحيل...، تذكرت جدتي فاطمة، أم أبيها...، ورأيت في عمتي زينب صورة عنها، فهي، بحنوها اللامتناهي، ووثيق علاقتها بوالدي، هي «أم أخيها»...، وأنا...، فاطمة الصغرى...، ألا يجدر بي أن أكون أيضاً «أم أخيها»؟

نظرتُ إلى عمتي راجية... أردت البقاء مدة أطول...، ورأت

عمتي نظرتي، فأشارت عليّ وعلى سكينة بأن لا بأس بالبقاء قليلاً، على أن لا نحدث ضجة.....،

اقتربت من أخي علي...، أمسكت بيده، كانت تلتهب بالحمى، أردت أن أنقل له شيئاًمن عافيتي...، فتح عينيه، تبسم في وجهي، ثم غلبته الحمى. فعاد إلى الإغماض والحديث الخافت.

اشتعل فؤادي قلقاً عليه...، وهمست لسكينة:

«ما يقول يا ترى؟»

«ألا تعرفينه يا رقية؟!... إنه لا يكف عن ذكر الله، وقد أقعده المرض عن القيام للصلاة والدعاء، فلا أقل من أن يذكر الله وهو على حاله!...».

دمعت عيني، فمسحتها بسرعة خشية أن يراها فيحزن، لكنه شدّعلى يدي...، علمت أنه رآها وإن لم يفتح عينيه، وأنه يخفف عني، وأنا التي أتيته لأخفف عنه!...

... «أي أخي، فداك نفسي وعافيتي...، أي أخي....»

... التفتُّ جانباً...، كان ابن أخي علي، محمد، جالساً، مع أمه بالقرب...، أردت أن أجلس إليه لأحادثه قليلاً، فقد كان حديثه عظيم الفائدة لي، أوليس هو سر أخي علي، كما أن أخي علياً هو سر والدي؟!...

.... ولكن سكينة جرتني خارجاً، لنعود أدراجنا نحو خيمتنا قائلة:

«إن عبد الله يحتاجك يا رقية، تعالي معي...، عسى أن لا يكون قد استفاق».

تلاقت عيوننا، كنا نعلم أن عبد الله، ومنذ نزلنا في هذه الأرض البائسة، ما عاد ينام ملء جفونه، بل هو بين اضطراب وسكون، ويقظة ونوم، وبكاء وأنين...، وهدوء يتهيأ معه لمواصلة البكاء.

إن عبد الله، بحاله هذه، إنما ينطق بما في قلوبنا، مما نخفيه ونبديه، ولكن، هو لم يتعلم بعد كيف يخفي ويبدي...، هو يبدي كل ما لديه فحسب!...

كربلاء،

السابع من المحرم سنة إحدى وستين للهجرة

.... اليوم استسقى لنا عمي العباس!....

كان العطش قد أخذ منا كل مأخذ، فأمره أبي بطلب الماء، وأرسل معه عدداً من أصحابه.... لقد منعهم القوم، فقاتلوهم، حتى استنقذوا الماء منهم استنقاذاً...، ولولا بطولة عمي العباس، وصاحبه نافع بن هلال، وبقية الأصحاب، لما وصل الماء إلينا!.... لقد شربنا وارتوينا، فلله الحمد!

... لكني أعجب لهؤلاء القوم...، إنهم حقاً كما وصفتهم آنفاً، إنهم أبناء إبليس، فهم في قبح الصورة وسوء السريرة مثله وأقبح...، وإلا فكيف يمنعون الماء عنا، والناس جميعاً، وحتى الدواب، يلِجونه ويشربون، بغير إذن؟!....

والفرات...، نهر متدفق المياه...، لقد سمعت من عماتي أنه كان مهراً لجدتي فاطمة...، إذاً، كيف يُمنع منه ولدها الحسين؟!...

«ليس بأول حق من حقوقنا يُغتصب، ولعله لن يكون الأخير...، إنه و«فدك» سواء بسواء!...».

أجل، فعندما كان الفرات تحت أيدينا، سقيناهم...، وأبى أبي إلاّ أن يسقي حتى دوابهم...، أما هم...، فلا، إنها شيمة الكريم، أن يحسن للمسيء، وأن لا ينتظر جزاء الإحسان....، ولكن القيظ شديد، والعطش يزيد...، ولذا...، لست أدري، كم سيكفينا الماء الذي استسقوه....،

«هل يمكن أن ينفد الماء يا سكينة؟... وإذا نفد، فماذا نفعل؟!...».

«إن عمي العباس يسقينا...، إنه بطل لا مثيل له، وهو إذا شد عليهم كشفهم عن الماء في لحظة...، ألم تري ما فعله قبل ساعة؟!... لا تخشي شيئاً يا رقية.....، ما دام عمي العباس موجوداً، فلا تقلقي!...».

«لست قلقة على نفسي يا سكينة، بل على أخي عبد الله... ألا ترين نحوله واصفراره...، إنه دائم البكاء قليل النوم...، لقد أحاطت بعينيه هالتان قاتمتان...، أخشى عليه يا سكينة!».

غصّت سكينة بالدمع فجأة، فأشاحت بوجهها...، وعدت أنا أزيد:

«كما أن أخانا علياً لم يزل مريضاً...، ومرضه يزداد شدة

كما تعلمين...، هو يحتاج ماء ليطفئ حرارة الحمى...، كذا سمعت من عمتنا زينب...»،

سالت دموع سكينة حتى ملأت وجهها، فسارعت تمسحها بإصرار وتقول:

«إن الله حسبنا ونعم الوكيل يا أختاه، وما لنا من دونه من ولي ولا نصير!»

... اليوم استسقى لنا عمي وروانا...، وفي غدٍ، لست أدري ما سيجري...، ولكني سأسلم أمري إلى الله...، وستغفو عيني الليلة، قرب مهد عبد الله، فلربما أفاق في جوف الليل، وكانت أمه وأختي سكينة منشغلتين بصلاتهما....، لا أريد له أن يبكي لحظة...، فالبكاء يزيد حلقه جفافاً ووجهه اصفراراً وجوفه التهاباً..... إن عليّ أن أهز مهده في أية ساعة من الليل، ليبقى مطمئناً...، ثم إنه يطمئن بوجودي إذا رآني...، وإن عليّ أن ألاعبه وألهيه، إن كان إلى الإلهاء عن الجوع والعطش سبيل!...

كربـلاء،

التاسع من المحرم، سنة إحدى وستين للهجرة

... الأمر يشتدّ....، حتى إنني بتّ أرى والدي في حركة دائمة...، هولايهدأ...، يدخل فسطاطه ويخرج، يحادث أصحابه تارة، وإخوته وأهل بيته أخرى...، لم يعد لديه من الوقت ما يتسع لمحادثتي!...

لكن موعدي معه حين الصلاة لا يُخلف...، فإذا أذّن مؤذّنه، الحجاج بن مسروق، سارعت إلى مصلاه أفرشه، وأنتظره لأحظى منه بكلمة تكفيني، ونظرة تباركني، وضمة إلى قلبه الشريف تسعدني وتنسيني كل هم وبلاء.

... اليوم صلى والدي العصر بأصحابه...، ثم انفرد جانباً...، جلس أمام خيمته متكئاً على سيفه، وأغمض عينيه لحظات، كنت أراقبه من بعيد...، أظنه غفا هنيهة، فسعيت نحوه ببطء وتؤدة لأستزيد من قربه، ولكن جلبة الخيل ملأت المكان فجأة، فذعرت، ولزمت جانبه، فأفاق، بسببي أو بسبب الأصوات المرتفعة أو... لست أدري...،

وأطلّت في تلك اللحظة عمتي زينب، ، تسعى إلى والدي، حتى إذا رأتني عنده، هرعت تضمني وهي تسأل أبي بلهفة:

«أخي أبا عبد الله...، ما هذه الأصوات التي تقترب؟!»

رفع أبي رأسه إليها، ونظر بعيداً...، كانت عيناه تسبحان في بعد آخر، وهتف يقول:

«أختاه...،لقد رأيت الساعة جدي محمداً، وأبي علياً، وأمي فاطمة، وأخي الحسن...، وهم يقولون: «يا حسين، إنك رائحٌ إلينا عن قريب!».

أفلتتني عمتي ذاهلة...، ولطمت وجهها صائحة:

«واأخاه، واحسيناه...، ليت الموت أعدمني الحياة!...».

فاندفع أبي نحونا، يضمني إليه تارة وقد رأى فزعي، ويهدّئ عمتي أخرى، ويمسح على قلبها بيده الرؤومة ويقول بصوت حزين:

«أخية زينب، لا يذهبن بحِلمك الشيطان...، أخية زينب، اسكتي رحمك الله،..... اللهم اربط على قلبها وألهمها الصبريا أرحم الراحمين!».

وأقبل عمي العباس على عجلٍ، ليقول لوالدي:

«سيدي أبا عبد الله، قد أتاك القوم!».

فانتفض أبي....، أشار إلى عمتي بدخول الخيمة، وأشار إلى عمي بأن يركب في عشرين فارساً، حتى يلقى القوم ويسألهم عما يريدون.

... دخلت مع عمتي إلى خيمتنا...، لقد أسكتها عن النواح أمر والدي، وربما دعاؤه...، ولكن دموعها بقيت تنحدر بصمت...، حتى أوصلتني إلى الخيمة، أكفلتني سكينة، ثم خرجت...، أظنها عادت إلى خيمة أخي السجّاد، حيث كانت تقضي معظم وقتها تمرّضه وتعتني به.

... ترى...، بِمَ عاد عمي العباس؟...

علمت بعد ساعة، أن القوم عازمون على إحدى اثنتين، الاستسلام والبيعة ليزيد الملعون، أو الحرب...، وقد علمت أن والدي لا يستسلم ولا يبايع ليزيد...، إذاً هي الحرب!... هي الخطر الجسيم المحدق بنا من كل جانب...، ولكن، ها هو والدي يزداد وجهه اطمئناناً ونظرته هدوءاً وصفاءً كلما ازداد الأمر شدة...، إذاً فلا بأس...، وما عليّ سوى النظر إليه لأستمد منه الهدوء والصفاء والاطمئنان!

... إن والدي قد سألهم أن يؤجلوه إلى الغد...، فدار بينهم جدال، منهم من رأى في التأجيل تأخيراً لا يريده، ومنهم من رأى فيه استكمالاً لاستعداده، ثم استقر بهم الرأي على التأجيل..،

كان لوالدي ما أراد...، كانت بغيته، كما أخبر وأبلغ،

التزوّد للغد، لا للغد القريب، بل للغد الآخر، ولا بالرجال والسلاح، بل بالصلاة والدعاء وتلاوة القرآن.

إذاً فالموعد غداة غد!...

رغم اطمئناني برؤية والدي، إلا أن قلبي فاض حزناً، فقد كان في أعماق نظرته حزن لا يُنكر،

«أشفقُ عليهم أن يلقوا الله بدمائنا!»

غلبتني الدموع...، لم استطع إخفاءها...، ، جاهدت أن لا أرفع صوتي، ولكن سكينة سمعت رفيف قلبي، فأقبلت نحوي تعانقني وتقول:

«إن رجالنا أبطال يا رقية، إنهم أبناء المصطفى والمرتضى، أبوهم علي بن أبي طالب، ليث الليوث وأسد الله الغالب وسيفه المسلول، من ليس له في الكون نظير، وهم مسدّدون بعزم إلهي، تعلمين كل هذا، فلماذا تخافين؟!.... الأمر ليس بالعدد والعدة...، حتى وإن ملأ هؤلاء اللعناء أطباق الأرض، فإن الغلبة للمؤمنين، إن أراد الله وشاء...، ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾..... تشجعي وتجلدي يا أختاه!»

كانت كلمات سكينة دائماً بلسماً لي، ولكنها اليوم مسحت على جرحي فلم يبرأ، بل سكن ألمه شيئاً ما...، ربما لأنها لم تكن تنظر إلي كعادتها، بل كانت تنظر خارجاً، كانت عيناها لا تستقران على شيء...، لم تكن تقول كل شيء!...

... أما إنهم أبطال، فهو أمر أعرفه، وأما إنهم مسددون، فلا شك في ذلك...، وأما..... لست أدري ماذا تخفي سكينة....، ولكنها وعدتني أن لا يطول الزمان حتى تخبرني، أو يخبرني الزمان...، لست أدري!...

كل ما أدريه، أن أبي، جمع أصحابه قرب المساء، وخطب فيهم، واختبر ولاءهم ومودتهم، فإذا هم أهل الولاء، ومودة القربى من آل الرسول تفيض بها جوارحهم، حتى شهد لهم:

«إني لا أعلم أصحاباً أوفى ولا خيراً من أصحابي، ولا أهل بيت أبرّ ولا أوصل من أهل بيتي، فجزاكم الله عني خيراً».

... لقد أحلّهم من بيعته، فاستمسكوا بالعروة الوثقى، ومنحهم خيار العافية في دنياهم، أن يتخذوا الليل جملاً ويمتطوه، وينجوا بأنفسهم، فأبوا وامتنعوا، وأرادوا العافية في آخرتهم، وسألوه أن يتنفس عليهم برائحة الجنة، أن يسمح لأبدانهم أن تتطهر بطهره، ولأرواحهم أن تغتسل بنور ولايته، حتى تلتحق بآفاق الملكوت....، ثم تحلقوا حوله واصطفوا كأنهم بنيان مرصوص...، ، ليتخذوا الليل محراباً، يمهدونه بالتسبيح والتهليل، ويحيون ظلمته بنور صلاتهم، وينطقون سكونه بتلاوة الذكر والدعاء!...

... ولم تكن النساء بأقل حظاً من الرجال في ليلة الذكر هذه...، فكما أن الرجال كانوا يتهيأون، فكذلك النساء... سمعت

ذلك من خالتي الرباب، تقول وهي تسلم عبد الله لمهده، ثم تنتحي زاوية للصلاة:

«هم يتهيأون، ونحن نتهيأ...، لهم الغد، ولنا الغد وما بعده...، ولله الأمر من قبل ومن بعد....»

... وتقدم الليل، فهدأت عيون وسهرت عيون.

هدأت عيون الأطفال، أو بعضهم، ممن استطاع أن يتناسى جوعه وظمأه، فنام تعِباً، والأنين يتردد بين الحين والحين مع تردد الأنفاس...

. وسهرت عيون تعودت إحياء الليل في كل حين، فكيف تنام اليوم، والزاد يُستكمل للسفر الطويل؟!..

... وأمر والدي أصحابه في بعض الليل، بالتقريب بين الخيام، وأن يدخلوا الأطناب بعضها في بعض، وانتدب جماعة منهم ليحفروا خندقاً خلف الخيام، وألقوا فيه القش والقصب....

... لست أفهم كل ما يجري، ولا أدري له تفسيراً، ولكني أعرف وأفهم، أن والدي يهيئنا لأمر عظيم، لم يسبق له مثيل!...

... لم يغمض لي جفن حتى الساعة، ولا أحسب أنه سيغمض، ففي صدري تتردد تلاوة القرآن، وبين سمعي وبصري الركوع والسجود...، يختلط كل هذا أحياناً ببكاء ضعيف...، أنتقل إلى مهد الرضيع أهزه...، فأمه قائمة تصلي وتدعو، وأنا قد

تعهدت أن أكفله حال صلاتها...، تساعدني حميدة، التي جفاها النوم كما جفاني.

... أشارت عليّ سكينة بأن أنام وأن أترك مهد عبد الله لها، ولكني أبيت...، لقد التصقت أناملي بأعواد السرير، حتى أضحت جزءاً منه، فلم أعد أطيق عنها ابتعاداً.

«أماه...، أنا عطشى...، لا أجد ماء في خيمتنا...، ألديك بقية؟!...».

هزت عمتي أم كلثوم برأسها نافية، وتابعت صلاتها، فيما همست أجيب حميدة:

«غدا يستسقي لنا عمي العباس يا حميدة، فاصبري حتى الصباح!»

«... وبعد...، إن الماء ينفد بسرعة، وفي الوصول إلى الماء مشقة وخطورة شديدة...، ألم تعلمي أنهم وضعوا على المشرعة أربعة آلاف فارس؟!...».

«إن عمي العباس بطل صنديد، هو وريث جدنا علي في شجاعته وبطولته كما تعلمين...، إذاً فهو قادر على تفريقهم، وإحضار الماء، مهما بلغ عددهم!...».

«ألم يكن والدي مسلم بطلاً كذلك؟!».

صدمني جوابها..، بل آلمني...، وأشعرني بخوف حقيقي...،

أجل، فبطولة عمي مسلم كانت معروفة بيننا، ولئن فاقه عمي العباس ووالدي الحسين، إلا أن أمراً قد قُدّر سيحدث...، رباه...، أي أمر ستتمخض عنه هذه الليلة الظلماء، وأي يوم ستولد شمسه بعد ساعات، لتملأ الكون ضياء...، أو... ربما ظلاماً؟!... لست أدري.....

كربلاء،

صبيحة العاشر من المحرم

سنة إحدى وستين للهجرة

... معذرة إليك أيها القلم، إلى حبرك المجبول بنبض الطهر والنور... إلى دواتك التي تختزن في ليلها شعاع الشمس، وإلى قرطاسك الذي نذر نصوعه ليفي بعهد الطفولة الممزقة في كربلاء، المتناثرة جسداً وقلباً ودماء.

... لست رقية هذه المرة!

معذرة لأنني استعرت أنفاسها لأنفخ فيك اليوم زفرة دامية، واحتللت نبضها لأحرك قوامك المرهف، وأرسم ظلالاً، لما جرى...، أجل، ظلالاً، لأن ما جرى لا يمكن أن ترسمه لغة الكلام والحروف...، كما الألم العظيم الجامح، لا ينقله سوى الأنين!...

أجل...، لست رقية!...

فرقية...، ويحي لرقية وما جرى على رقية!...

وهل كان بمقدورها أن تنقل اليوم سوى.... كلا، لست أستطيع أن أصف الحال، فحال رقية الآن عصية على الوصف!...

أنا... حميدة...، بنت مسلم بن عقيل، صفيّ الحسين وسفيره، المقتول ظلماً وعدواناً بأرض الكوفة، أنقل اليوم كما قلت، ظلالاً لما جرى، هنا، في كربلاء!...

... شمس هذا اليوم طلعت غروباً...، لم توقظ نائماً، ولم تحرّك حياة في جماد الكون...، ولا زرعت دفئاً في صقيع الصحراء الوحشي.

فالنوم هجعة كسل لم نعرفها، أو راحة بال لم تعرفنا....، أما الحياة، فهي تضجّ في الأرواح والنفوس قبل الأجساد، بين الغياب والطلوع...، ولذا، فلا يعنيها الطلوع...، وأما الدفء، فالقلب يصطلي بحرارة الإيمان، وصقيع الصحراء ينهش أجساداً فقدت كل أدوارها، سوى أن تكون مرقاة لجنان الخلد...، إذاً، لا فرق عندها بين دفء وصقيع، ولا بين طلوع وغياب، سوى أن يكون الطلوع معناه اقتراب الوعد الموعود!...

... نفضت تلك الأشعة الغبراء عن الرمال بعض صفرتها، وأكسبتها بريقاً كبريق السيوف.

كانت تفتح أبواب النهار ليوم جديد، وهي إنما تفتح أبواب الجنة على قوم وأبواب جهنم على آخرين!

... لست أذكر كثيراً مما جرى صبحاً، فالظهر وما بعده مَحَوَا كل أثر إلاهما.

فقط أعلم أنه، وفي يمّ من الرمال الملتهبة حراً، والأفئدة المشتعلة ظمئاً، ، والأكباد المتلظية جوعاً...، بدأت السهام تتطاير يميناً وشمالاً، بين أشخاص أبطالنا الواقفين حول خالي الحسين، وبين أخبيتنا...، وأصيب بالسهام رجال، ونساء داخل الخيام، وأطفال.

وأهاب خالي الحسين بأصحابه أن يلبوا نداء الجهاد، قائلاً بنبرة الأسف والحزن العميق:

«قوموا رحمكم الله إلى الموت الذي لا بد منه، فإن هذه السهام رسل القوم إليكم!».

... وتسابقوا نحو ساحة الجهاد...،

كنا قد تأخرنا نحو وسط الخيمةحينما وصلت السهام إلينا...، ولكن رقية تجرأت وأطلت...، كانت تريد أن تعرف ما يجري كعادتها، وأن تطمئن...، فهرعت نحوها سكينة لتردها إلى الداخل قائلة:

«ما بالك يا رقية؟!... إبقي هنا!... ألا ترين إلى هؤلاء القوم لا يعرفون ديناً ولا رباً، سيان عندهم أن يحاربوا الرجال خارجاً، أو أن يرموا النساء وهن في خدورهن!»

تدخلت أمها الرباب قائلة بنبرة حزينة:

«دعيها يا سكينة...، إنها تريد أن تنظر إلى والدها، حتى إذا رأته آمناً ذهب ما بها من جزع».

... ومن شق بباب الخيمة رأينا أسوداً تهجم على خراف، وليوثاً تقتنص الضباع، فاستبشرنا...،

وأتانا خبر غريب:... إن الحر الرياحي...، ذاك الرجل الذي نالته ألسنتنا وقلوبنا بالقرع والتأنيب، إذ جعجع بنا وأنزلنا في هذا المكان...، الحر الرياحي، قائد الجيش الجرار المنتشر أمامنا كالجراد يسد وجه الصحراء...، قد أتى الحسين عليه السلام، تائباً باكياً يتضرع ويتوسل...، ويطلب الإذن بالجهاد!... كانت بشرى، أن تستيقظ روحٌ كاد يفنيها سبات الدنيا، فتلتحق بركب الجنة بعد أن كانت قاب قوسين أوأدنى من جهنم!

ولكن، ما أسرع ما شحذ الغدر أنيابه، ليغرزها في جثمان الحق...، كما فعل السابقون!...

وما أسرع ما أعمل الباطل ظلامه في رقاب النور، فهوت نجوم وبروج...، ولكن لترتقي...، حيث لا هبوط ولا تهاوي.

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

وانجلت الغبرة، عن ساحة ملأى، بهلكى كثيرين، وشهداء.

... أقبل خالي الحسين نحو الخيام مطأطئ الرأس، في ثلة من صحبه، وهو يحوقل، يهز برأسه أسفاً ويقول:

﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾.

... ثم رفع رأسه...، كان وجهه يزداد حزناً وأسفاً، وإشراقاً وطمأنينة، ونظرته تزداد عمقاً ودموعاً، وسطوعاً وضياء!

كان يكفي أن ننظر إليه حتى نطمئن، رغم كل ما يحيط بنا من بلاء!

.... حتى رقية، كان الهدوء يلفها في تلك اللحظات، ووجهها كذلك يزداد إشراقاً، لا أدري لماذا.

... وارتفعت من بعض أنحاء المخيم أصوات عويل، كانت نساء الأنصار يندبن شهداءهن...، سارعت أمي وخالتي زينب، وسكينة، و... و.... للمواساة...، وبقيت أنا ورقية...، اقتربت مني، سألتني بمودة:

«هل لا زلت ظمأى يا حميدة، أم هل ارتويت؟»

أجبتها مستغربة:

«بِمَ أرتوي يا رقية؟... إن الماء الذي استسقاه لنا خالي العباس بالأمس قد نفد كما تعلمين، ولم تبقَ منه بقية!».

«أما أنا فقد ارتويت....، ما للظمأ عندي من نصيب!».

زاد تعجبي، وحسبتها احتفظت بشربة لنفسها، فارتوت بها في غفلة مني...، كدت أستاء، ولكن البسمة التي أحاطت بوجهها كله حتى أشرق بهالة من نور، أنستني كل استياء، وهمست تقول:

«إن ما رأيته يا حميدة، وما لا زلت اراه، قد أثلج فؤادي ورطّب جوفي، وأخرجني من كل ضيق!»

«وماذا رأيت؟!».

«رأيت ملائكة الرحمان يهبطون ويرتفعون، يسبّحون ويهلّلون، ويحملون على أجنحتهم هؤلاء الشهداء إلى جنان الرضوان!».

«أرأيتهم حقا؟!».

«وكيف لا أراهم، وهم ملء المكان، ملء القلب والوجدان؟!... هم يتألّقون مع كل روح طاهرة تصعد إلى عليين...، ليس على العين أن ترى يا حميدة، بل يكفي أن يرى القلب؛... إن مقام والدي عند هؤلاء الأطهار هو مقام الروح من الجسد، فهم به يحيون وبه يموتون، وبه وبحبه يُبعثون ويُنشرون، وهم أمامه يفدونه، ولا يترددون!».

... كان كلامها غريباً جميلاً، مستعصٍ على الفهم قليلاً...، ولكنه نقل إليّ من روحها السامية سمواً ورواءً، وأنساني، ولو إلى حين، بعض همي وانكساري، وربما أيضاً ظمئي وسغبي.

وقاطع نجوانا صوت ضعيف، فتبدلت حال رقية...، وكأنما شدّها إلى الأرض حدثٌ ما، فأعادها إليها بعدما كانت تحلّق في العلاء..... كان صوت عبد الله الرضيع، يثغو كما الحمل الظامئ....

طارت رقية إلى المهد...، هتفت تخاطب أم عبد الله مرعوبة:

«ما باله يبكي هكذا؟... إن وجهه يزداد شحوباً، إنه ظامئ وجائع...، ألا ترضعينه؟...»

تبسمت الرباب في وجهها بحزن وهي تجيب:

«سأرضعه يا بنيتي، فلا تقلقي!»

كنت أعلم، كما كانت رقية تعلم، أن لبن الرباب قد جفّ، من شدة العطش والجوع، ولكن أملنا في رحمة الله لم يكن ليجف أبداً!

... مر من النهار بعضه...، ولما ارتفعت الشمس وزالت، أذّن شعاعها للصلاة.

«وهل يكفّون حتى نصلي؟»

كان سؤالاً سمعناه من رجالنا في الخارج، ولم نسمع الرد.

دعت خالتي زينب النساء إلى الصلاة والدعاء، فمضين يتهيأن لها، وجلست أنا ورقية بباب الخيمة نبتهل. لست أذكر تماماً ما كنت أدعو به، ولكنني أذكر أن الضيق اعتراني فجأة، إذتذكرت والدي مسلم، وأن أنفاسي تخبطت، فأحاطتني رقية بحنان الأم الصغيرة الذي أعرفه فيها، وراحت تلقنني ما يناسب المقام من دعاء.

أما الأبطال في الخارج، فقد وقفوا خلف خالي الحسين

يتهيأون للصلاة...، وسمعنا صوت خالي الحسين يهيب بعلي الأكبرأن يؤذن للصلاة، وسأله علي مستغرباً:

«ولِمَ يا والدي؟... ألا يؤذن فينا الحجاج بن مسروق كعادته؟»

فردّ الحسين مستعبراً:

«بل أذّن أنت يا ولدي...، أريد أن أودّع صوت جدي رسول الله!»

... وأذّن علي، ومع ارتفاع صوته يطغى على معمعة الحرب وجلجلة الفرسان، الذين لم يكفّوا حتى ينقضي وقت الصلاة....، مع صوت «أالله أكبر... أالله أكبر»... راحت دموع خالي الحسين تتحدّر على خديه، وكذلك دموع أصحابه، ودموعنا جميعاً، ودموع رقية...،

وما إن أتم علي الأذان، واصطفّ الأبرار للصلاة خلف إمامهم، حتى حمي وطيس المعركة.....

... إن القوم لم يكفّوا عنهم لحظة...، لم يرعوا حرمة صلاتهم...، واحتبست أنفاسنا في الصدور ونحن نراقب، وبلغت روح رقية التراقي وهي تنظر...، كانت السهام تهطل كزخات المطر، وقد وقف جماعة من الأنصار يحوطون المصلين...، قد جعلوا من أجسادهم دروعاً تقيهم حرّ السهام...،

ألم أقل أن الأجساد تحولت اليوم إلى مرقاة للجنان؟!...

كانت سكينة واقفة بحذائنا، حين هبّت رقية فجأة، وأرادت

أن تندفع نحووالدها، إذ رأت سهماً يُصوّب نحوه...، كانت سكينة أسرع منها، فانقضّت عليها تحبسها صارخة بفزع:

«رويدك يا رقية...، إن أصحابه يكفونه!»

... ونظرنا...، وإذا سعيد بن عبد الله الحنفي، يقف متّقياً السهام بصدره ونحره، يمنعها أن تصل إلى الحسين عليه السلام...،

ومع آخر سجدة في الصلاة، سجد شهيد جديد!... لقد سقط سعيد بن عبد الله...، ومع أنفاسه الأخيرة راح يسأل:

«أوفيت يا ابن رسول الله؟»

وأجاب الحسين عليه السلام بحسرة وألم:

«نعم، وأنت أمامي في الجنة!»

... رباه!... إن قلبي ليذوب حسرة وأنا أسجل الغصة تلو الغصة...، ترى، هل سأستطيع أن أتابع السرد؟... هل سأطيق أن أحمل عبء هذا اليوم؟... وما أثقله من عبء، تنوء بحمله حتى الجبال الرواسي، فما بالك بطفلة صغيرة كإياي!...

... لكن هذا اليوم علّمني أن الصغير يكبر، بما تغذيه به صروف الدهر وغِيَره، لا بما يمر عليه من شهور وأعوام...، إن هذا اليوم لم يدع فينا طفلاً، إلا شاب وهرم...، وأنا...، ودّعت طفولتي على أعتاب الأمس، وعليّ أن أحمل ما ارتضيت حمله اليوم!...

... إذاً...، عليّ أن أرتاح قليلاً...، أن أحبس شهقاتي وأمسح دموعي...، ثم أتابع...، أتابع رسم الظلال!

كــربــلاء،

ظهيرة اليوم العاشر من المحرم،
سنة إحدى وستين للهجرة

فظيع ما أرى...، وعزيز على القلب والروح.

إن النساء الكبيرات، رغم ما بهن من جزع، قد وقفن حائلاً بيننا وبين رؤية ما يجري...، بل هي ملائكة الرحمان هبطت، لتضرب حجاباً أمام نظراتنا البائسة المتطايرة هنا وهناك، لتلتقط صورة أو مشهداً، تتشبث به للخروج من دوامة الفزع المحيط، من هذه الكواسر المنقضة علينا من كل صوب...، كما أن خالي العباس، كان يروح ويجيء بين الخيام، يهدّئ روعنا، ويمسح على قلوبنا ببلسم العزاء...، كانت مجرد رؤيته تسكّن ما بنا وتلفّنا بالطمأنينة.

سعيت إلى رقية، كانت لا تزال تتردد بين مهد عبد الله، وباب الخيمة، وغرفة أخيها علي العليل؛... تنظر إلى وجه الرضيع المصفرّ وشفتيه الذابلتين، فتهب راكضة بقلب مقروح، تارة تفزع إلى الرباب، وتارة تسأل سكينة متوسلة بحرقة ودموع:

«أختاه...، إن عبد الله ظامئ جدا، وأنا أيضاً ظامئة جداً...، الظمأ يكاد يقتلني، فكيف به هو؟ كما أن علياً السجاد يزداد علة، هو يحتاج ماء لتبترد حماه، أخشى أن تودي به العلة!... أختاه...، هل إلى شربة ماء من سبيل؟!... أفلا تذهبين إلى عمنا العباس ليستسقي لنا ولو قليلاً؟!... من أجل عبد الله يا سكينة، من أجلي، من أجل حميدة، من أجل كل الأطفال...، بل من أجل عليّ السجاد...، هلا سألتِه، فهو يحبك كثيراً ولا يرفض لك طلباً؟!».

رأيت الدموع تتقاطر من عيني سكينة، وهي تهدئ روع أختها، فتضمها وتمنّيها بقرب الفرج، وتقول:

«ليس عمنا محتاجاً إلى الطلب ليستسقي لنا يا رقية، ولكنه مشغول برد الأعادي عنا الآن، وما إن يفرغ منهم حتى يطلب لنا الماء، فلا تخشي شيئاً!... الآن ينتصرأهل الحق يا أختاه، الآن يعود أبطالنا إلينا بالنصر المؤزّر بإذن الله، ثم بالماء!»

هاجت شجوني وزاد ظمئي وأنا أراقب وأستمع، فسألت دون أن أفكر، وقد راحت دموعي تنسكب:

«لماذا ننتظر حتى تنتهي المعركة؟... لِمَ لا يأتينا خالي العباس بالماء الآن؟... واعطشاه...، هل نسي خالي العباس أن في المخيم أطفالاً ظامئين، ولا يستطيعون الصبر على العطش؟... ثم أليس خالي الحسين ظامئاً أيضاً؟... وبقية الرجال، الذين يقاتلون خارجاًفي هذا الحر اللاهب، أليسوا أيضاً ظامئين؟!»

... فجأة...، سمعنا حركة بين الخيام، ثم ضربة، وصوتاً يصرخ بنبرة عظيمة:

«دع ما بيدك يا عدو الله!... أتسلب حرائر رسول الله؟!... خذها ضربة من ابن علي، يحتسبها أمام أبيه يوم القيامة!»

جمدت الدموع في عيوننا، والأنفاس في صدورنا...، وأفلتت آهة من فم رقية، وهي تتحول فجأة إلى البشر:

«عمي العباس!»

... وكأنما سمع صوتها، بل هو لا بد سمع، لا صوتها فحسب، بل أصواتنا جميعاً...، صرخنا ندعوه، ونشكو إليه...، حتى سكينة، ضمت صوتها إلينا قائلة:

«العطش يا عماه...، العطش يكاد يقتلنا، أنجد عبد الله الرضيع يا عماه...، إنه يكاد يموت من الظمأ!»

... سمعنا صهيل جواده وهويحمحم خارجاً...، وارتفع صوته يخاطبنا:

«بنفسي أنتن يا عزيزات الحسين...»،

... وتهدّج صوته، فصمت قليلاً... علمت أن نداءنا هاج شجونه...، ربما كان يغالب دموعه...، كنت أعلم أن خالي العباس، شأنه شأن خالي الحسين، وجدي أمير المؤمنين...، وأبي مسلم...، رقيق القلب قريب الدمعة، وإن كان في الحرب مغواراً...، وسمعنا صوته من جديد ينادي:

«صبراً يا بنات الزهراء...، صبراً على البلاء...، عما قريب آتيكن بالماء، إن شاء الله!...»

ثم تحرك الجواد به مبتعداً...

... وهدّأ روعنا نداؤه...، هدأت شجوننا، ومسحنا دموعنا، وانتشرنا في زوايا الخيمة ننتظر، بأمل جديد.

أما رقية، فهي قد انفلتت من ذراعي سكينة، لتعود إلى مهد عبد الله، تمد يدها لتهزه، فتسمع صوت الرباب تقول بلوعة:

«لا داعي لهز المهد يا رقية...، إنه لم يعد يبكي!»

«هل نام؟!»

سألت رقية بين اليأس والرجاء، فهزت الرباب رأسها قائلة بغصة:

«ربما...، أو هو في السبيل إلى النوم».

أجهشت سكينة بالبكاء...، ثم أخفت وجهها، وازدردت شهقاتها المتوالية، حينما نادتها أمها بصوت متعب تقول:

«لا بأس يا سكينة...، لا بأس يا بنتاه، أمرنا لله...، الأمر كله لله!»

.... وأقبلت من خارج الخيمةامرأة لم أعرفها...، بل امرأتان...، بلى...، لقد عرفتهما؛... كانتا غريبتا الزي والقيافة، ولكنهما حسنتا المظهر...، إحداهما صارمة المحيا عطوفة

النظرات، والأخرى تصغرها سناً، جميلة الوجه منكسرة الطرف...، استأذنتا بالدخول في خجل، فهبّت أمي نحوهما قائلة:

«أهلاً بأم وهب وزوجته...، ألكما حاجة؟!»

طأطأت كبرى المرأتين رأسها قائلة بحزن وندم:

«حاجتي أن أطمئن على بنات الرسول، أن أعرف أحوالكن...، وحاجتي...، بل حاجة فتاتي هذه، أن تسامحوها!»

«علامَ نسامحها يا أخية؟... وهل أساءت إلينا؟»

ارتمت الفتاة على قدمي أمي تقبلهما وتقول:

«إي والله...، أسأت إساءة عظمى...، بل كفرت بعدما آمنت وحسن إيماني وإسلامي...، ويحي على نفسي...، لقد أجرمت وأخطأت!»

انكبّت أمي عليها ترفعها بحنوها المعروف، وتسأل:

«وما خطيئتك يا ابنتي؟... قولي حتى نعرف!»

راحت الفتاة تشهق وتبكي وتردد بين دموعها:

«لقد حبست وهباً عن الجهاد...، كان قد صال صولته الأولى كالأسد، وقتل من القوم مقتلة عظيمة، حتى إذا عاد إلينا يستريح ليتابع مسيرته، استوقفته...، ويحي ما أشقاني... لقد سألته...، سألته أن... لا يفجعني في نفسه...، كدت أطفئ جذوة

عشقكم في روحه، بإحياء عشقي في قلبه...، ويحي...، لقد تدخلت أمه...، هذه الطاهرة العظيمة الواقفة أمامكن، ونهته عن الالتفات إلى قولي...»،

قاطعتها أم وهب تقول بنبرة قوية:

«لم يكن وهب ليلتفت إلى عشق القلب يا عروس وهب، وسواء عليه أنهيته عن الاستماع إليك أم لم أنهه، فهو قد كان موطّناً نفسه على استكمال الدرب...، لقد كان قولي موجهاً لك أنت يا ابنتي، لتستيقظي من كبوة وغفوة كادتا توديان بروحك!»

لطمت الفتاة وجهها وهي تصرخ:

«لقد استيقظت يا أم وهب...، لقد أفقت وتنبهت يا أم الحبيب...، لقد قدّم وهب نفسه على مذبح الحسين، واليوم يُصلب على درب جلجلته...، لقد اشتعلت روحه نوراً في سمائه...، أما أنا...، فقد بقيت هنا...»،

... ارتفع في تلك اللحظة نداء خالي الحسين، يهتف بالجموع المنقضّة علينا، بصوت نازف:

«ألا من ناصر ينصرنا؟... ألا من ذابّ يذبّ عن حرم رسول الله؟!»

ارتفعت أصواتنا جميعاً بالنحيب والبكاء، وهبّت رقية كعادتها، حالما سمعت صوت والدها، تريد الخروج من الخيمة،

فحبستها سكينة، فراحت تتخبط بين يديها، وتبكي...، بينما هبّت عروس وهب واقفة وقد تغير لونها، واشتدت نظرتها...، واندفعت خارجاً وهي تجيب:

«لبيك يا ابن رسول الله...، لبيك يا حجة الله!»

وقبل أن يلتفت أحد إلى ضرورة الإمساك بها، كانت قد أصبحت خارج الخيمة، واندفعت خلفها أم وهب، بينما انشغلت أمي بسكينة ورقية...، أما أنا، فقد وقفت على باب الخيمة فزِعة، محاولة أن أفهم ما يجري...، وأطلّ عليّ مشهد، لو علمت أني سأراه، لما وقفت أراقب لحظة.

كانت الأرض أمام خيامنا ممتلئة بالأجساد المقطّعة، بعضها لخيارنا، وبعضها لشرارهم!

اقشعر بدني وارتعبت...، وكدت أصرخ وأستغيث وأنا أحدّق في المنظر الدامي مذهولة، لو لم يستوقفني منظر عجيب:... كانت عروس وهب، تحمل عموداً وتندفع نحو ميدان القتال...، صرخت أم وهب تستوقفها، فلم ترد...، وقبل أن يستطيع خالي الحسين أن يأمرها بالرجوع، وهي كانت لا بد ستمتثل لأمره، بعدما امتثلت لندائه...، كان هناك لعين ينقضّ عليها بسيفه...، فتسقط!....

ويحي...، لقد سقطت الفتاة على الأرض مضرجة بدمائها، فوقفت أم وهب...، راحت تحدّق فيها مدهوشة، ثم سقطت على ركبتيها منتحبة تقول:

«واحسيناه...، واسيداه...، حتى النساء تقتل فيك...، ماأشوقني إلى الموت في سبيلك...، هنيئاً لك يا وهب...، هنيئاً لك لقاء عروسك التقية...، إن فراقكما لم يطل، أما فراقي أنا لكما...، فأرجو أن لا يطول!»

ثم خرت مغشياً عليها، فتقدمت منها بعض نساء الأنصار، ورفعنها حتى أوصلنها إلى خيمتهن.

... عدت إلى داخل الخيمة مبهورة الأنفاس، والتصقت بأمي وأنا أرتجف، وأقول لاهثة:

«أماه...، إن المرأة التي كانت هنا، قد قُتلت...، جاهدت...، استشهدت!..».

وانخرطت في بكاء مرير، فسارعت أمي تضمني مهدئة وتقول:

«لا بأس يا ابنتي...، إنه «يوم كثر واتره، وقل ناصره»، كما يقول خالك الحسين...، وهؤلاء قوم لا يعرفون للرسول حرمة، فهل يعرفون للنساء حرمة؟!»

... كانت كلماتها مخيفة...، وبدلاً من أن تسكّن روعي، زادتني خوفاً...، ونظرت إليها النساء داخل خيمتنا قائلات بجزع:

«إي والله...، إنهم لا يرعون حرمة أحد!»

عادت أمي تقول مخففة عن الجميع، وهي تشير من باب الخيمة إلى الخارج:

«ولكن رجالنا الأبطال يدافعون عنا، فلا تخشين شيئاً...، أنظرن إلى علي الأكبر...، إلى أبي الفضل العباس، إلى أبناء عمنا عقيل، وأبناء أخي الحسن...، إنهم ليوث الهيجاء وفرسان الوغى، هم أبناء حيدرة حقاً، وهم لن يبقوا لهؤلاء اللعناء باقية!»

«ألم يبقَ سواهم؟!»

سألت سكينة ذاهلة اللبّ...، وأتى سؤالها مدوياً بيننا كالرعد القاصف...، لم تحر أمي جواباً بل راح قلبها يخفق بشدة؛... كانت ضرباته المتصلة بأذني تكاد تصمّني...، ثم تركتني، لتتجه نحو باب الخيمة، وتولي وجهها شطر الميدان...، لم أدرِما أصابها...، هل كانت تخفي انفعالها عنا، أم تحاول أن تستطلع ما يجري لتطمئن...، أم أنها كانت تخفي أمراً آخر؟... لست أدري!

... إيه أيها القلم اللجوج في عطائك...، هلا تركتني ألتقط أنفاسي وأمسح دموعي ثانية، استعداداً للمرحلة المقبلة من البوح؟!... إن ما بقي عظيم عليّ، عسير جداً نقل خيالاته، الفياضة وجعاً، ونوراً، ودماء!... إن عليّ أن أستريح هنيهة...، أن أستجمع قواي المتهالكة...، ثم أتابع رسم الظلال!...

❋ ❋ ❋

..... لهفي عليك يا رقية، لهفي على ما حمّلتنيه من هم جسيم، أن آخذ عنك ماتكأّدك ثقله...، وأتابع الحديث.

... وأنت، ما بين مهد عبد الله، وغرفة أخيك العليل...، كانت لك محطةٌ ما.

لو لم أرَ صراخك خارجاً، لما عرفت...، ولو لم أرَ شخص خالتي زينب تخرج من خيمة العليل، لما أدركت أن حَدَثاً عظيماً قد جرى.

إن صراخك أيتها العزيزة، ما كان ينطلق جزافاً، بل كان يفضي بما تكتنز القلوب الصابرة المحيطة، التي لم تشأ أن تطلق العنان للمصاب.

وخروج خالتي زينب من خدرها، كان يعني الكثير أيضاً...، فهي لا تخرج إلا لأمرٍ جلل.

ووقفنا جميعاً على باب الخيمة...، حتى الرباب، التي أقعدها قبل ذلك احتضان رضيعها وهدهدته....

كان خالي الحسين وابنه علي الأكبر، قد تعانقا، وراحا يبكيان معاً...، وكانت رقية واقفة بالقرب، تنظر إليهما، وتنتحب قائلة:

«وا أبتاه...، وا حسيناه...، وا أخاه...، وا علياه...»،

هالنا الموقف...، وخرجنا جميعاً من الخيمة صارخين...، حتى إذا وصلنا،، تباعدا وافترقا، وهبّ علي يلتقط سيفه ودرعه...، كان متهيئاً للقتال، ولا بد أن بكاءهما كان بداعي الوداع...، ولكن خالي أشار إليه بالتريث لوداع أمه وعماته

وأخواته...، ثم استدار إلى الناحية الأخرى، وابتعد قليلاً...، لعله أراد أن يفسح المجال للتوديع، ولعله أراد أن يختلي بنفسه قليلاً، فقد كان بادي الأسى، لا تنفك عيناه تهملان بالدموع!...

«إن علياً ضلع من أضلاع الزهراء...، ما تمنيته ولداً لي كما أتمناه الساعة!»

وشهقت الرباب بدموعها المنسجمة، وهمسها الذي تحول إلى نشيج...، وضمت وليدها بحرقة والتياع.

وتراكضنا نحوه...، إذا كانت خالتي زينب قد هبت تودعه، أفلا نفعل نحن؟!

نودعه؟!... ما أقساها من كلمة...، وهل هو راحل؟!

لقد قالت سكينة أننا سننتصر، وقالت أمي أن أبطالنا لن يبقوا لهؤلاء باقية...، إذاً، فلماذا الوداع؟!

«لعل الفراق يطول!»

كذا صرخت سكينة، وهي ترمي بنفسها على أخيها فتعتنقه، وتغسله بفيض عينيها....،

أما رقية، فقد تعثرت قبل الوصول...، عدت إليها، فإذا هي راكعة على ركبتيها، كأنها تصلي...، نظرت، فإذا شفتاها تلهجان...، أنا أعرف كم تحب رقية أخاها الأكبر...، كم هي متعلقة به...، لقد أخبرتني يوماً بفخر أن من أسباب تعلقها به

وحبها الشديد له، وصف والدها له بأنه شبيه المصطفى، وأنه إذا اشتاق إلى رؤية جده نظر إليه!

... وعاد خالي الحسين يتجه نحونا، فتفرقنا قليلاً...، للمرة الأولى، لم تندفع رقية نحو والدها فور رؤيته، بل هي تجمدت في موضعها، وكأنها منشغلة بأمرٍ آخر.

ولكن، تالله...، أي أمر يشغل رقية عن أبيها، سوى أبوها نفسه؟!...

... ورأيتها تذرف الدموع غزيرة حيث هي...، هل لم يكن بمقدورها الوقوف؟.... ربما!...

على أنني ضممتها إليّ، أردّ لها بعض جميلها عليّ...، كانت ترتجف، وشفتاها ترتعشان، وهي تلهج بصوت خافت:

«أخي علي...، أخي علي...»،

«دعنه يا بنات رسول الله!»

كان صوت خالي الحسين يهيب بنا أن ننسحب، فتفرقنا مرغمات...، واشتد علي ليمتطي جواده وينطلق...، فنظر إليه الحسين طويلاً، ولم يملك أن أجهش بالبكاء...، فأبكانا بكاؤه، ولما يجف دمعنا بعد....، ولم يبق في المخيم رجل ولا امرأة ولا طفل إلا بكى لبكائه.....، حتى لقد رأيت بعض الأعداء المحيطين بنا، ينظرون إلينا، ويمسحون دموعهم!

ولكن...، رُبّ دمعة جرت من العين دون القلب، فإن السيوف ظلت مشهرة علينا كما هي.

ورُبّ دمعة سقطت على رمل الصحراء الملتهب، فحوّلته رماداً لحرارتها!...

... واهاً لدمعك يا أبا عبد الله!...

... ثم إنه أمرنا بالعودة إلى الخيام...، وما إن توارينا، ونحن نكفكف دموعنا، حتى سمعنا صوته الملهوف ينادي بحرقة:

«يا ابن سعد...، قطع الله رحمك كما قطعت رحمي!»

... وأجابه صهيل الجياد وقد حمي الوطيس...،

«إن هذا لا يحدث إلا إذا نزل المعركة بطل لا كالأبطال!»

كانت الرباب تتحدث وهي خافضة الرأس مغمضة العينين...،

... وتصاعدت حدة القتال...، كانت أمي تنظر من باب الخيمة إلى خالي الحسين، الذي كان واقفاً خارجها يراقب المعركة، فتراقب وجهه، وتخبرنا بوجهة القتال.

فجأة، بدا القلق عليهاواضطربت نظرتها...، سألتها سكينة بجزع:

«ما لي أراك قد اضطربت يا عمة؟... أحدث مكروه لأخي علي؟»

أجابت أمي بصوت مختنق:

«لست أدري يا بنتاه...، ولكن أباك قد تغير لونه، وها هو يدخل إلى خيمة ليلى...، ويحي عليك يا ليلى!...»

كانت خيمة ليلى تجاور خيمتنا، ولذا فقد سمعنا ما دار من حديث بداخلها...، لقد أخبرها الحسين بما هناك:... إن علياً في خطر، وقد برز إليه من يُخاف عليه منه!...

جزعت ليلى واضطرب صوتها وهي تسأل:

«سيدي...، ماذا أصنع؟... ما تأمرني؟...»

فأجابها بصوت حزين:

«إدعي له يا ليلى، فقد سمعت من جدي رسول الله، أن دعاء الأم بحق ولدها مستجاب...»،

ثم إنه خرج من الخيمة ليعود إلى موقفه السابق، ليراقب القتال.

... كانت خيامنا متداخلة الأطناب، ولذا فإن صوت ليلى المجروح المبحوح أتانا، لينضم إلى أصواتنا، إلى أيدينا الممتدة وأكفنا المبسوطة، إلى عيوننا ودموعنا المشرعة نحو السماء:

«إلهي...، بغربة أبي عبد الله...، إلهي...، بعطش أبي عبد الله....، إلهي...، بصبر أبي عبد الله...، يا رادّ يوسف إلى يعقوب...، رد إليّ ولدي علي!...»

... وساد صمت موحش...، لم يعد يُسمع من خيمة ليلى، ولا حتى صوت نشيج...، فاندفعت أمي نحو الخيمة، وتعلّقت بذيلها فجرّتني معها....

... دخلنا الخيمة...، وإذا بليلى منطرحة على الأرض، مغمىً عليها...،

هرعت أمي تمددها وتحاول إيقاظها، ولكن، عبثاً!.. أرعبني الأمر!.

رباه...، هل ماتت ليلى؟... هل قتلتها لوعة الفراق؟...

... وأطل علينا فجأة، بلسم الجراح، علي الأكبر...، كان ملتاعاً، ربما جريحاً، فعلى ثيابه أثر دماء، ولكنه كان ملهوفاً للوصول...، حتى إذا دخل الخيمة، وعاين حال أمه، خنقته العبرة، وسارع يركع عندها، يضع رأسها في حجره، ويبكي...،

تساقطت دموع علي على وجه أمه، فأفاقت....،

رباه...، لقد أحيت دموعك ايها البطل البار، الأنفاس في صدرها الخامد، والأمل في قلبها المتلظي خوفاً وشوقاً!

فتحت ليلى عينيها، لتجد علياً عند رأسها، فاعتنقته طويلاً، وراحا يبكيان معاً!...

رباه!... هل كانت ليلى تعلم ما لا نعلمه، ولذا فهي لم تطق أن تفلت علياًمن جديد؟... لست أدري.

ولكنني أدري، أنها لم تفلته حتى راح يناجيها ويتوسل إليها بقوله:

«أماه...، ألا تريدين أن تأتي يوم القيامة إلى جدتي الزهراء وتقولي لها، فديت ولدك الحسين بولدي علي؟!»

... أرخت ليلى يديها عن علي وأرخت ناظريها بخجل وانكسار، وهي تقول:

«بلى يا بني، انطلق، وجاهد بين يدي سبط المصطفى...، بيّض الله وجهك كما بيضت وجهي عند فاطمة الزهراء...»،

وما إن استجاب علي لطلبها وغادر، حتى ضمت ذراعيها على الفراغ، وغطت وجهها بكفيها، وانخرطت في بكاء مكتوم.

ولم تستوقفه أمي...، لم يستوقفه أحد...، لأنه خرج مسرعاً كالبرق الخاطف، لا يلوي على شيء...، كان أمامه هدف واحد يسعى لتحقيقه، ولذا فهو قد خرج، وامتطى فرسه وانطلق.....

... لم أعد أستطيع المتابعة...، بل إنني لم أتابع...، لقد عدت إلى خيمتنا، تركت أمي عند ليلى، وعدت، لأجد رقية في حضن سكينة، تغطي وجهها تارة، لتخفي عنها ما يدور، وتكشفه أخرى، فتقرأ رقية في وجهها الشاحب كل ما يدور.

مضت هنيهات طوال...، قبل أن يعلن المصابَ الجلل، صوتُ علي يصرخ من عمق الميدان:

«أبه يا حسين...، عليك مني السلام...، هذا جدي رسول الله قد سقاني بكأسه الأوفى شربة لا أظمأ بعدها أبدا!»

نظر بعضنا في عيون البعض الآخر...، لم نصدق...، ولكن صوت رقية أيقظنا...، لقد صاحت بأعلى صوتها:

«يا جداه...، يا رسول الله...، ألا تسقينا نحن أيضاً؟!... الظمأ قد كاد يقتلنا...، يا جداه!...»

أما سكينة، فقد أفلتتها وهي تنظر حولها مذهولة وراحت تصرخ:

«وا أخاه...، وا علياه...»،

وأما الرباب فقد ضمت وليدها إلى صدرها...، راحت تنظر في وجهه الساكن، وتتحسس أنفاسه الضعيفة...، وتشهق منتحبة:

«وا ولداه...، وا علياه...»،

... حتى أن صوتها تداخل مع صوت ليلى الضعيف القادم من الخيمة الاخرى، ومع صوت أمي، وصوت خالتي زينب.

أجل..، لقد اندفعت خالتي زينب خارج خيمة العليل...، للمرة الأولى، كنت أرى خالتي تصرخ هكذا...، لقد شبكت أصابعها على رأسها، وراحت تنادي من فؤاد مقروح:

«واولداه...، واعلياه...، وانور بصراه، واثمرة فؤاداه..»،

... ونظرنا حولنا...، لم يكن خالي الحسين أمام الخيام، ولا خالي العباس، ولا غيرهما...، استوحشنا وفزعنا...، ولكن صوت خالي الحسين أتى من بعيد، من وسط الميدان، وهو يطلب من خالتي زينب بصوت ضعيف، أن تعود إلى خيمتها...، أن لا تشمت بنا الأعداء!...

أي وا حسيناه...، لقد رأيتك اليوم كما لم أرك قط...،

تمشي متخاذلاً، تجر جوادك خلفك، ويمشي وراءك فتيان بني هاشم: أخي عبد الله، ابني خالتي زينب، عون ومحمد، أبناء أعمامي، أبناء خالي الحسن،... يتقدمهم خالي العباس، وهم جميعاً ينتحبون، ويحملون جثةً ما!...

غطيت وجهي، ودفنت أنظاري لكي لا أرى...، كنت أعلم أنه علي، شبيه جدنا الرسول...، أنه قد عاد إلينا...، جثة بلا روح...، أن روحه قد فارقتنا، لتلتقي بجده المختار وأبيه حيدر الكرار...، لترتاح من هم الدنيا وغمها، إلى حيث لا هم ولا غم ولا كدر.

... وصرخت رقية مجدداً بنداء غريب:

«واجداه...، وارسول الله!...»

... كان عجيباً، أن رقية لم تذكر اسم علي...، كانت تندب جدها الرسول فحسب...، أتراها كانت ترى أن رسول الله قد استشهد اليوم من جديد؟!...

... عذراً...، عذراً أيها القلم...، إن لهاثي يتزايد...، لقد قطعت شوطاً طويلاً...، كنت أعلم أن مهمتي صعبة عسيرة، ولكني حسبت أني قادرة على المتابعة...، لست أدري إن كنت سأستطيع ذلك بعد، ولكن...، لعلني... لن أستطيع...، فعذراً.....

كـربـلاء،

بعد ظهر العاشر من المحرم

سنة إحدى وستين للهجرة

... عظيمة هي محنتنا، لأنها محنة العظماء....

... وشامخة هي عظمتنا، لأنها عظمة الشامخين....

... وقادح بالعزم والإقدام شموخنا، لأنه شموخ الأبطال....

... وأبدي مدى الدهر حزننا وبكاؤنا، لأنه بكاء على العظماء الشامخين الأبطال...، من لم يلد الدهر لهم مثيلاً، منذ كان الدهر، ولا أبالغ!

... أجل...، ولئن لم تستطع حميدة أن تتابع رسم ظلال الملحمة، فكلّ كلامها وتلجلج لسانها، فهي لم تكن ضعيفة...، بل هي طفلة...، لم تعرف من الطفولة إلا انكسار اليتم، وآفاقاً من الألم والعناء.

... ولئن لم تقوَ رقية على الالتحام مع الحروف والكلمات، لتلتقط من أشلاء هذا اليوم الممزق بعض الفتات، فهي تعيش الساعة في بعد آخر...، قد ارتقت مع عظمة البلاء إلى ذروة لا

أدري مدى رفعتها...، كل ما أعلمه أنها لم تعد تستخدم الكلمات وسيلة للتعبير، بل صار لديها ما هو أرقى وأسمى...، ما لا يفهمه إلا الصدّيقون!

... إذاً...، لم يبقَ في الميدان غيري...، أقول الميدان، لأن حياتنا في ميدان الطف صارت ميداناً...، كما كانت قبل ذلك وأكثر...، فها نحن نواجِه ونواجَه، نحارِب ونحارَب، ونهاجَم فندافع!...

... أجل..، لم يبقَ غيري أمامك أيها القلم المفجوع...، ولكن، لا بأس، فدموعي تكفيك مداداً، وقلبي دواة لا تنضب، ويبقى ضباب أنفاسي ستاراً قد تزيحه شمس كربلاء الحارقة....،

.... أيها القلم المفجوع...، ستنال سؤلك، وإن تعددت الأرواح، فالقلب واحد...، ومن القلب أرسم الآن غصصاً، أرجو من الخالق عز وجل أن تطاوعني الكلمات لامتطائها، عساي أرفع من خلالها قرابين الفداء!...

أنا الآن سكينة...، أو آمنة...،

... وأنا إن شئت أيضاً...، فاطمة...، فكلنا، كما قالت أختي رقية...، كلنا فاطمة!...

قبل أن أشعل شمعة ذكرياتي لتذوب في محراب الحسين...، عليّ أن أشكر حميدة، الصغيرة الحبيبة اليتيمة حميدة، لأنهاكفتني

أمر سرد كان سيضنيني...، لا لأنه أقسى من سواه، بل لأنه كان فاتحة المصاب، وأول الغيث الدامي الذي أمطرتنا به سماء كربلاء في هذا اليوم الأغبر!

لقد كفتني حميدة، مصاب سرد ما جرى لأخي ونور عيني علي الأكبر.

أنا الآن أرتعد لذكر اسمه...، لا أقوى على رسم حروفه، فهي ما إن تكتمل كلمتين على صفحة بيضاء، حتى تفيض دماً، ودمعاً...، وشعاعاً لا حدّ لمداه!

عليّ أن أتابع، أن أغفل عما قد تكون أغفلته حميدة من تفاصيل، لأنني لن أحتمل الخوض في لجّتها من جديد.

يكفيني ما أنا مقدمة عليه الآن...،

... كلا...، لن أدخل ساحة المعركة...، لن أقف بين الفرسان لأتلقى الطعنات، فقد تودي بي طعنة منها، وتمنعني عن مواصلة الطريق...، ولكنني سأقف على التل...، سأندب كل نجم يهوي...، وقد يسدل الدمع غلالةً فوق بصري، لكن النور ساطعٌ باهر، ولذا فإني سأراه، وسأبذل جهدي أن أعكس بما تيسّر لي من كلام، بعض ضياه.

... لم تنتهِ المعركة مع سقوط نجمنا الأول، بل هي بدأت...، كان شبيه المصطفى، وحسب رأي رقية..، كان المصطفى نفسه، أول شهيد...، أجل، أول شهيد من بني هاشم.

ومثلما بكت بنات المصطفى علياً بدمع هتون، كذلك فعل أبناؤه...، ولكن، بدمٍ نازف وأوصال وأشلاء، ذرفوها فوق الرمال التي تخضّبت بدمائه الزكية، واكتحلت بدمائهم الأبية...،

... ها هو عبد الله...، ابن عمي مسلم بن عقيل، ابن عمتي أم كلثوم، أخو حميدة...، ها هو يستبسل في القتال...، إنه بطل صنديد، كأبيه وأخواله، وكجده أمير المؤمنين...، ولكن...، لكل أجل كتاب...، وهو، كما قال أبي قبل حين «... وبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم....»

إذاً...، كان لا بد للبطل، بعدما أردى الفرسان، وجندل جلاوزة بني أمية، أن يتلقى وعده...، أن ينسكب شعاعاً فوق رمضاء كربلاء...، ليضيف إلى أحجية الهداية حرفاً آخر!...

... أعلم أن حميدة تحدثت عن أخي...، وصفت فأسهبت شيئاً ما، وحريّ بي أن أرد لها الجميل...، أن أندب أخاها وأرثيه كما ندبت أخي ورثته...، ولكن، لكي لا أتوقف كما توقفت، سأكتفي بهذا القدر...، فلا زال أمامي الكثير!

هؤلاء أعمامي، عبيد الله وعمر ومحمد الأصغروعبد الله وجعفروعثمان، أبناء علي بن أبي طالب...، وهؤلاء أبناء عمي عقيل...، هذين ابني عمتي زينب، عون ومحمد، ابني عبد الله بن جعفر...، هؤلاء أبناء عمي الحسن.....

لم يعد بمقدوري أن أحصي...، فلكثرة الشهب المتساقطة

صارت الأرض شهاباً ثاقباً...، اشتعل أديمها ناراً ونوراً، واشتعل فضاؤها زفرات حرى، ونحيباً، ودموعاً...، وضياء!

... ترى، هل بحّ القلم كما بحّت حناجرنا من النداء؟!... ربما...

... ورغم أن الأبطال الذين عرفناهم منصورين مسدّدين، كانوا يرتمون في حضن الموت، فلا يأبهون، لا يهابون أدغال الأسنّة والسيوف، ولا كواسرها المكشّرة عن أنيابها، فقد كانوا أسوداً في مواجهة ذئاب...، ولكن، شاء الله أن يكون لهم نصر آخر...، وأن يحوزوا ثاني الحسنيين لا أولاهما... لقد تكسرت رماحهم في صدور المنافقين، وتركوا سيوفهم مغمدة في قلوبهم...، ومضوا...، مضى الطيبون...، مضوا جميعاً...، إلا الأقلين.

ومن الأقلين، كان القاسم ابن عمي الحسن...،

.... لقد رأيته يخرج من خيمة أمه رملة، وينهج بقوة وتصميم، صوب موقف والدي الحسين...، رأيت والدي، يعاينه ويبكي، ويهز رأسه رافضاً طلبه:

«أنت وديعة أخي الحسن...، أنت أشبه الناس به...، أنت لم تبلغ سن التكليف بعد...، لا أريد ان أفقدك...، يكفيني من فقدت، ولا أرغب في المزيد.»

... ويعود القاسم باكياً إلى خيمة أمه...، لقد حال أبي بينه

وبين أمنيته...، وتنفسنا الصعداء، عماتي، أمي، أنا، ونحن نرى عودته...، لعله يبقى...، ويبقى لنا عضداً وسنداً، يوم يعز العضد والسند....

ولكن أنظارنا الراصدة خارجاً، سير المكان والزمان والمعركة، رصدته وهو يعود بعد قليل بهيئة أخرى؛.. لقد كان يرفل في ثوب أبيه، معتماً بعمامته، متقلّداً سيفه...، وكان يحمل بيده شيئاً ما...، ما إن لمحته عمتي زينب، حتى نظرت إلى أختها أم كلثوم كالآيسة، وأرخت عينيها بالدموع وهي تهمس كالمناجية:

«لشد ما يبدو شبيهاً بأبيه، رغم صغر سنه...، لقد بُعثتَ يا ابن أم في كربلاء، ولم تفُتكَ تلبية النداء!...».

... أما أبي الحسين، فهو قد بكى لرؤيته، بكى بشدة...، لم يوقفه إلا منظر يد القاسم الممتدة نحوه بشيء ما....، كان كتاباً...، من عمي الحسن، وصية إلى ولده...، قبّله أبي بشوق، ووضعه على عينيه، ثم فتحه، وقرأ ما فيه، بصوت نسمعه...، بدا لي أن صوت عمي الحسن كان يخترق السنين، ويصبّ في سمعنا المضمّخ بالحنين، ويخاطب ولده:

«بني قاسم، إذا رأيت عمك الحسين في كربلاء، وحيداً غريباً...، فلا تقصّر في نصرته!»

أطرق أبي ملياً...، كان القاسم لا يزال يراقبه، حتى إذا طال

به الانتظار للرد، ألقى بنفسه على قدميه، يقبّلهما ويغسلهما بفيض عينيه وفؤاده، ويتوسل القبول بمنح الإذن:

«أي عماه...، لا تحرمني هذه المكرمة..، بحق أبي الحسن عليك، إلا ما أكرمتني بطلب الشهادة بين يديك...، أي عماه، لا تبخل عليّ بجودك يا بحر الجود!...»

انكب والدي على القاسم يرفعه، ويعتنقه...، ويبكي طويلاً، قبل أن يشير إليه بالتقدم، نحو ساحة الجهاد!...

... وانطلق القاسم نحو الميدان راجلاً، شاهراً سيفه في وجه الأعادي، وهو يرتجز ويقول:

«إن تنكروني فأنا ابن الحسن سبط النبي المجتبى والمؤتمن
هذا حسين كالأسير المرتهن عند أناس لا سُقوا صوب المزن»

... لم يخشَ القاسم جحافل الجيوش المنقضّة عليه من كل صوب، فهو لم يكن يراهم، كانت الحرب عنده نزهة صوب الآخرة...، وكان السيف في يمينه مفتاحاً لولوج جنات النعيم، التي لا تنفتح أبوابها إلا للأبرار...، كان يدرك ذلك جيداً... وكان يصول ويجول بين العساكر كما جده المرتضى وأبوه المجتبى، لا يطرف له جفن ولا يتقهقر قيد شعرة....،

كانت قلوبنا ترمقه بحسرة، وعيوننا ترثيه بعبرة...،

... ولكن، كان ما كتبه القلم في اللوح المحفوظ...، هو ذا القاسم، وديعة عمي الحسن، ربيب والدي الحسين...، كلمة

الحسن المجتبى التي قالها في كربلاء، وصوته العابر للزمان الحزين، ينقل وجدانه الملهوف على مصاب الإسلام، وغربة الحق، ويجسّد روحه العابقة بالحنين!

هو ذا القاسم، ينطلق في ركب السابقين، وينطلق صوته الملهوف عبر البيداء، ليصبّ في سمعنا الثاكل:

«عم أبا عبد الله...، أدركني!...».

لم ندرِ حتى نحن ما جرى بعدذاك...، لقد تزلزلت الأرض تحت أقدام البغاة، لقد اكتسحهم فيضان غضب الجبار، وغضب والدي...، وأغرق منهم من أغرق...، حتى.... وصل إلى مصرع القاسم...،

... وعاد به إلينا...، هلالاً لم يستتم بدراً، بل عرج إلى المغيب قبل الكمال...،

كان يحمله، ملصقاً صدره بصدره...، ومع ذلك، كانت رِجلا القاسم تخطان الأرض، فقد كان والدي محنيّ الظهر وهو يحتمله..،

أي وا أبتاه...، يا لمصابك، يا لعينك الدامعة وقلبك المفجوع...، يا لظهرك الذي أثقله الخطب الجلل...، فداك عيني وقلبي وكل جوارحي...،

لهفي على دموعك التي ترثي بها في كل آونة كواكب

السماء، وعلى كيانك القدسي الذي أضناه تواتر الهموم...، ولا زال يرتقب المزيد!...

أي وا أبتاه...، لقد سقط الجميع...، تركوك في هذه الصحراء الموحشة المتوحشة بلا ناصر ولا معين، سوى.... كبش كتيبتك وصاحب لوائك، عمي الحبيب، قمر عشيرتنا، أبي الفضل العباس!

... ويحي لما أقول...، وهل عمي العباس قليل؟!... إنه عسكر بنفسه، جيش لوحده...، أُخبرت يوماً، أنه أردى في صفين، بين يدي والده أمير المؤمنين، سبعة إخوة أشداء، ووالدهم أبو الهيجاء، وهو لما يتجاوز الرابعة عشرة من العمر...، ثم حبسه جدي أمير المؤمنين عن القتال، وادّخره لنصرة والدي الحسين، في هذا اليوم....

إذاً....، اليوم سيخرج عمي العباس ذخر السنين...، اليوم سيرفع راية الحمد عالياً، ويقتحم الميدان ببطولاته اللامحدودة...، وسيحقق لنا النصر، وثمار الصبر!...

... ذِكرُ الصبر يذكّرني بالظمأ...، وهل نسِيَنا الظمأُ اليوم، والبارحة، وقبل ذلك؟!... هل عرفنا الريّ إلا من كفه النديّ؟!...

... لقد استسقى لنا البارحة حتى روى المشرعة من دماء الخبثاء.....، وكان يسير بين الخيام اليوم، يحافظ عليها، ويقتنص كل دخيل تسوّل له نفسه التسلل إليها، فيورده الحامية ويسقيه حميمها...،

أليس هو«ساقي العطاشى» كما أسماه جدي أمير المؤمنين؟..... هو يسقي كلاً حسب ما يرتضيه، عذباً زلالاً للطيّبين، وملحاً أجاجاً، بل حميماً وغسّاقاً، للناكثين القاسطين المارقين!

... وعند الحراسة، كنت أسمع له أنيناً وحنيناً، فأتساءل: «ما يضني عمي العباس؟!... أهو الظمأ كإيانا؟!...»

بنفسي أنت يا عماه...، لعلك أكثرنا ظمأ، فأنت لم تفتر ولم تكلّ عن الكر والفر، بين أطناب المخيم وخارجه، مدافعاً وذائداً عنا، وعن والدي الحسين....، حر لاهب وحركة دائبة، وذِكرٌ دائم لا يفتر...، حري بك أن تكون الأكثر ظمأً...، ولكن، لم يكن ذلك سبب أنينك وحنينك...، أنا أعرفك يا عم...، لم تكن لتئن لنفسك وظمئك، بل كان ذلك لظمئنا نحن...، لصراخ الأطفال يستجدي همتك، لأنين الأيتام يستعطي جودك، لنداء العطش يستسقيك...، رباه...، لقد فاض المكيل!...

... وأتى نداء الحجة يستصرخ الناصر:

«ألا من ذابّ يذب عن حرم رسول الله...، ألا من موحّد يخاف الله فينا؟!....»

... وسمعنا، من حيث مواقفنا ومقاعدنا داخل الخيام، نرثي شهداءنا ونشكو إلى البارئ بلوانا...، سمعنا صوت حامي الظعينة، يطلب الإذن بالقتال!

... وسمعنا الرد، من والدي الحسين، باكياً كرده على علي الاكبر، ممانعاً كرده على القاسم..، ورافضاً، كما لم يرفض من قبل:

«أخي عباس...، أنت كبش كتيبتي وصاحب لوائي...، إذا مضيت تفرّق عسكري..،».

.... ووصلنا صوت عمي العباس شاكياً بحرقة:

«سيدي أبا عبد الله..، بالله عليك....، لقد ضاق صدري وسئمت الحياة...، ألا من رخصة لأطلب ثأري من هؤلاء المنافقين؟!...».

ساد صمت طويل...، نظرنا إلى بعضنا...، حتى عمتي زينب، التي ظلت رابطة الجأش منذ بدء المعركة...، هي لم تخرج عن هدوئها إلا عندما استشهد أخي علي، والآن!... حتى عندما استشهد ولداها، ذرفت الدمع ساخناً، ولكنها لم تضطرب كما هي الآن!...

... هبت عمتي نحو باب الخيمة تستطلع الرد...، وقفتُ بقربها محتبسة الأنفاس والدموع...، كان أبي ينظر إلى عمي متحسراً، يغص بعبرته، ولا يحير جواباً...،

وأعاد عمي العباس الطلب برجاء ودموع، فبكى أبي أسوة به...، وبكينا جميعاً، نحن الذين لم يجف دمعنا بعد...، وأجاب أبي وهو يغتصب الكلام اغتصاباً:

«إن كان لا بد...، فاطلب لهؤلاء الأطفال قليلاً من الماء!»

... لم يكد عمي يسمع الرد، حتى هب إلى جواده يريد أن يمتطيه، وقد تقلّد سيفه ودرعه، ورفع لواءه، وعلّق القربة بكتفه....،

... نظرتُ إلى عمتي زينب والهة، فوجدتها أكثر ولهاً مني؛.. هل لم يعد يعنيني أن عمي خارج ليطلب الماء لنا؟ هل إن قلقي عليه أشد من عطشي؟!... وصرخت:

«عمة زينب...، هذا عمي العباس....، إنه خارج...، خارج ليطلب الماء...»،

وأضفت في أعماقي: «إنه خارج...، للقتال!»

واندفعت عمتي خارجاً...، فلحقت بها، وكذلك رقية، وعمتي أم كلثوم....،

نادته عمتي بصوت مجروح:

«أخي أبا الفضل...، أنت حامي الظعينة...، أنت كفيلي...، أنت كفيل الأيامى واليتامى...، إلى أين يا أخي؟... أهكذا تترك أختك في هذه الصحراء الموحشة، بعيداً عن الدار والأهل، بين هؤلاء الظالمين؟.... إذا أنت غبت عني، فمن يكفلني يا ابن أبي؟... من يكفل سكينة ورقية؟... من يسقي الرضيع؟!... إذا أنت غبت يا عباس، فمن ينصر الحسين؟!...»

عاد إليها منكسر الطرف جاري الدمع، قبّلها في رأسها، وهو يقول:

«إنما أنا نصيره يا أختاه...، إنما أنا كفيلك يا بنت الزهراء...، ولكنه أمرني بإحضار السقاء، وها أناذا أمتثل لأمر سيدي ومولاي...، هاأنا أمضي على بركة الله...، فهلّا شيّعتِني بالدعاء؟!...»

وانثنى يريد أن يمضي بسرعة...، فاستوقفته بدوري...، وليتني ما فعلت....،

لم يكن بمقدوري أن لا أخاطبه قبل أن يمضي...، كان لدي الكثير لأقوله...، ولكني لم أجد من ذلك الكثير إلا....

كنت أعلم أنه ما كان ليفوته مخاطبة عمتي، ومخاطبتي، قبل الرحيل، لولا أنه لم يرد أن يتأخر عن موعده...، لم يرد أن يلتفت إلى الوراء.....

... ولكنه التفت إليّ، بل أجابني بعطفه المعهود، وغصة لا تنتهي:

«ما تريدين يا حبيبتي؟!»

... أقبلت عليه...، لم أجد من ذلك الكثير الذي لدي، كما قلت، سوى كلمات عابقات ببرودة الماء المقبل، والدموع:

«عمي أبوالفضل....، أرجوك يا عمي...، لا تنسني عند وصولك إلى الماء...، لا تنسَ عطشي، وعطش رقية...، وكل الأطفال...، لا تنسَ الرضيع يا عماه، فالعطش يكاد يودي به... عمي أبو الفضل...، بالله عليك، بحق أبي الحسين، وجدي علي،

وجدتي فاطمة...، تذكر عطشنا...، وعد إلينا سريعاً بالماء..، لا تتأخر يا عم....، فنحن بانتظارك!».

تنهد من الأعماق، وسبحت عيناه في أفق غير منظور، ثم هتف يجيب:

«أنتم ملء قلبي وروحي يا عزيزة الحسين، فكيف أنساكم؟!... لا كان ولا يكون!»

وربّت على رأسي بيمناه، وقبّل رأس رقية... ، ثم استعد للركوب.

ولكن...، تالله...، لكأن ركوب الجواد كان أعسر من أن يكون، فقد وصل إليه أبي الحسين...، أمسك بعضده مستوقفاً إياه، فالتفت، وإذا بوالدي يخاطبه دامع العين:

«ألا تودعني ياأبا الفضل؟!... فإن الفراق طويل!...»

... أجفل فؤادي لكلماته...، وغطيت وجهي...، ولكن نجواهما وصلت إليّ...، فقدتعانقا طويلاً،... وبكيا...، وضجّ مخيمنا من جديد بالبكاء!...

... وعدنا...، عدنا إلى الخيمة نجرر أذيالنا...، نحاول أن نزرع في عمق الظلام المحيط شعاعاً من أمل...، الأمل بإحضار الماء....، لقد أنعشت صورة الماء المقبل ذبول الأطفال...، حتى الرضيع، وكأنه أحس بقرب الفرج، فقد راح يوالي فتح عينيه

وإغلاقهما، ويخرج لسانه الصغير خارج فمه، يلتفت يمنة ويسرة، باحثاً عن مصدر الماء...، بعدما كان في تلك الآونة قد كف عن كل هذا، وأيس من الري!...

لقد هبت أمي تسوي مهد عبد الله، تهيئه لنومته، بعدما أعياها حمله وهدهدته منذ ساعات...، إن كان سيشرب، فهو لا بد سينام ملء عينيه، كما لم ينم منذ يومين!...

أما رقية، فقد جلست قبالة المهد صامتة، تراقب وجه عبد الله ولا تريم...، لقد كان الهدوء غالباً على حركاتها منذ الصباح...، لم تصرخ إلا لحظة استشهد الأكبر، ثم صمتت ولا تزال...، هي كما قلت، قد ارتقت إلى حيث لا أدري.

.... سمعنا وقع حوافر الفرس تبتعد....، لقد ابتدأت المهمة!...

وقفت عمتي زينب هذه المرة بباب الخيمة، ووقفت بإزائها...، كان والدي الحسين يقف خارجاً، ينظر إلى عمق المعركة...، وكان وجهه هو بيان الحال...، وكانت الراية المرفرفة بعيداً، تشير إلى موقعه!

.... الراية تغوص في وسط الجيش، تتمايل يميناً وشمالاً، والجيش يتماوج يميناً وشمالاً...، وتبقى مرفوعة شامخة!

وجه والدي يشرق ويشرق!....

الراية تصل إلى موضع المشرعة...، فتستقر....، لقد كشفهم عن الماء ووصل...،

ترى...، أيشرب وينسانا؟!.... كلا وحاشا...، فذاك عمي أبو الفضل...، أحسب أنه لن يذكرنا فحسب، بل هو سينسى نفسه!

... هوالآن يملأ القربة بلا ريب،

... الراية تتحرك من جديد...، إذاً...، فهو في طريقه إلينا، والماء معه!

الراية تتمايل ثانية...، ويتمايل الجيش...،

الراية لا تزال مرفوعة، ولكن وجه والدي يتغير...، عمتي زينب تسأله ملهوفة:

«أخي...، ما الخبر؟!»

ويأتي الجواب:

«لقد قطعوا عليه الطريق!»

تتسمر عيناي على الراية الخفاقة...، وإذا بوجه والدي ينخطف لونه...، تسأل عمتي بخوف أكبر، ويأتيها الجواب، يقطر حسرة:

«أخية زينب...، لقد قطعوا يمين العباس!»

أمسك قلبي لكي لا يفر، كما فرت الدمعة من عيني، والزفرة من كبدي...، وتلهج عمتي وهي تضرب كفاً بكف:

«لا حول ولا قوة إلا بالله!»

الراية لا تزال مرفوعة...، لتتهاوى فجأة...، وتتهاوى قلوبنا...، وينكسف وجه أبي كشمس أُطفئ نورها، ويجيب بلا سؤال:

«لقد قطعوا شمال العباس!»

.... ثم يهب، يتوجه إلى جواده وهو يزأر كالليث الغضبان...، تستوقفه عمتي زينب بسؤال مفجوع:

«أخي أبا عبد الله...، ما النبأ الأفظع؟!»

فيجيبها...، يرتفع صوته فوق جحافل الجيش التي انقضّت علينا دفعة واحدة:

«أخية زينب...، لقد سقط العباس!»

.... ويستمد من عظيم مصابه عظمة وعزماً بغير حدود، فيدفع بكله الجيش الذي هجم بكله، وقد ظن أن سقوط الراية وحاملها يعني سقوط الحق....،

وتفرق الجيش، تقهقر وانهزم بين يديه، وقد ارتفع زئيره...، كان أسداً جريحاً قد انتهك عرينه، وكانوا ضباعاً قد تحلّبت أفواهها من دماء الأبرياء الأتقياء النجباء...، وكان يراهم على صورتهم، فينزل بهم ما يستحقون!

وتقهقروا...، وتقدم إلى حيث يريد!

.... استندت إلى جانب الخيمة، وأنا أرى كل هذا، فسقطت!

أردت أن أتحامل على نفسي...، أن أسند عمتي الملتاعة، ولكنني لم أستطع...، كان قلبي قد فر من بين أضلعي...، لم أعد أشعر بشيء....، حتى رقية، التي كنت دائماً أرى نفسي مسؤولة عنها، لم أعد أراها...،

كانت إلى جانبي تحاول أن تفهم، أو أن تسألني، ولكنني لم أعد أرَاها!

ظللت على حالي أمداً لا أعرف قدره...، لم أعد أرى شيئاً، حتى.... لمحت في المدى، صورته...، انصرفت نحوه، وأنا لا أرى سواه...،

ولكن...، رباه...، كدت لا أعرف والدي، هو يتقدم من بعيد...، للمرة الأولى في حياتي، أرى والدي يمشي هكذا:.... لم يكن وحده فقط...، لم يكن يمشي الهوينا فحسب...، بل كان محني الظهر منكس الرأس، يسند ظهره بيده، ويمسح دموعه بكمه...، ويجر فرسه خلفه...،

صرخنا صرخة واحدة...، عدَونا نحوه، كباراً وصغاراً، نسوة وأطفالاً، نسأله عما هناك...،

لم يجب...، بل تجاوزنا جميعاً...، وتوجه إلى خيمة عمي العباس، فأسقط عمادها، وجلس على وجه الأرض ينتحب!...

نظرت إليه، إلى عمتي أم كلثوم، إلى عمتي زينب...، أردت أن يخبرني أحد ما بأن ما أراه لا يجري، وأن ما أظنه لم يحدث، ولكن منظر والدي، ونداء عماتي، حوّل رعبي إلى هلع، وشكّي إلى يقين، ودموعي المنسابة وحدها إلى عويل...، وسقطت مغمىً عليّ وصوت عمتيّ يهز أعماقي بدويّ دفين:

«واأخاه،.... واعباساه...، واضيعتنا بعدك يا أبا الفضل!»

❋ ❋ ❋

... أفقت بعد حين...، لأجد رأسي في حضن أمي، دموعها تنسكب فوق وجهي، وهي لا تزال حاملة أخي الرضيع، تنظر إليه تارة، وإليّ أخرى...،

أجل يا أماه...، لقد ذهب ساقي العطاشى، وبقي العطش...، ذهب حامل الراية، وبقي الحق...، لقد تمزقت راية الحق يا أماه، وتمزقت قبلها أوصاله...، لقد انسكب ماء القربة فوق الرمال، وانسكبت معه دماؤه...، كان يمكن أن يستعيض عن القربة بكفيه، يسقينا بهما زلال الماء كما تعوّد، ولكن، حتى كفاه ما بقيتا، بل تطايرتا في سماء الحق، فهما أسمى من أن تنطرحا فوق الأديم....، كفان قبّلهما أمير المؤمنين...، وحملا الماء منذ الصغر، لسبط النبي الأمين...، كان جديراً بتينك الكفين أن ترقيا إلى عليين!....

لقد سقط السقّاء يا أماه، وما سقانا!...

... وأقبلت نحوي رقية...، لقد خرجت عن صمتها، ولكن عينيها كانتا تجولان في البعيد، وسألت:

«هل تركنا عمنا العباس أيضاً يا سكينة؟... هل ذهب إلى جدنا المصطفى فسقاه، وتركنا ها هنا عطاشى؟!».

لم أستطع أن أجيب، بل رحت أرتعد ارتعاداً...،

ولكنني، رغم ارتعادي، استطعت أن أسمع ما كان يدور بين شهقات عمتي زينب المنتحبة، وزفرات والدي الحسين الملتهبة:

«أخي أبا عبد الله...، لِمَ لم تعد به إلى المخيم؟!... لقد عدت بكل الأبناء وبقية الآباء، فكيف تركت قمر العشيرة وحده في ذلك المكان البعيد؟!».

«أردت ذلك يا أختاه، ولكنه رجاني أن لا أفعل...»،

«ولِمَ... ؟!»

... فشهق أبي باكياً،،، ومع دموعه كان يجري الجواب:

«... لأنه لم يستطع إيصال الماء...، وهو ما تعود أن يعود خالي الوفاض...، كان صعباً عليه وعلينا، أن يعود لنرثيه، بدل أن يعود ليسقينا!...»

... أطلقت من قلبي المفطور آهة جديدة، حمّلتها كل ندمي؛... أنا التي سألته أن لا ينسانا، وقلت له أننا بانتظار رجوعه...،

ليتك عدت يا عماه...، بماء أو بلا ماء فلا فرق...، إن رؤية وجهك ريّ لقلوبنا، فما الحاجة إلى الماء؟!...

... لم يستوقفني، ولم يضع حداً لانفعالي وارتعادي، الذي عجزت عن السيطرة عليه، غير صوت أمي، ومنظر رقية...، أما أمي، فقد كان صوتها غائباً عن سمعي طيلة تلك المدة، ولا يحضرني سوى شهيق بكائها...، لقد همست تقول:

«لهفي عليك يا أبا عبد الله، الآن أصبحت وحيداً حقاً، بلا ناصر ولا معين!»

وأما رقية...، فقد كان منظرها يثير القلق حقاً...، كانت ترتعد كإياي، ولكنها كانت تنتفض بشدة...، وتسحّ الدموع من مقلتيها الغائرتين...،

كان لا بد من السيطرة...،

أقبلت نحو رقية...، ضممتها، ورحت أغسل وجهها الشاحب بفيض عينيّ، وأحيطها بذراعيّ، المرتعدين كإياها...، لم أدرِ أيّنا كانت ستهدئ الأخرى...، ولكنني الأكبر سناً، الأكثر قدرة على الاحتمال، ربما،... وإن كان ما جرى حتى الآن يفوق الاحتمال!

... ها نحن الآن، بعد مضيّ عمنا عنا...، قد خلا المعسكر من الحماة...،

ها إن سباع الصحراءتحيط بنا، ولا من يذودها عنا...،

صحيح أن والدي الحسين، المفجوع بقتل أخيه، وقبله أولاده وإخوته، وأبناء عمه وصحبه...،

صحيح أن والدي، حجة الله على أهل هذه الدنيا الدنية...، أنه لا يزال بيننا، بل حولنا، فوقنا وأمامنا، وعن يميننا وشمالنا...، لم يغب لحظة...، إنه لا يزال يحوطنا بحمايته...، ولكن خط الدفاع الأخير قد تهاوى،

عمي العباس، عسكر الحسين وصاحب رايته...، لقد تهاوى...، ولم يبقَ بين العدو وبيننا سوى.....

رباه، إن والدي الحسين هو حجة الله في أرضه، وشمسه التي أنارها لعباده لكي يستضيئوا بها فيخرجهم من الظلمات إلى النور...، ولا يمكن لهؤلاء اللئام إطفاء نور الشمس!...

إنهم بلا ريب سيحترقون...،

لقد نالوا منا...، وقتلوا أحب أهلنا، ولكنهم لن يستطيعوا أن يطفئوا نور الله... أبداً!

.... هدّأتني الفكرة...، فبثثتها في أذن رقية، وملأت بها قلبها المرعوب الملتاع، طمأنينة من نوع جديد، فيها الكثير من الحزن والأسى، ولكن، ليس فيها شيء من اليأس والقنوط!...

كـربـلاء،

عصر العاشر من المحرم،

سنة إحدى وستين للهجرة

رباه...، أوليس للبلاء حدود؟!...

إن ما ذرفناه من دموع يكفي لرثاء الدهر. وما أطلقناه من آهات وصرخات تكفي لتملأ أسماع الزمن منذ آدم إلى يوم القيامة. فهل فوق ما نحن فيه بلاء؟!...

أنا لا أطرحه سؤالاً، بل صرخة ذهول...، ولكن، لعل الجواب حاضر في المدى ينتظر...، هذا ما شعرت به، وأنا أشخص بعينيّ نحو الجيش الممتد أمامنا كبحر من حميم، انتصبت فيه أشجار الزقوم، وراحت الشياطين تتقلب على جمر يستعر.

كلا، ليس الخندق الممتلئ ناراً خلف مخيمنا هو سبب هذه الصورة، فالنار خلفنا أشعلها والدي عند بدء القتال ليحمي بها ظهورنا، فلا يأتينا العدو إلا من وجه واحد...، ولكنها النار التي تضطرم في قلوب القوم تجاهنا...، وإلا، فكيف يقف حجة الله أمام بشر يدّعون أنهم أمة جده، ويخاطبهم، بعدما أثكلوه بفقد كل

أحبته، ليس اليوم فحسب، بل منذ ولد حتى الساعة...، وهو مع ذلك يرقى فوق كل أحزانه وآلامه...، يخاطبهم...، يستصرخ نأمة الخير، إن وجدت، في وجدانهم...، فإذا العيون المظلمة تأبى رؤية النور، وتنكفئ إلى العتمة التي ألفتها، لتتخبط في دجاها بغير هدىً، وتتخبط...، ويبقى عليهم مشفقاً...، أن يلقوا الله بدمه فيكونوا من الخاسرين!...

أبتاه...، أي نور أنت...، أي عشق لا يعرف الكره، وأي رحمة لا تعرف الحقد...، أي كمال أنت!... حتى هؤلاء العتاة الكفرة، تشفق عليهم يا بحر العطاء اللامتناهي؟!...

هو ذا صوتك يصعد إلى سدرة المنتهى، ثم يهبط إليهم، وهم في الدرك الأسفل، فلا يسمعون ولا يفقهون حديثاً...، ويتردد الصدى، فقط ليكون سجلاً في فضاء الأيام الخالدة:

«أناشدكم الله...، أتعرفون من أكون؟... ألست ابن بنت نبيكم وابن وصيه؟... أليس محمد رسول الله جدي؟... أليس حيدر الكرار أبي؟... أليست فاطمة الزهراء أمي؟... أليس جعفر الطيار في الجنة بجناحين عمي؟... أليس حمزة سيد الشهداء عم أبي؟... أليس أبي أول القوم إسلاماً وأعظمهم إيماناً وأكثرهم علماً وحلماً؟... ألم يقل جدي رسول الله فيّ وفي أخي «هذان سيدا شباب أهل الجنة»؟...»

... ويجيب كل منافق رعديد، صلف جبار عنيد، أنه يعلم

هذا ولا ينكره...، فيسألهم أبي، بصوت مدوٍّ في ضمير الكون من جديد:

«إذاً...، فبِمَ تستحلون دمي؟!...»

... وتمحل القلوب من الإدراك...، والألسنة تعيى عن الجواب...،

أبتاه...، لعمري لقد بلّغت ووفيت، وهم دون ما بلّغت مجرمون...، يعلمون جرمهم ولا يأبهون...، إنهم قوم صم بكم في طغيانهم يعمهون...، ولكنك تثبّت الحجة، وتعمّق البرهان، لا لهم، بل لمن بعدهم...، إلى يوم يبعثون!.

❋ ❋ ❋

... أبتاه...، ومعذرة إليك إذ تماديت في وصف أحزاننا، ولم أفِ أحزانك بعض حقها..،

إيه يا أبا الأحزان....،

لقد ابتُلينا...، وما ابتُلي قوم كما ابتُلينا، كل واحدة بفقد ولد أو زوج أو أخ، أو ربما أكثر.

أما أنت، فكل فرد سقط كان فلذة من فؤادك، فهم جميعاً أبناؤك، شيوخهم وشبابهم...، ولا أبالغ!

حتى أولئك الذين خرجوا عليك، ثم أدركتهم رحمة الله فتابوا إلى ربهم وأنابوا، وعادوا إليك، كالحر الرياحي ويزيد

الكندي، لقد كنت تدعو لهم متضرعاً، وتقف على مصرعهم باكياً متلوّعاً..،

أبتاه...، كلهم قد اتخذوا أجسادهم مرقاة للجنان، كما قالت عزيزتي حميدة، وكانت قلوبهم متعلّقة بشعاع قدسك، وعيونهم شاخصة إلى ضياء عينيك، تستلهم القوة من شموخ روحك السامية...، فبرزوا وأبلوا بلاء حسناً، وجاهدوا ظامئين إلى قطرة ماء، مرتوين من بحر الجود، حتى سقاهم المصطفى والمرتضى من عذب الكوثر المرصود...، كلهم فدوك بأعز ما يملكون، بأرواحهم، فحق لهم أن يكونوا نجوماً تسبح في سمائك...، وحق لك أن تبكيهم بالدمع والدم...، تماماً كأنهم أبناؤك!...

... وها أنت...،

بكيتهم واحداً واحداً...، وكانت دموعك الطاهرة وسام بطولاتهم...، كلما فاضت أكثر، كانت منزلتهم أرفع!

وارتفع نحيبك على عدد منهم...، أولئك المختارين، الأرفع درجة، والأعلى رتبة...، شأن أخي الحبيب، علي الأكبر، وابن عمي القاسم...، وعمي المؤثر لك على نفسه، أبي الفضل العباس...،

لقد اشتد بكائي، إن كان له أن يشتد أكثر، وتجددت أحزاني التي لم تبلَ بعد، إذ علمت قبل قليل بأمر خفِيَ عني!

سألت نفسي، وأنا لا زلت أغسل قلبي بدموعي، التي

عجبت مراراً كيف لم تجفّ بعد، رغم جفاف الحلق واللسان...، كنت أنظر إلى أخي الرضيع، الذي استلقى على ساعد أمي بلا حول ولا قوة، وهو قاب قوسين أو أدنى من الموت عطشاً...، وإلى أختي رقية، التي كانت تحدّق فيه مذهولة، قد تشققت شفتاها ظمأ، وراحت عيناها تجودان بدمع شحيح...، وسألت عمتي زينب، التي جلست بيننا، شاخصة العينين نحو السماء، وكأنها تقرأ أسفار الغيب:

«عمتي...، هل تظنين أن عمي العباس قد شرب الماء عند وصوله إلى المشرعة؟... أتمنى من كل قلبي أن يكون قد فعل، فقد كان أشدنا ظمأ، ومع ذلك لم يشكُ قط...، كان دائماً يفكر بظمئنا نحن...، ونحن، كنا نفكر بريه، لا بظمئه!»

تأوّهت عمتي من الأعماق وهي تستردّ نظرها السابح بعيداً، لترمي به صوب النهر، حيث عمي العباس لا يزال راقداً، وأنّت أنّة طويلة وهي تجيب:

«بل إنه لم يشرب...، إن أبا الفضل ما كان ليشرب الماء وأخوه الحسين ظمآن...، أعلم أنه لم يشرب!»

علمت أنها على حق، فتعاظم وجدي وحزني، وتمنيت الموت، على أن أكون قد أوصيته بما أوصيت...، وصيتي له حالت دون عودته إلينا، ووصيتي له حالت بينه وبين شرب الماء!...»

... وأطلقت عمتي زفرة طويلة، وهي تجيبني على سؤال لم أطرحه:

«لا تلومي نفسك يا سكينة...، إن عمك كان ليفعل كل ذلك، ولو لم توصه بشيء...، فذاك هو عمك العباس، وذاك هو إيمانه ويقينه!...»

وقاطعنا صوت والدي، القادم من خيمة أخي العليل...، كان حتى تلك اللحظة يوصيه بوصاياه...، ثم ارتفع صوته من أمام خيمته ينادي:

«ألا من يقدّم لي جوادي وأنا ابن رسول الله؟!... ألا من يقدم لي لامة حربي وأنا ابن أمير المؤمنين؟!...»

... وما أسرع ما طرنا إليه...، ولكن رقية، ولشدة عجبي، تقاعست...، لم تخرج إليه...، بل ضمت شفتيها الجافتين، وكأنما كانت تغالب البكاء، ودفنت وجهها في سرير عبد الله، وظلت مكانها!

أما عمتي زينب، فقد نهجت سبيلاً آخر...، عجبتُ لها، ولكن عجبي لم يطل...، فسرعان ما أقبلت، لتلبي نداء والدي حقاً...، كانت تجيبه إلى طلبه...، كانت تقوم بدور كفيلها...، تجرّ الجواد وهي تزفر وتقول:

«ما أجلدني وأقسى قلبي...، أي أخت تقود إلى أخيها جواد المنية؟!»

وكان أبي واقفاً قرب باب الخيمة، فهبطنا عليه كالفراش يترامى إلى مصدر النور...، لم نكن وحدنا...، بل إن نساء المخيم كله، ثمانين امرأة، وأطفاله كله، ما يفوق الستين...، كلنا وقفنا، وارتمينا عنده، نقبّل قدميه، نتمسك بردائه، ونصرخ بصوت واحد:

«إلى أين يا حمانا؟!... إلى أين يا رجانا؟!...»

عجبت كيف استطاع الوقوف بيننا هادئاً، دون أن تأخذه العبرة، وأنا أعرف حنانه اللامحدود...، ولكن، لعله كان يرى أموراً أخرى.

... ثم إنه امتطى جواده...، فارتفعت أصوات نحيبنا أكثر....

كانت نظرته الهادئة قد هدأت أكثر، ووجهه المشرق قد ازداد إشراقاً...، كانت الجذوة المقدّسة تزداد اضطراماً قبيل الانصهار،ربما لتذوب بعد ذلك في سماء العشق الإلهي اللانهائي.

.... نظرته النافذة إلى عمق الأعماق كانت تستعرضنا، تخاطب كلّنا وتقوّينا...، توصينا وتترك فينا خلاصة الروح، وتهدئ روعنا.

وقع نظره على حميدة، كانت تلتصق بأمها، وتخبئ وجهها بثوبها...، ناداها، فأقبلت، لا ترفع عينيها إليه...، رفعها، أجلسهاعلى الجواد أمامه، وراح يسألها:

«بنية حميدة...، ما تريدين؟!.. ما تشتهين؟!»

نظرت حميدة إليه، وتنهدت تقول:

«أي خالي...، أي سيدي أبا عبد الله...، أنا عطشانة...، أريد ماءً...، لقد ذهب أخي عبد الله ليأتيني بالماء فلم يرجع، وخالي العباس أيضاً، أخبرته بعطشي، فوعدني بالماء، ولكنه لم يرجع...، كل من يذهب لا يعود يا خالي.»

«بنية حميدة...، أنا ماضٍ إلى أخيك وخالك، وسأخبرهم بعطشك».

«أي خالي...، تمضي وتخبرهم ويأتون إليّ؟!... هذه مدة...، إحملني معك إليهم فيسقوني!»

اختنق أبي بعبرته وهو يقول:

«بنية...، إذا أنا أخذتك، فمن الذي يردك إلى الخيمة؟!»

... ارتفع صوت عمتي زينب، تهيب بحميدة أن تنزل...، وتسلمها إلى أمها التي تلقفتها وهي تجهش بالبكاء...، فبكت حميدة وسألت:

«أماه...، خالي الحسين ذاهب عنا...، أماه...، هل سيعود...، أم سيغيب هو أيضاً كما غاب الآخرون؟... أماه...، إن أبي في الجنة، أبي لم أعد أراه، وخالي الحسين قال لي أنا أبوك...، فهل سأفقد أبي مرتين؟!...»

لم أعد أطيق ما أسمع...، استعرت أحشائي...، تململت واضطرب فؤادي الذي كنت أحاول تهدئته...، ولكن صوت والدي الذي ارتفع في تلك اللحظة أيقظ صبري، وأرسل في كياني هدوءاً

وسكوناً لم أكن أنتظرهما...، حين هتف فجأة يسأل، بصوت ذكّرني بأيام المدينة:

«أين حبيبتي رقية؟... أين شبيهة أمي فاطمة؟»

.... هرعت عمتي زينب كعادتها، تلبي نداء والدي، هرعت إلى داخل الخيمة لتأتي برقية...،

للمرة الأولى...، لم تندفع رقية نحو والدي، بل هي لاذت بثوب عمتي منكسرة دامعة العين...، هبّ والدي يترجل عن جواده، وينزل إليها...، يضمها ويمسح دمعها ويقول:

«أهكذا يا رقية...، أأرحل فلا تودعينني؟... ألا يعز عليك رحيلي؟»

شهقت رقية بدمعها، وهي تدفن وجهها في صدره وتقول:

«أبتاه...، كل من أودعهم لا يعودون...، أخي علي، ابن عمي القاسم، خالي العباس، كلهم لم يعودوا...،واخشى إن أنا ودعتك أن لا تعود...، أبتاه...، أرجوك لا تتركني...، عدني بأنك ستعود!»

مسح أبي دمعها، وهمس في أذنها بكلمات لم أسمعها...، فهدأت وتطلّق وجهها، وتورّدت وجنتاها الشاحبتان...، وأفلتت عنقه الذي كانت تطوّقه بكلتي يديها...، وتباعدت، وهي لا تفتأ تنظر إليه، وتبتسم...، ربما بحزن ووجل، ولكنها كانت تبتسم على كل حال.

لم أدرِ ماذا قال والدي لرقية، ولكن المشهد ذكّرني بقصة جدتي فاطمة، وأبيها رسول الله ﷺ، يوم أسرّ إليها في مرضه، فبكت، وأسرّ إليها، فضحكت....، ترى...، هل هو سرٌ كسرّ جدتي فاطمة؟!...

... وارتقى والدي جواده من جديد، وتهيأ للرحيل...، فصرختُ ملهوفة:

«أبتاه...، كأنك استسلمت للموت!»

... نظر إليّ طويلاً، ثم ألوى عنان جواده ومضى متمهلاً وهو يقول:

«... كيف لا يستسلم للموت يابنتاه، من لا ناصر له ولا معين؟!»

كان يبتعد رويداً رويداً...، شعرت بأنفاسي تتخبط، عدت ألحق به صارخة من جديد:

«أبتاه...، إذاً...، ردنا إلى حرم جدنا رسول الله!»

سمعت صوته ينساب نحوي مع تموجات الرياح:

«هيهات يا بنتاه...، لو تُرك القطا لغفا ونام!»...

أسرعت خطوي وأنا أراه يبتعد أكثر...، شعرت بأن روحي تكاد تفارق جسدي...، ورفعت صوتي أكثر، وأنا أقول متوسلة:

«إذاً، أبتاه...، إنزل عن ظهر جوادك، أرجوك يا أبي...، أنا عزيزتك سكينة، بحقي عليك إنزل هنيهة!»

كنت أعلم أنه لن يردني خائبة، رغم غرابة المطلب...، لقد توقف، وترجل...، عدت أتوسل من جديد:

«أبتاه...، إجلس على وجه الأرض!»

واستجاب لرجائي ثانية فجلس...، ركعت أمامه..، أمسكت بكفه المقدسة، تذكرت قول ذلك السائل، فاستعبرت، ووضعت كفه على رأسي وأنا أنظرفي وجهه، أتزود آخر الزاد!...

تحادرت دموعه على خديه وهو يضمني إلى قلبه، ويمسح على رأسي ويقول:

«سيطول بعدي يا سكينة فاعلمي منك البكاء إذا الحمام دهاني
لا تحرقي قلبي بدمعك حسرةً ما دام مني الروح في جثماني
فإذا قتلتُ فانت أولى بالذي تأتينه يا خيرة النسوانِ»

رباه، لقد نعى أبي إلينا نفسه...، فيا أرض انخسفي...، ويا شمس انكسفي...، ويا سماء أمطري ناراً وحجارة من سجيل...، وكيف لا تفعلين؟!... وهل كعبة إبراهيم أعز على الله من كعبة المصطفى؟

كلا، ولكن كعبة المصطفى رفض الطير الأبابيل، ورفض نصر الدنيا، واستبدله بنصر الآخرة...، لقد اختار ان يكون كبش الفداء، ورفض أن يُفتدى بكبش سمين...، لقد اختار لقاء الله، على كل ماعداه...، وسألني قبل أن يتركني من جديد:

«بنية سكينة...، لِمَ لم تودعيني هناك؟»

أطرقت برأسي، وأجبت، ودموع قلبي تفيض بكل ما أحمله، منذ بدأ يوم المصاب حتى الساعة:

«لم أشأ أن أودعك أمام اليتامى...، خشيت أن أجرح قلوبهم، لأن جرحي تأخر عن جراحهم قليلاً».

مسح والدي على رأسي ثانية...، كأنه يؤكد ظني، أو ربما يباركني.

ثم انطلق مبتعداً، وانطلق صوته باتجاه القوم، وهو يعود إليهم:

«ألا من ذاب يذب عن حرم رسول الله؟! ألا من ناصر ينصرنا؟!

... وأتانا صوت ضعيف من داخل الخيمة..، كان صوت أخي علي السجاد، يدعو عمتي زينب...،

هبت عمتي إليه...،

لم تمضِ لحظات إلا ورأيناه يقف على باب الخيمة متخاذلاً عن الوقوف، قد تقلد سيفه، وأقبل يتوكأ على عصاه، وعمتي زينب تتبعه قائلة بحرقة:

«يا ابن أخي إرجع...، ناشدتك أن ترجع!»

... هب والدي يعود إليه بلهفة...، يسأله عما يريد بلوعة...، فأجاب علي، وهو يتحامل على نفسه ليبقى واقفاً من فرط علته:

«أجاهد بين يديك يا أبتاه...، فما بي طاقة على الرقود بعد...، أنت تستصرخ الناصر، فكيف لا أجيب؟!...»

وارتفعت أصوات من البعيد تتصارخ، تتداعى للهجوم...،

فتراكضنا نحو الخيام، وسمعت أبي يهتف بعمتي زينب، وهو يتوجه صوب الميدان:

«أخية زينب...، إحبسيه...، إحبسيه لكي لا تخلو الأرض من حجة!»

ويلاه...، وهل ستخلو الأرض منك يا والدي؟...

لقد سمعت منك فيما مضى، أن الأرض إذا خلت من حجة، ساخت بأهلها...،

ويلاه...، وما تفعل الأرض إذا اعتدى أهلها على حجتهم، وقتلوا أصحابه وأبناءه وإخوته...، ثم قتلو... ه!... ؟!

ويحي...، لا أستطيع قولها...، لا أستطيع أن أخطها بيميني، ولا بأنفاسي، ولا حتى بدمائي!...

ها نحن نعود إلى الخيام منكسرات...، نجر أذيالنا، ونمسح دمعاً، لنذرف سواقي من دموع.

.... وها عمتي زينب، بعدما أعادت علياً إلى خيمته، قد انكفأت نحونا تجمعنا...، ها هي تتوقف فجأة، وكأنما هي قد تذكرت أمراً.

... وتعود راكضة باتجاه الميدان، حيث اتجه والدي...، تناديه، وتستوقفه، مرة أخرى!

ويتوقف أبي، أراقبهما خلف غلائل الدموع...، ينزل من على ظهر جواده، مرة أخرى...، تقترب منه عمتي، تقبّله في نحره، وتشمّه في صدره، ثم توجه وجهها صوب المدينة صارخة:

«أماه يا زهراء، لقد استُرجعت الوديعة!»

ويسألها والدي:

«أخية..، وما الوديعة؟»

وتجيبه، وقد لاح في الأفق باب جدتي فاطمة، وانتصبت الأسنة كلها لتؤاخي المسمار، وانطرحت فوق الرمال دماء عمي المحسن:

«أخي أبا عبد الله...، إنه لمادنت الوفاة من أمنا فاطمة، دعتني إليها...، قبلتني في نحري، وشمتني في صدري، وقالت: «بنية زينب، هذه وديعتي عندك، فإذا رأيت أخاك الحسين في كربلاء وحيداً فريداً، قبليه في نحره، فهو موضع السيوف، وشميه في صدره، فهو موضع حوافر الخيول....»،

ما عاد يسعفني سمعي لأسمع بعد، فصوت النحيب طغى على كل ما عداه...، وصوت جحافل الجيش تتصارخ للقتال.

... وعادت عمتي إلينا...، أما أبي، فقد اتجه نحو العسكر المطل عليه مكشراً عن أنياب الغدر والخيانة، ورفع صوته الداعي ثانية...، وقد أراد أن يثبّت الحجة الأخيرة:

«ألا من مغيث يغيثنا...، ألا من موحد يخاف الله فينا...، ألا من ناصر ينصرنا؟!»

... لم يجبه سوى صوت الجيوش الهادرة تتهيأ للهجوم...، وسوى صوت، كان قد خفت منذ أمد،

... كان صوت أخي عبد الله....،

التفتت أمي فزعة، ضمته بلهفة وهي تنظر إلى عمتي زينب، ورفعت رقية رأسها عن المهد لتنظر بعينين زائغتين، فتراقب ما يجري....

هبت عمتي، تناولت الرضيع من أمي، وقد عزمت على أمر، لفته بعباءتها وخرجت...، تابعتها بناظري، فرأيتها تسعى إلى والدي، الذي كان لا يزال على مقربة، وتناوله له، وتسأله أن يطلب له شربة من الماء، لعل القوم يرحمون صغر سنه، فيسقونه!...

هرعت رقية تريد أن تلحق بعبد الله، فحبستها، تململت بين ذراعي وهي تئن وتقول:

«أختاه...، هذا أخي عبد الله سيشرب، لعل ما يبقى من الماء يرطب لساني، ويبرد غليلي، أرجوك يا أختاه، دعيني أذهب معه!»

... لا أدري ما الذي حملني على التمسك برقية إلى تلك الدرجة، ربما أكثر من أي مرة أخرى، لم يكن بوسعي تركها.....، ولم يمضِ وقت طويل، حتى سمعنا صوت الجيش في الخارج يصخب ويهدر...، ثم سكن كل شيء فجأة...، ولم تمضِ لحظات، حتى عادت عمتي زينب...، كان وجهها متغيراً...، وقد اعتصر ملامحها ألم شديد، وراحت تمسح دمعاً، لم يكن بيدها إطلاقه...، سألتها:

«عمة زينب، أين أخي عبد الله؟... هل شرب الماء؟...»

... أفلتتني رقية، واندفعت نحو عمتي، التي كانت تخفي شيئاً تحت ردائها، فأزاحتها عمتي برفق، وتابعت طريقها إلى وسط الخيمة، دون أن ترد علينا...، لقد توجهت نحو أمي، نظرت إليها بعطف ودموعها لا تزال تجري، وقالت:

«رباب، ما ترين في هذا اليوم؟!»

أجابت أمي مدهوشة:

«سيدتي...، لِمَ تسألين؟... أرأيت يوماً أفجع من هذا؟!»

عادت عمتي تسألها:

«رباب...، أرأيت كم شهيداً سقط اليوم؟... أرأيت كم فقدنا من شيخ وكهل ومن ولد وشاب؟... أرأيت إلى القاسم، إلى عبد الله بن مسلم، إلى عونٍ ومحمد، ... إلى علي الأكبر...، إلى أبي الفضل العباس؟!...»

صرخت أمي وقد استشعر فؤادها الشر:

«سيدتي، يا بنت الزهراء...، ماذا تقولين؟!... أين ولدي عبد الله؟...»

وتسلل سؤال جديد من بين شفتيها الذاهلتين:

«هل لحق ولدي بإخوته وأعمامه؟»

... أخرجت عمتي، ويداها ترتجفان، شيئاً من تحت عباءتها...، نظرنا ذاهلين...، لقد كان أخي عبد الله، مذبوحاً من الوريد إلى الوريد!...

تلويتُ ألماً... تساقطتُ كقطرة دمعٍ ذرفتها عيون والدي الحسين، وكزفرةٍ أطلقها قلبه المكلوم،... ونظرتُ إلى رقية، التي تسمرت في مكانها مصعوقة، وتسمر ناظراها على عبد الله، وإلى أمي التي راحت تنظر حائرة غير مصدقة، ثم مدت يديها المتراخيتين، لتتلقى شهيدها، ودموعها تجري، وشهقاتها تتوالى دون توقف...،

وصرخت رقية صرخة عظمى، وسقطت مغشياً عليها!...

... ارتفع صوت أمي بالندب والعويل:

«واعبد الله...، واهاً لنحرك المواسي لنحر الحسين...،

واإسماعيلاه...، واهاً لذبيح لم يُفدَ بكبش سمين...، بل كان هو كبش الفداء..،

واقلة ناصراه...، لقد لبيت يا ولدي نداء المظلوم، فكنت ناصراً لسبط الرسول الأمين...،

... لقد تمنيتك شهيداً وفادياً للحسين، ولكن لعمري، لقد بكرت الرحيل، وما ظننتك ترحل قبل أوان الربيع...، واعبد الله....»

كان المهد لا يزال بانتظاره.....،.، وكذلك رقية...،

ولكن المهد خلا، وكذلك ذراعي أمي وفؤاد رقية...، لقد أيقظتها عمتي زينب، وجعلتها في حجرها وراحت تواسيها....

أما أنا...، فقد جلست بالقرب بعدما تساقطت،... وهدأت هدوءاً عجيباً...، صرت أنظر تارة إلى أمي، التي سجّت الجسد الصغير الدامي على ركبتيها، وراحت تضمه وتندبه، وتارة إلى رقية، التي استكانت في حضن عمتي، وراحت تنتفض بين الفينة والفينة، وتارة أنظر إلى السماء، متفحصة متعجبة، كيف لا تزال في مكانها، وقد جرى علينا كل ما جرى!...

كان هدوئي غريباً، حتى أنا استغربته...، لعله كان هدوء ما قبل العاصفة...، أجل...، لقد كان هدوء ما قبل العاصفة!...

... وما أقول بعد؟!...

أأقف على التل من جديد، لأرثي وأندب، أم لأنشد وأفتخر؟!...

لقد رثيت وندبت حتى كلّ لساني وتورمت عيناي من ذرف الدموع، وأوداجي من النحيب..، إذاً، فلأنظر إلى خارج الخيمة، فما بداخلها قد أعياني...، يكاد يخنقني ويزهق أنفاسي....

فلأنظر ولأرَ ما هناك...،

رباه...، إن ما أراه الآن لا يوحي بالرثاء بل بالفخر...، ولكن ويحي، فبِمَ أفتخر؟!...

أأفتخر بما أرى من بطولات والدي؟!...

وهل هنا مجال الفخر؟... وهل في بطولات والدي من شك؟!...

... ليس والدي بطلاً لأنه اجتاح أعماق الجيش وقلب ميمنته على ميسرته، وهو قد فعل!

... ليس بطلاً لأنه جندل الأبطال ونازل الفرسان، فلم يثنّ لأحد ضربة، بل كانت ضربته لكلهم واحدة، وهو قد فعل!

... ليس... وليس....

ليس أبي بطلاً لأنه فعل كل هذا...، بل إن أبي هو سيد

الأبطال...، لأنه لم ينهزم أمام خطوب تهدّ الطود الأشم، ولم ينكسر رغم كل ما رماه به الدهر...،

لم يضعف لمقتل أصحابه...، لم يتهاوَ لمقتل أبنائه وإخوته...، لم يتدكدك لمنحر رضيعه بين يديه!...

أواه...، لقد انكسر قلبه، وسالت عبرته مراراً...، ولكنه لم ينهزم...، بل ازداد قوة ويقيناً وصبراً جميلاً...، فتألق محياه بالنور فوق ما كان يتألق، وازداد بطولة وإصراراً وعزيمة!

لله درك يا ابن الزهراء...، لله درك يا سيد الأبطال!...

... ها هم أولاء يتململون من حد سيفك، فيهربون ويتصارخون، وينهزمون كالذباب بين يديك، ولا عجب...، فأنت ابن علي المرتضى، وأنت اليوم الضارب بذي الفقار، وضربة ذي الفقار قد عادلت يوم الأحزاب عمل الثقلين إلى يوم القيامة...، واليوم، كلا الثقلين في خطر؛ كتاب الله قد ضيّعه هؤلاء، وعترة الرسول قد انتهكوها...،

أبتاه!... ها هم يتآمرون بك ليقهروك، وهم بغير فعل الغدر والجبن لا يقدرون، وذاك الأجدر بهم...،

أي والدي...،

أراهم يتآمرون ليمكروا بك، ولكنك لهم بالمرصاد!

ولما أرى بطولاتك واكتساحك الميدان وانهزامهم بين يديك، أعتز وأتقوى على ما بي...،

ولكن لما أراك تغيب بينهم أقلق، وأنتظر، وأعد اللحظات...، أجلس قرب باب الخيمة، أنتظر!...

... وتغوص في لجة الميدان ثم تعود، وأنت تردد: «لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم...، إنا لله وإنا إليه راجعون».

... لمرات ثلاث، أراك تملأ الأرض من قتلاهم، وينحسرون أمام هجماتك، ككثبان رمل تتطاير أمام الريح العاصفة...، وفي المرة الرابعة، تغوص وتذهب إلى العمق، فلا أعود أراك.

ويطول غيابك، أستجمع كل أحزاني السابقة، فأجدها ذرة أمام قلقي العاصف المشبوب...، ويتعاظم القلق أكثرمع تعاظم المدة...،

رباه...، أين أنت يا رجانا؟... أين أنت يا حمانا؟!

وكأني ببعض الخيل تهجم علينا...، ألتجئ إلى عمتي، وترتفع أصواتنا بالصراخ...،

ويأتي صوت عبر المدى، والقلب، لا أنكره، صوت ما أحببت مذ ولدت صوتاً كما أحببته، ولا طربت لنبرة كما طربت لنبرته، ولكنه الآن يشجيني، ويبكيني، ويحميني ويقوّيني...،

«يا آل أبي سفيان...، إليكم عن حرمي ما دمت حياً!»

... الصوت يردع الهجوم، ويملأ أسماع القوم فيلفهم بالذهول والوجوم...، ويشل أيديهم!

... ولكن، مهلاً...، أظنني أسمع صوتاً آخر...، إنه صوت

حمحمة جواد...، جواد أعرفه...، إنه ذو الجناح، جواد والدي...، لا بد أن والدي قد عاد!

لم يكن صوت الجواد معروفاً لي وحدي، بل كنا جميعاً نألفه، ولذا فقد هرعنا كلنا نحوه...، حتى رقية، خرجت عن صمتها وذهولها، ورأيت وجهها كله ينطق بالشوق وهي تسابقني إليه...،

ولكن، رباه...، أين والدي؟!...، إن الجواد خالٍ من فارسه، قد التوى السرج على عاتقه، وراح لجامه يسحب على وجه الأرض...، الجواد مشكوك بالسهام، وعنقه وناصيته ملطخان بالدم، وهو يصهل صهيلاً عالياً...،

لطمت وجهي وأنا أصرخ:

«عمة زينب...، أين والدي الحسين؟... أيها الجواد، أين تركت والدي الحسين؟»

وكأن الجواد فهم سؤالي، بل هو لا بد فهم...، فقد مضى أمامنا، وتبعناه...، أنا وأمي وعمتي زينب وعمتي أم كلثوم وأختي رقية و... و....، لست أدري من كان معنا، فقد كان بي شغل عن إحصاء ذلك، باقتفاء أثر الجواد.....

لم نعبأ بالجيش المحيط بنا يتهدد ويتوعد، ولم يعبأ هو، بل راح يتخطى القتلى، ورحنا نحذو حذوه، حتى وصلنا إلى مكان تفوح منه رائحة المسك، ويتألق بالنور...،

نظرنا من بعيد...، كان والدي الحسين مرملاً بالدماء!...

تصايحنا...، تصارخنا، وتسابقنا للوصول إليه...،

لم نكن قد وصلنا بعد إلى مهوى أفئدتنا، حين سمعنا والدي ينادي بصوت مجروح:

«أخية زينب...، إحبسي هذا الغلام...، فإن هؤلاء القوم لا يرحمون صغارنا ولا كبارنا!...».

التفتنا جميعاً...، وإذا بعبد الله ابن عمي الحسن...، كان يجري نحو أبي ملهوفاً، غير عابئ بالخطر المحيط، وقد راح القوم حولنا يتصايحون متنازعين بشأنه...، صرخت عمتي وهي تلحق به وتدعوه أن يرجع، ولكنه استمر يجري، حتى وصل إلى أبي قبل أن تستطيع عمتي الإمساك به، وهتف يقول:

«لا والله يا عمة...، عمي الحسين، لا أفارقه».

وجلس بين يديه ونحن ننظر إليه، وقد حال الجيش بيننا وبينهما...، تسمّرنا في مكاننا، ونحن نراقب...، لقد راح يناجيه ويسأله ببكاء ودموع وهو يتأمل جراحه ويحصيها:

«عم من الذي طعنك هذه الطعنة؟.. عم من الذي ضربك هذه الضربة؟»

ووقفنا ذاهلات...، كانت صرخات القوم تشير إلى خطب جديد مقبل!

التففنا على عمتي زينب مرعوبات صائحات، فيما هب أحد الخبثاء يعدو على فرسه باتجاه والدي ويهوي بسيفه عليه...، وارتفع صوت عبد الله يصرخ:

«ويلك يا ابن الخبيثة؟... أتضرب عمي؟!»

... وتلبد غبار كثيف، لم ينجلِ إلا عن منظر لم يكن بمقدوري احتماله...، وشعرت بقلبي الذي زال عن موضعه مراراً اليوم، وهو ينسلخ من أعماقي انسلاخاً...، كان عبد الله منطرحاً بين يدي والدي، مذبوحاً من الوريد إلى الوريد...، وقد رفع أبي كفيه نحو السماء مبتهلاً بقلب مقروح:

«أللهم إن متّعتهم إلى حين، ففرّقهم تفريقا واجعلهم طرائق قددا، ولا تُرضِ الولاة عنهم أبدا».

صرخنا وأعولنا...، ونظرنا حولنا حائرات، كان لا بد من العروج إليه، مهما كانت العقبات، فهو قد كان قاب قوسين أو أدنى...، وقبل أن أفكر، كنت أقتحم عبق الدماء، وأجري، وأجري، وأتمنى ان أصل إليه...، ربما لألقى بين يديه، ما لقيه عبد الله، وعبد الله...، وعبد الله!...

... وصلت إليه، فارتميت قربه، لا عليه، إذ كيف أرتمي عليه وهو مشكوك بالسهام من كل ناحية، مطعون في كل زاوية من جسده الشريف...، ويلاه!

وتجمدت بالقرب رقية، لم تكن تدري ما تفعل...، كان ما رأته وتراه أقسى من أن يحتمل، ولا أدري كيف استطاعت أن تنظروأن تتحمل....،

أما عمتي زينب، فقدأقبلت لاهثة، تشهق بأنفاسها وتكتم نحيبها، حتى جلست عند والدي...، مدت يديها تحت ظهره، رفعته عن الأرض قليلاً، وأسندته إلى صدرها ورنت بنظرها نحو السماء وهتفت:

«أللهم تقبل منا هذا القربان!»

وضججنا بالعويل...، انكببنا فوقه نلثم يديه ورجليه...، أما رقية، فقد جلست تحت قدميه، وأمسكت بثوبه الملطخ بدمائه، وراحت تتنشق عبقه، وتمسح وجهها ودمعها به....

كل هذا وأبي غائب عنا...، لا يكلمنا ولا يجيب...، قد أغمض عينيه وراح يناجي ربه بصوت شجي خافت...، أنصتّ إليه ملء قلبي ودموعي:

«إلهي.... تركت الخلق طراً في هواكا
وأيتمت العيال لكي أراكا
فلو قطّعتني في الحب إرباً
لما مال الفؤاد إلى سواكا»

على أن عمتي زينب كانت تبغي محادثته بشدة...، دعته مراراً فما أجاب، فأنّت وبكت وهي تقول متهدجة النبرات:

«أخي كلمني...، بحق جدنا رسول الله كلمني...، بحق أبينا علي وأمنا فاطمة... بحق أخينا الحسن...، كلمني...».

فتح والدي عينيه وأجاب بصوت ضعيف:

«أخية...، ما تريدين؟!»

انتحبت عمتي وهي تجيب:

«أخي...، مات جدنا رسول الله ففزعنا إلى أبينا علي...، مات أبونا علي ففزعنا إلى أخينا الحسن...، مات أخونا الحسن ففزعنا إليك...، إلى من نفزع بعدك يا أبا عبد الله؟!...»

التفت أبي صوب المخيم بإعياء...، لعله أشار إلى من هناك، بل إنه أشار إليه...، إلى أخي علي، وأجاب بصوت حزين، ودمع لا يريم:

«أخية زينب...، لقد كسرت قلبي وزدت كربي...، أخية ارجعي إلى المخيم واحفظي لي العيال والأطفال...»،

وتابع بلا صوت، وهو يعيد النظر إلى الخيام:

«أخية...، إذا أنا متّ فافزعي إلى الحجة من بعدي...، إلى ولدي علي...، عودي إليه يا أختاه...، واحفظيه أن لا يمسه مكروه، فهو البقية الباقية من آل محمد!»

.... وكأنما الوصية حملت عمتي على القيام...، نظرتُ صوب المخيم ذاهلة، ونظرت إلى أبي ذاهلة...، إن علينا أن نترك

مهجة الفؤاد هنا، ونعود، فمهجة الفؤاد أيضاً هناك...، علي هناك، وهو أعزل، إلا من رحمة الله، وهو عليل لا يقوى على الحراك، لن يستطيع مقاومتهم لو احتوشوه...، ماذا لو فعلوا؟!.

ويلاه....،.... لعل الفكرة التي راودتني قد راودتها هي أيضاً، بل إن الأمر كذلك...، فهي قد جمعتنا على الفور، ورحنا نحث الخطى خلفها، ثم ننظر خلفنا...، نرنو إلى أبي بحرقة...، بلهفة...، بحنين لا ينقضي...، ثم نتعثر ونمضي...،

أما رقية، فهي بعدما انسلخت عن رداء والدي الدامي، مضت معنا تتعثر بأذيالها، وهي لا تني تلتفت إلى الوراء...، ثم إذا بها تنفلت من عمتي فجأة، لتكر راجعة إليه، وهي تقول:

«عمة زينب، لقد دنا وقت صلاة العصر...، إن أبي يريد أن يصلي...، إن عليّ أن أفرش له مصلاه!»

لحقت بها عمتي مرعوبة حتى أمسكتها وهي تقول:

«إن مصلاه مفروش يا ابنتي، لقد فرشه قبل حين، وهاهو يؤدي صلاته الآن...، هلمي يا ابنتي، هلمي!»

وجرّتها وراءها...، ولحقت بهما...، وأنا أذرف دمعي وهمي وكل حياتي، وأعلم يقيناً، أن ليس على وجه الأرض من هم أكثر بلاء منا، آل محمد!

لم أعد أستطيع البقاء في خيمتنا الخالية....، أجل لقد كانت خيمتنا خالية، فعبير أخي عبد الله قد تلاشى منها ليفيض في مكان آخر....،

وامتلأ قلبي فراغاً...، لم يعد بمقدوري أن أجلس...، أن أنظر إلى أمي تنتقل من ركن إلى آخر، ملهوفة كأنها تبحث عن شيء...، وإلى رقية التي لزمت جانب المهد الفارغ، تهزه بين الفينة والفينة، ثم تتنبه، فتشهق، وتدفن وجههافي كفيها، القابضتين على الفراغ.

أجل لقد نأى عبد الله، وانضم إلى ثلة المصطفين السعداء، وتسجى بينهم في خيمة الشهداء.

أماه...، لقد تمنيت علياً الأكبر ولداً لك اليوم، لحظة عاينت جهاده، فلم يخيب الله رجاك، وجعلك أماً لأصغر شهيد!..

ولكن...، مهما استطعت أن أرى الأمر بروية وتعقل، إلا أنني أتلظى...، فجسمي هنا، وقلبي مفطور مشطور، أحد شطريه يلاحق عجيج المعركة خارجاً، وينطرح على الرمال اللاهبة، تحت أقدام والدي...، والآخر يتجول بين أشلاء الشهداء، بين القامات المهيبة، والهامات الشامخة الخضيبة، التي نكستها أيدي الغدر والجبن والكفر...، وبين الجسم اللطيف الصغير، الذي هدهدته على ذراعيّ مراراً...، ونظرت في ألق العينين مراراً...، فأما الجسم فقد تشظى، وأما العينان فقد انطفأ ألقهما، ليبرقا نجمتين

في جنة الخلد، حيث لا ظمأ ولا ظلم ولا عناء...، أواه يا عبد الله...، إلى أين أهرب من عينيك الساكنتين فضاء مخيلتي...، إلى أين؟...

شعرت بأنفاسي تتخبط، كان لا بد لي من الخروج...، وخرجت، لا إلى الميدان...، حيث كان فؤادي هائماً...، بل إلى خيمة أخي علي...، لعلني أجد بقربه هواءً أتنفسه، بل لعلني أنفّس عن كربي بين يديه، أنا التي أكظم آهاتي لكي لا أزيد كرب أمي، كرب أختي رقية، وكرب المكروبين في هذا المخيم الثاكل!...

... ودخلت الخيمة...، فهالني ما رأيت...، كان علي مستلقياً لا قدرة له على الحركة...، كان شاحب اللون ناحلاً، لم أره يوماًعلى مثل هذه الحال...، لقد ذكّرني بوالدي المسجى هناك، على أرض المعركة، الفرق أنه لم يكن جريحاً ممزق الأعضاء كإياه!

سألت عمتي زينب عن حاله بقلب واله، فأجابت بهدوء وثقة لا تهتز:

«إن الله حافظه وراعيه يا ابنتي، فلا تقلقي!»

والتفتُّ جانباً...، في ناحية من الخيمة كانت زوجة أخي، فاطمة بنت عمي الحسن، تذرف دموعاً وتمسح دموعاً...، أوليس قد استشهد أصغر إخوتها قبل قليل؟!... وكان ابن أخي محمد، مستلقياً قرب والدته شاحب اللون كأبيه، وهو يتململ، سألت فاطمة بقلق:

«هل محمد أيضاً عليل؟!»

فأجابت فاطمة بين دموعها:

«بل هو ظمآن يا سكينة!»

وأردفت تعزيني، وهي تقوم إليّ، فتمسك بيدي وقد قرأت ما يضنيني:

«إن مصاب عبد الله قد أفجعنا جميعاً يا سكينة...، الويل لهؤلاء القوم، إنهم لا يرحمون كبيراً، ولا يرأفون بصغير، الويل لهم....».

ولم تستطع أن تكمل، فهززت برأسي، وفاضت دموعي...، وبكيت، بكينا معاً...، أوليس لها عبد الله ولي عبد الله؟!... وتدخلت عمتي زينب، لتخاطب فاطمة، وكأنها تهيئها لأمر:

«عليك بمحمد يا فاطمة، صونيه واحفظيه، واجعلي نفسك دون نفسه، ولا تدعي أحداً يمسه بسوء!»

مسحت دموعي ونظرت إلى عمتي...، رأيت عيوناً تدمع، وقلباً لا يجزع...، علمت أنها تحمل هماً جسيماً تنوء به الجبال...، ولكن عمتي زينب، أرسخ وأشمخ من الجبال، فهذان حجتان لله بين يديها، أخي علي وولده محمد، وعليها أن تذود عنهما بروحها، رغم كل ما تعانيه، لكي لا تخلو الأرض من حجة...، ناهيك عن سائر النساء والأطفال!....

.. لم أكد أستتم فكرتي، حتى أظلمت الدنيا...، اكفهرت

السماء، ومادت الأرض...، اندفعنا معاً أنا وفاطمة، نحو محمد الذي كان ينظر إلينا بعينين هادئتين دامعتين...، لقد كان يعلم بما هناك!

أما عمتي، فقد فزعت إلى أخي علي، وهتفت تسأله:

«يا ابن أخي، ما لي أرى الكون قد تغير؟»

فتح علي عينيه بصعوبة، طلب من عمتي أن تسنده قليلاً، وأن ترفع له طرف الخيمة، ففعلت...، جال ببصره في المعركة ملياً ونحن ننتظر جوابه...، غامت عيناه وشحب وجهه اكثر، إن كان إلى أكثر من ذلك الشحوب سبيل، والتفت إلى عمتي متحاملاً على نفسه يقول:

«عمة زينب...، اجمعي العيال والأطفال في خيمة واحدة...، عمة إلبسي إزارك وتهيئي للسبي...»،

هبت عمتي تسأل منقطعة الأنفاس:

«يا ابن أخي، ما دهاك؟!»

فأجاب بصوت واهن وهو يشهق بالبكاء:

«لقد قتل والدي يا عمة...، وهذا رأسه على رأس الرمح!...»

... لم تكن السماء وحدها هي التي تغيرت، واكفهرت، وراحت تمطر دماً..، وتململ أديم الأرض، بل كذلك قلوبنا وأرواحنا، كل كياننا..... أضحت خفقات القلوب صرخات، ودماء

الشرايين عبرات، وأنسام الأنفاس زفرات، وصهيل الأرواح حسرات...، كلا...، فالوصف لا يفي...، فقط أعلم أن ما جرى كان أدهى من سكرات الموت....، أما عمتي، فقد صاحت وأعولت وراحت تردد:

«واجداه...، وامحمداه!».

... ثم.... لقد غيبني المصاب عن هذه الدنيا، وتمنيت الموت...، تمنيته من كل قلبي، إذ ما طعم الحياة الآن، وقد خلت من كل حبيب وعزيز وجميل؟!...

أي واأبتاه!... أي واحسيناه!....

أحسب أني قد اكتفيت، ومابي قدرة على الحديث بعد!...

إليك عني أيها القلم...، إليك عني يا دنيا...، ما بي طمع في شيء منك، ولا حتى بهذه الأنفاس التي تتراوح في صدري...، ولولا يقيني وإيماني برحمة الجبار، وعدله وحكمته، لما طمعت في لحظة من الحياة.

ولكن اليأس ليس من صفات المؤمنين، وليس من شيمنا نحن بنات محمد...، إذاً...، ليس يأساً، ولكنه حزن قاتل...، أجل.....، وإن من الحزن ما قتل!

كـربـلاء،

عشية العاشر من المحرم

سنة إحدى وستين للهجرة

لم أر الليل أسود كالح العتمة يوماً كما أراه الآن...، حتى النجوم، أظنها اختبأت، توارت خلف ضباب كثيف، أو ربما سقطت...،

أغلب الظن أنها سقطت حياء من نجوم الأرض!

إذ كيف تشرق بالنور، وينبوع النور قد غار وخبا ضياؤه...،

الظلمة تغشانا....، ولولا بقايا اللّهيب المتصاعد من خيمنا المحترقة المتناثرة، لما رأينا شيئاً.

... الوحشة تكتنفنا...، ولولا صوت عمتي زينب، شجياً مبحوحاً من أثر النحيب، ترتل آيات الذكر والحفظ على مسامعنا، وتدور بيننا، تضم وتواسي وتتفقد...، ولولا أنفاس أخي علي المتلاحقة وزفراته الحرى، حزناً وكمداً وألماً، واشتداد علة، وهي تمتزج بكلمات المناجاة والدعاء، تصب في أسماعنا وأفئدتنا، نستمسك بأطراف عباءته، نلتجئ إلى جواره، هو منطرحٌ بيننا لا

يقوى على النهوض...، لولاهما...، لكان الكون فارغاً، لا أنيس فيه ولا أحد، سوى الضباع المحيطة، والسياط المولولة في أكف البغاة، تنتظر صرخة تصعد أو نحيباً يُطلق، لتخرسه وتدميه، كي لا يوقظ سبات الليل، أو يهز غفلة القلوب.

البرد يلسعنا، ولا من خيمة تحمينا، أو رداء يسترنا من صقيع الصحراء المتوحش، بعدما سلبتنا هذه الوحوش الكاسرة أستارنا، وأحرقت خيامنا...، حتى أمتعتنا...، لم يبقوا لنا شيئاً نجلس عليه، فما لم تأت عليه النار سلبوه...، لم يتورعوا حتى عن جذب الأقراط من آذاننا، وها هي الدماء تسيل منها، ومن وجوهنا المصفوعة المكشوفة!...

أي واذلاه...، أي واجدتاه، وافاطمتاه...، لولا قرطك المتناثر لما سلبنا، ولولا خدك المصفوع وعينك المحمرة لما صفعنا...، لولا متنك المسودّ من أثر السوط لما جُلدنا....، أي واجدتاه، لولا النار بباب دارك وانتهاك حرمتك لما أحرقت خيامنا وانتهكت حرماتنا...، أي واجدتاه...، وجوهنا ومتوننا وكل آلامنا وانكسارنا، فداء لضلعك المكسور...، أي واجدتاه!....

... لم تكفنا وحشية البشر، حتى أتى البرد ينهش أجسامنا الطرية....،

الظمأ يكوينا، رغم أن هؤلاء أتونا بالماء قبل ساعة، فشربنا....، مزجنا الماء بدموعنا، وشربنا...، ولكن، ما زال الظمأ

يكويني...، لا جفاف الحلق والشفتين واللسان، بل جفاف جديد لم أعهده من قبل، ينطلق من سطح الفؤاد لينفذ رويداً رويداً إلى عمق أعماقه...، وأحس بقلبي يتلوى ظمأ...، أدس رأسي تحت جناح عمتي زينب وأسألها بلهفة:

«عمة زينب، صلاة العشاء حان وقتها، ألا أفرش السجادة لأبي؟... ألن يأتي للصلاة؟!»

تتلوى...، وتنتحب النساء، وتئن سكينة...، وتصمت عمتي هنيهات طوال قبل أن تجيب:

«كلا يا بنيتي...، إنه لن يأتي».

قلبي ملهوف، وذراعيّ تعانقان الفراغ، حتى عبد الله، علي الأصغر...، لقد كان قربه يواسيني ويسليني عن بعد والدي، ولكنه لم يعد هنا...، إنه مضطجع بين الشهداء...، هكذا قالت سكينة....

عندما شربت الماء طلبته لأسقيه، وطلبته خالتي الرباب لترضعه، ولكنه أبى...، لست أدري لماذا!

لقد بكت خالتي طويلاً، وبكت أختي سكينة، فبكى قلبي لبكائها...، وأتيتها...، أردت أن أواسيها، أن أكفكف دمعها وأخفف لوعتها....

سألتها إن كان عمي العباس قد سقى أخي عبد الله قبلنا حتى استغنى عن الشراب، فازداد بكاؤها...، فسألتها إن كان جدي

رسول الله قد سقاه بكأسه الأوفى كما سقى أخي علياً الأكبر، فمسحت دمعها، وضمتني إليها بشدة، ربما أشد من أي وقت مضى، وأجابت:

«بلى ياحبيبة الحسين، إنه قد سقاه ورواه، وما عاد يحتاج سقيانا، ما عاد يحتاج إلينا، فطوبى له!».

... خفف عني ما سمعت، لقد ارتوى عبد الله وذهب عنه الظمأ...، لكن، لئن لم يكن هو محتاجاً إلينا، فنحن محتاجون إليه...،

ألن ينظر إليّ بعد بعينيه السوداوين الواسعتين ويأسر ناظريّ بنور محياه، وروحي بصوت مكاغاته ومناغاته؟...

ألن يمد إليّ يديه الصغيرتين، فأحمله، لأحتوي كنوز الدنيا بين ذراعيّ، فأنوء بها ثانية؟....

ألن يأتي والدي إلينا فيحملنا سوية، فنبكي سوية، ونضحك سوية...، ونسمو إلى مكان آخر ليس في الأمكنة ما يشبهه؟!

رباه...، أين أنت يا والدي؟!...

ظمئي إليك يزداد...، ألا من سبيل إلى ري ولو بلمحة من بعيد؟!...

... عدت أسأل عمتي، في جوف الليل وهي تصلي:

«عمة زينب، ألن يصلي والدي نافلة الليل كعادته؟... هل انتحى بعيداً ليصليها وتركني هنا؟... خذيني إليه يا عمة...، بالله

عليك...، أعدك بأن لا أزعجه...، سأجلس بقربه فقط وأنظر إليه...، بالله عليك يا عمة...، لن ألمس جراحه...، لن أعانقه إن كان ذلك سيؤلمه...، فقط سأنظر إليه....»،

لم تجبني...، كانت في شغل عني، تضع يدها فوق قلبها وتتمتم، وتتنهد، وتمسح ما يفر من دموع....

أجابني نحيب ونشيج، وأمسكت بي سكينة لتقعدني إلى جانبها، وتمسح على رأسي وتقول:

«كفى يا رقية...، لقد أوجعت قلوبنا...، بالله عليك يا أختاه...، كفي عن هذا!».

... لم أفهم، ولكني كففت، والتصقت بها...، وسمعت أخي علياً يئن أنيناً طويلاً، ثم يسأل عمتي:

«عمة زينب...، أراك تصلين من جلوس؟!»

فأجابته وفي صوتها غصة:

«يا ابن أخي...، إن مصاب أبيك الحسين هدّ قوتي!»

فينظر بعيداً...، ثم يغمض عينيه...، هل هي شدة العلة تغيب به، أم شدة الحزن، أم كلتاهما؟!...

وأقترب منه، أمسك بطرف ردائه، أستلهم الصبر عن بعد والدي...، وأنتظر..،

... لا نعاس يقرع جفنيّ الساعة، فالتحديق في الظلام يرعبني، ولا أرغب قي إغماض عينيّ لكي لا يحتويني ظلام آخر...،

البرد ينهش عظامي...، قلبي يرتعش وأسناني تصطك، لا يغنيني التصاقي بعمتي من جهة، وأختي سكينة من جهة أخرى...، بعدما تقاربنا جميعاً، لنحتمي من غدر الصحراء وسباعها المكشرة عن أنيابها هناك، في المدى القريب، ولنستظل بفيء عمتي الحبيبة وأخي العليل، روحي فداه، ولنتدفأ.

ولكن البرد لم يكن ينهشني من الخارج فحسب، بل من الداخل أيضاً، ولذا فقد كان يزداد ويزداد، لست أدري حتى متى.

أرى عمتي تصلي وتلهج...، وأخي علياً يلهج ويلهج، ويتقلب من فرط علته...، فتسحّ من عيني دمعة...، إن وجود الدمع على خدي قد أضحى عادة، وقد يذهلني للحظات غيابه...، أما الآن، فتسحّ دمعة لذكرى، ولوعة، فلقد شهدت أمراًقبل ساعة، ملأني فزعاً فوق فزعي، وكلما تذكرته عاد إليّ فزعي.....

أجل...، فعندما هجم علينا القوم،قبيل الغروب،رجالاً وخيولاً، وأحرقوا خيامنا، فررنا على وجوهنا في الصحراء هرباً من النار، كما أشار علينا أخي علي،، وهمت على وجهي لا أدري إلى أين أفر، بعدما ضيّعت أثر عماتي وأختي سكينة...، ثم رأيت عمتي زينب على باب خيمة علي، التي نشبت فيها النار....،

كانت مضطربة تدخل وتخرج وهي تضرب كفاً بكف، فعدوت نحوها واندسست خلفها أحتمي بها، فأمسكت بي بلهفة....، ثم إذا برجال يقبلون شاهرين سيوفَهم، فيصرخ بها أحدهم:

«أمة الله، النار النار...، ما وقوفك بباب الخيمة؟»

فتجيبه مستاءة غير مكترثة به:

«بلى يا ظالم...، أرى النار، ولكن لنا مريض في هذه الخيمة!»

وإذا بالباقين يدخلون الخيمة وويهجمون على أخي...،

كان أحد الداخلين أكثر قبحاً وشراً من الآخرين...، كان مخيف الوجه والنظرات، أشبه بخنزير بري، تسمرت في مكاني خوفاً، وكاد قلبي يتوقف؛... أخي علي، عزيز قلبي وفؤادي...، ماذا سيفعلون به؟!...

إنه بطل صنديد، وهو قادر على إبادتهم عن بكرة أبيهم لو بارزهم...، ولكنه الآن مريض لا يقوى على الحركة، فضلاً عن القتال...، هل سيقتلونه؟!...

تركتني عمتي، وهجمت...، وألقت بنفسها على أخي علي وهي تصرخ:

«إن أردت قتله فاقتلني قبله!...»

كدت أموت من الخوف وأنا أنظر...، عمتي، أخي، كل من يعنيني ويحميني في هذا الوجود..، إنهما في خطر...،

... ودخل لعين آخر، فنظر إلى عمتي، إلى أخي، ثم قال للأول بصوت كفحيح الأفعى:

«دعه يا شمر...، إنه لما به ميت لا محالة!»

تنفّستُ الصعداء... وهرعتُ نحو عمتي، حالما غاب اللعناء، ألوذ بها وبأخي، وربما أحاول إعانتها في إسناد أخي وإخراجه من الخيمة التي كانت تحترق...، فأشارت إليّ عمتي بالخروج فوراً...، لم أتأخر...، ولكن النار نشبت في ثيابي، ولم ترني عمتي، صرت أعدو في الصحراء مرعوبة لا أدري ما أصنع، فازددت اشتعالاً...، رحت أتوسل بأبي...، بعمي العباس، بجدي أمير المؤمنين....، وإذا برجل يعدو خلفي...، ازداد رعبي وأسرعت عدوي، ولكنني تعثرت ووقعت، فوصل إليّ، وراح يطفئ النار عن ثيابي، وهو يبكي رأفة بي...، علمت أنه لا يريد بي الأذى، فسألته:

«يا شيخ...، هل تعرف طريق الغري؟!»

فأجابني:

«بنية، وما تصنعين بالغري؟!... إن بيننا وبينه مسافة.»

زاد همي وأنا أجيبه:

«يا شيخ، ذكرت لي عمتي زينب أن جدي أمير المؤمنين ساكن بالغري، وأنا أريد أن ألوذ به!»

... لم أزل أعيش لوعة الذكرى...، إنني لم أستطع الوصول إلى مرقد جدي، ولعلني لن أستطيع...، ولكن صوتاً أيقظني من

حلمي، وذكراي...، كانت عمتي زينب تتأوه...، وسمعت أختي سكينة تقترب منها سائلة عما بها، وإذا بها تتنهد من قلب مقروح وهي تقول بصوت أشبه بالنجوى:

«لقد غفوت هنيهة، وإذا بي أرى فارساً مقبلاً علينا...، صحت به: «يا هذا، لا تقربنا،» فصار يدنو...، أعدت عليه قائلة: «يا هذا، إن أردت ترويعنا فنحن مروّعات، وإن أردت سلبنا نحن مسلّبات...،» فصار يدنو أكثر فأكثر...»،

بكت عمتي لحظة، ثم تابعت:

«أقسمت عليه بحق أمنا الزهراء أن لا يقربنا...، لما سمع باسمها، تحادرت دموعه على خديه وقال: «بنية زينب، أنا أبوك...»..... أي وا أبتاه...، أي واعلياه!...»

... لقد سمعك جدنا يا عمتي، وسمعني أنا أيضا...، وها هو يحرسنا في هذا الليل البهيم، بعدما غاب عنا حراسنا...

ولكن...، تالله...، إن عمي العباس ما تعود أن يتركنا وحدنا، ولئن كان أبي جريحاً يتداوى، فأين هو عمي يا ترى؟!

كل ما حولي يحيرني، أعلم أن هؤلاء الأشرار قتلوا كثيراً من أحبائنا، ومن أصحاب أبي الأوفياء، وأن شهداءنا رحلوا إلى جنة الخلد، حيث جدي المصطفى يستقبلهم ويروي ظمأهم، ولكن عمي العباس ليس بينهم، فأنا لا أراه منطرحاً مع الشهداء في خيمة الشهداء...!

أما أبي، فأظنه يتداوى من جراحه...، ولكن، من يداويه يا ترى؟ أهو عمي العباس؟!... لا بد أنه هو...، فهو دائم الحضور بين يدي أبي، يخدمه ويرعى شؤونه، فكيف لا يداويه ويحميه؟.. بل كيف لا يفديه بنفسه إن كان لا بد من الفداء؟!

لا عجب إذاً أن يغيب عمي عنا ليذهب بأبي إلى مأمن فيقوم على خدمته، ولئن كنا بأمس الحاجة إليه وإلى رعايته وحمايته، فإن أبي هو الأهم...، أما نحن، فإن جدنا يرعانا!

... أي واجداه...، الليل المظلم أوحشني، وغياب أبي قد أوحدني، فابق سَاهراً ها هنا، ودعني أستضيء بنور عينيك بعد عيني أبي الذي غاب...، عساه يعود إليّ عن قريب، وألتقي به، كما وعدني...، أنا أعرف أبي، إنه لا يخلف وعده أبداً...، ولكن، أخشى أن يطول بنا موعد اللقاء....، أخشى أن يطول به عني الغياب!..

من كربلاء إلى الكوفة،
الحادي عشر من المحرم،
سنة إحدى وستين للهجرة

... اليوم رحلنا من جديد!...

كلا...، لا رحلة كهذه الرحلة...، ولا وحشة كهذه الوحشة!...

بالأمس خرجنا من مدينة جدنا، كانت راية عمي العباس ترفرف فوق رؤوسنا...، وكان أخي علي الأكبر وأعمامي وأبناء أعمامي يحيطون بنا، ويضيئون ظلمة الطريق بأنوار طلّاتهم...، وكان أبي يتقدمهم...، يلوح لي من خلف ستار المحمل، كالشمس الطالعة، أستجلي دفء وجوده بين الحين والحين.

لقد بكينا على فراق حرم جدنا، فكفكف والدي دموعنا، وواسانا.

وبالأمس أيضاً، خرجنا من كعبة جدنا، وكذلك كانت الراية، وكذلك كان الإخوة والأحباب والأعمام والأصحاب، يحيطون بنا ويحمون.

أما اليوم...، فيا للرحلة، ويا للذل والوحشة!...

فلا إخوة ولا أصحاب، ولا أهل ولا أحباب...، حتى أبي وعمي، غائبان لا أعرف أين!...

حتى ركوب النياق كان شاقاً...،

أتى الغرباء يريدون إركابنا...، جروا أخي علياًبحبل غليظ شدوه على معصميه...، آذوه بشدة...، كان يئن ويتألم، فلم تأخذهم به رحمة ولا شفقة...، بل قيّدوه إلى ظهر ناقة عجفاء، وربطوه بها لكي لا يقع، فقد كان متخاذلاً من شدة المرض!

والتفت أخي إلى عمتي، التي وقفت حائرة حال الركوب، وتوجهت بوجهها صوب نهر الفرات تنادي:

«نور عيني عباس...، إيه يا أبا الفضل، أنت الذي أخرجتني من منزلي، وأركبتني في محملي، قم الآن وركّب أختك!»

نادت ثانية وثالثة...، ولكن عمي العباس لم يجب...، فهتف أخي علي بها وهو يستعبر، أن تركِب النساء بعضهن بعضاً، وإذا بعمتي، تقوم هي بدور كفيلها مرة أخرى، وتركِب النساء بنفسها...، أما هي...، فلا أدري من أركبها، لعله جدي أمير المؤمنين... فقد كان معنا!.....

... ومروا بنا على الأشلاء المتناثرة يميناً وشمالاً...، غطت سكينة وجهي لكي لا أرى، ولكني سمعت عمتي تندب طويلاً وتبكي...، فبكيت...، بكيت حتى غفوت!

... رغم حزني الشديد وتعب المسير، وعناء الرحلة ووعورة المركب، غفوت...، فأنا لم أغفُ لليلتين متتابعتين، ليلة الوداع، وليلة الوحشة...، ليلة في ظل والدي وعمي وكل الأحبة، وليلة في ظل الصحراء، حيث افترشنا الرمال والتحفنا السماء...،

....ولئن غفوت فقد غفوت قليلا يعلو أنيني بكرة وأصيلا
ولئن غفوت فقد أفقت مروعة وقع السياط على المتون أُهيلا

.... أجل...، لقد أيقظني السوط فارتعبت...، لم أكن قد جنيت أو أذنبت، لم أكن قد بكيت أو أعولت، ولكن السوط أخطأ سكينة، التي كانت بقربي لا تهدأ عن الأنين، وأصابني...، قفزت مذعورة، فاحتضنتني وهدّأتني، وراحت تعتذر مني...، ولكن...، تالله...، مِمّ تعتذرين يا أخية؟..

وما جنيتِ لتُضربي إن قلتِ هاتوا لي أبي
أو قلتِ واجداه، لا لا تضربوا بنت النبي

واحتضنتها أنا هذه المرة...، لقد آلمني أنينها...، عرفتك صابرة يا سكينة، ولطالما تقويت بصبرك، فما بالك والهة لا تصمتين عن البكاء؟.... ألم تعلمي أن الله يجزي الصابرين؟!... أليس هكذا تعلمنا يا أختاه؟!...

أهو غياب والدنا؟!...

لا عليك يا أختاه...، علمت أنه في سفر، وأنه عائد عن

قريب، وعندما يعود، سيمسح جراحنا ويضمّد آلامنا، وسيرفع عنا كل ضيم، وسننسى في ظله كل تعب وعناء!

ولئن فقدنا أخانا الأكبر، وتباعد عنا أخونا الأصغر، فإن أخانا علياً السجاد يعوضنا، وهو رغم علته وضعفه الآن يقوينا...، ولكن، لا بأس لو بكينا يا سكينة، فقد بكى علي طويلاً ساعة مررنا بالأجساد الطاهرة المطروحة على الرمال...، لم أستطع أن أفهم كل ما قاله ساعة ندبهم وأطال، فقد كان بكاؤه أنيناً وأنفاسه حنيناً...، لا بأس لو بكينا يا سكينة، فقد بكى علي، وشهق مراراً حتى أفزعني، وخلت أنه التحق بالسابقين...، ولولا أن عمتي زينب استوقفت بكاءه، وكادت ترمي بنفسها عن ظهر الناقة، حتى التفت إليها متوسلاً أن لا تفعل، فلعله كان لحقهم حقاً...، وكان الهول ليفوق كل هول!...

إبكِ يا سكينة، واذرفي دمعك فوق دمعي، ولكن تذكري أن أفول شمس اليوم لا يعني غيابها إلى الأبد...، فغداً ستشرق...، وتطهر بنور شعاعها كل ما دنسته أيدي الآثمين...، وستحرق بنار لهيبها هذه الأيدي المرفوعة علينا ذات الشمال وذات اليمين!

ضميني إليك يا سكينة، فلعل يديك تحميان جسمي من حر الهاجرة نهارا، ومن صقيع الصحراء ليلاً...، ودعيني أضمك، فقد تلقيت من السياط ما يكفيك...، بعضها فدتك منه عمتي زينب، التي جعلت من جسمها وقاء لنا ودرعاً وهدفاً دوننا للجلد

والضرب، وبعضها سبقت به يد الطغاة إلينا، فسوّدت متوننا...، فوالهفاه...،

أبتاه...، أنظر إلينا...، أنا حبيبتك رقية، وهذه عزيزتك سكينة، وهذا من صار وحيدك اليوم، علي، وهاتان شقيقتاك، عمتاي زينب وأم كلثوم...، هذه أخواتك ونساؤك ونساء وأطفال أنصارك، كلهم يرجون رجوعك لتشهر سيفك على رؤوس هؤلاء الظالمين!

بالله عليك يا أبتاه لا تتأخر، فقد أوذينا فيك، في أبينا علي وأمنا فاطمة...، وأكثر من ذلك، أوذينا في جدنا المصطفى...،

لا تتأخر أيها الحبيب، فقد أمضّني الشوق إليك، وكاد صقيع فؤادي أن يجمد أطرافي ويسكّن وجيب قلبي...، عدإليّ يا أبتاه بدفئك العلوي، عسى يعود إليّ الأمل وتعود الحياة!..

على أبواب الكوفة،

الثاني عشر من المحرم،

سنة إحدى وستين للهجرة

... الأرض رمال، والسماء صفراء كالرمال...،

وبين الأرض والسماء حر وهجير، ونياق مهزولة تسعى بنا.... لا محامل ولا هوادج، ولا حتى سروج أو وطاء...،

ولشدة الحر، لا أقدر على فتح عينيّ والنظر جيداً، وليس لدى عمتي فضلة من ثوبها لأستر بها رأسي ووجهي من حر الشمس، فملاحفنا قد سلبت منا...، أنا للمرة الأولى أرى عماتي، أختي، وسائر النساء باديات الوجوه في محفل الرجال، وقد لبسن ما بالكاد يستر أجسامهن، وعلى الأخص عمتي زينب، التي كنا نعرف جميعاً، أن لا ستر كسترها....، وقد روت لي سكينة يوماً، أن جدي أمير المؤمنين كان إذا أرادت عمتي زينب الخروج من الدار لحاجة لها، يمضي بها ليلاً، ويخفت المصباح، لكي لا يُرى ظلها، ويتقدّمها بنفسه، عمي الحسن عن يمينها، وأبي الحسين عن شمالها، وعمي أبو الفضل العباس يمشي وراءها

يمحو آثار خطواتها...، واهاً لسترك يا عمة، واهاً لحرمتك المهدورة، وأنت الآن سبية تساقين على رؤوس الملأ...، ولكن، صبراً ياعمتي، فإن أبي لهم بالمرصاد...، وهولم ولن يرضى بما انتهك من حرمتنا...، وإن لنا عند الله لحقّاً سيُؤخذ، ولو بعد حين!

«يريدون أن يزيدونا عذاباً فوق عذابنا، ليزيدهم الله من عذاب الجحيم».

كانت سكينة تتنهد وهي تشكو...، لم تكن توجه همسها إلى أحد، بل إلى المدى...، أو ربما إلى ما يحويه المدى، بل يحوي كل المدى...،

... وفجأة، تباطأت حركة النياق، وسمعت حادي الركب يصرخ منادياً:

«الكوفة...، طلائع بيوت الكوفة!»

ويرتفع بين النساء بكاء ونحيب، أميّز فيه صوت عمتي أم كلثوم وابنتها حميدة...، لقد هاج ذكر الكوفة أشجاننا...، وكان قد أسكتنا حتى ذلك الحين وقع السياط، فإذا بولولة السياط ترتفع من جديد، تنهال على أجسامنا المهدودة، من هول مابنا، من فقد الأحبة وذل المسير، وحر الهجير، وجوع ثلاثة أيام، وظمأ يومين...، لقد سقونا ليلة العاشر، فما ارتوينا، ربما لأن ظمأنا كان شديداً، وربما لأن السقّاء كان عدونا، قاتل أهلنا وأحبابنا...،

لم يكن ساقينا هو ساقي العطاشى، عمي الحبيب أبا الفضل...، ولم يكن الماء ذلك الزلال الذي تعودناه من يده...،

أواه..، أين أنت يا عماه، لترى مانحن فيه...، أهكذا تنأى عنا وتتركنا ظامئين جائعين بلا حامٍ ولا معين؟!... ما عهدناك تنشغل عنا بنفسك طرفة عين، إلا إذاً كان شغلك بأبي، إن كنت تنصر أبي فلا بأس...، أنت عندي معذور ولا تثريب عليك...،

... نحن نقترب من «النخيلة»...، شيء من ظل النخيل يرد عنا غائلة الشمس...، لقد بدأت أرى الأشياء، أميّزها...، ليس بوضوح ولكن، أفضل من السابق...،

أنا الآن أتفقد ما حولي ومن حولي....، ويا لهول ماأرى...، هذه سكينة، حميدة، عمتي أم كلثوم، خالتي الرباب، خالتي ليلى، عمتي زينب...،سائر النساء والأطفال،... أراهن جميعاً مسودات الوجوه...، لا بد أني مثلهن أيضاً قد اسودّ وجهي، من حرارة الشمس المحرقة وغبار الرمال المتراكمة، الملتصقة بآثار الدموع التي لا ترقأ...، عمتي زينب محنية الظهر، وأخي علي...، والهفي على أخي علي، إنه ينوء برقبته وهوفوق ظهر البعير...، يترنح حتى ليكاد يسقط، لولا أنه مربوط إليه بحبل غليظ...، رجلاه تشخبان دماً، وكذلك يداه، من أثر الحبال المشدودة...، ليتني أستطيع الوصول إليه، ولكن، إن بيني وبينه نزول عن ظهر الناقة وصعود، وهذا ما لا أستطيعه!

ولكن، ترى...، ما هذه الأعمدة المنصوبة بين النياق؟!

أهي رماح؟... ولماذا ينصبون الرماح هكذا، وقد قضوا وطرهم، وانقضت الحرب بسفك دمائنا، وأسرنا كما يؤسر المشركون؟!...

... بل إنها رماح...، ولكن في رأسها...، رؤوس!

أظلل عينيّ بكفي لأرى أفضل..، ويضطرب قلبي في أعماقي...، يجف حلقي وأنا ألتصق بسكينة وأسأل:

«سكينة...، ماهذه الرؤوس يا اختاه؟... أراها تنتصب فوقنا...، لمن هي يا ترى؟!»

تشهق سكينة وتكتم بكاءها، ولا تجيب.

ها أنا ذي أتفحص الرؤوس، يلوح لي وكأن أحدها...، ويحي...، به شبه من أخي علي الأكبر!

أصرخ...، أنادي:

«عمة زينب، هل هذا رأس أخي علي على رأس الرمح يا عمة؟!.... ناشدتك الله، أخبريني!»

ويخرسني سوط يقرع متني، فتندفع دموعي غزيرة، تختلط دموع الألم بدموع الحسرة...،

واعلياه...، واأخاه...، واجداه...، وامحمداه!...

أنا لم أنسك يا أنيس القلب...، ولكن، ظننتني تركتك

منطرحاً مع الشهداء على رمال كربلاء...، وما ظننت أن رأسك يلحق بي، ويحميني....،

... الوقت يمر...، والقافلة تسير...، والرماح ذات الرؤوس تسير...، عيناي عالقتان بوجه أخي الدامي...، لا أرى سواه!

... الكوفة أمامنا...، وأمامي رأس أخي، لا أميز ملامحه بدقة عن بعد، ولكني أراه...، يسلّيني، يلوّعني، يهدّئني، يروّعني...،

... ولكن، ما هذه الجموع؟ ما للناس يتصارخون؟.... ما بهم يتراكضون حولنا كالمجانين؟!...

ما لي ولهم...، إن بي شغلاً عنهم...، إنني أشكو بثي وحزني إلى الله، وأخاطب الرأس المطل عليّ بعينيّ...، وهو...، إنه ينظر إليّ، ويفهمني...، أعرف ذلك!... أحاول أن أتفحص الرؤوس الأخرى، بخوف وجزع...، أخشى أن يباغتني أمر ما...، ولكن رأس علي يملأ بصري، فلا أرى سواه...، أراه ملء فؤادي، ملء الكون حولي، فلا يسعني أن أرى سواه!...

... الكوفة أمامنا، والناس حولنا...، ينظرون إلينا ويتفرجون علينا...، نستر وجوهنا بأيدينا حياءً من النظرات المنصبة علينا تتفحصنا، ونطأطئ الرؤوس...، أليس ها هنا كان جدي أمير المؤمنين يحكم الناس بالعدل فتتطأطأ لهيبته وعدله النفوس؟!... أليس هاهنا كان أبي وأعمامي وأبناء أعمامي يمشون بين الناس

فيشيرون إليهم بالبنان قائلين: «هؤلاء عترة المصطفى وأبناء المرتضى، هؤلاء ليوث النهار رهبان الليل، هم الأولون وهم السابقون، لا يلحق بهم إلا من لحق بذلك الطريق، طريق ذات الشوكة؟!» أليس هاهنا كان لنا عز الدنيا والآخرة؟!... إذاً، فما بال الناس يفرحون بذلنا ويلتئم شملهم بتفرقنا وتقطع أوصالنا؟!...

«الناس عبيد الدنيا، والدين لعق على ألسنتهم، يحوطونه ما درت معايشهم، فإذا محصوا بالبلاء قل الديانون!».

كلمات طالما سمعتها من والدي الحسين، ولكنني لم أفهمها حقاً إلا الساعة...، وها هي سكينة ترددها في مسمعي الآن، وهي تزيح ناظريها، تلتفت يمنة ويسرة لتهرب من عيون الناظرين، ولكن عبثاً، فما إلى الهروب من سبيل...،

واهاً لحرمتنا المهدورة....، واهاً لدمائنا المسفوكة...، واهاً لأستارنا المهتوكة...، أي واجداه وارسول الله...، أي وا أخاه، واعلياه...،

لو كان علي على صهوة جواده لا صهوة الرمح، لما وصلنا إلى هنا!

وتطل علينا من فوق السطوح نساء، ينظرن متعجبات...، أسمع قول إحداهن:

«ما رأينا مثل هذا في الإسلام...، رؤوس فوق الرماح؟!»

ويطلع علينا نساء أخريات، وأطفال بأيديهم خبز وتمر،

فينظر بعض أطفالنا إليهم، فالجوع قد أخذ منا مأخذه...، يناولوننا بعضه، أنظر إلى عمتي لأسألها، وإذا بها تهرع إلينا، ومعها عمتي أم كلثوم، فتنتزعان الطعام من أيدي أطفالنا وأفواههم، وترميانه لأصحابه وهما ترددان:

«... الصدقة حرام علينا آل البيت!»

فتسألنا إحدى النساء بلهفة وعجب:

«من أي الأسارى أنتن؟»

تنخمد أنفاسنا...، فبِمَ نجيب؟!...

ويعلو صوت عمتي زينب فوق الأصوات، يقرع الأسماع كنفخ الصور:

«نحن أسارى آل محمد!»

... وتصرخ المرأة مولولة...، تنادي بالويل والثبور، وتهرع إلى دارها...، ثم تخرج إلينا بملاحف وستور فتدفعها إلينا وهي تنادي:

«الويل لكم يا حزب الشيطان...، أتهتكون ستور بنات النبي؟!... لستم من الإسلام في شيء...، بماذا تجيبون محمداً يوم الحساب إذا سألكم كيف خلفتموه في أهله؟!... الويل لكم يا أهل الكوفة...، الويل لكم!»

ونستلم الستور لنستر أنفسنا، ونمسح دموع الخزي والقهر...، أجل، الويل ثم الويل لهم، ولمن بعدهم ومن وراءهم!

..... ويرتفع صوت نحيب النساء، وعويل الرجال، وقد أدركوا فجأة ما فاتهم، ربما.....،

وتضج أزقة الكوفة بالصارخين....،

وتقف عمتي زينب...، وتنادي الناس أن يصمتوا...، فيفعلون، وتخطب فيهم، فينصتون:

«يا أهل الكوفة، يا أهل الختل والغدر...، أتبكون؟!... فلا رقأت الدمعة ولا هدأت الرنة...، إنما مثلكم مثل التي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً...، ألا ساء ما قدمت لكم أنفسكم، أن سخط الله عليكم، وفي العذاب أنتم خالدون...، أتبكون وتنتحبون؟!... إي والله، فابكوا كثيراً واضحكوا قليلاً، فلقد ذهبتم بعارها وشنارها...

ويلكم يا أهل الكوفة...، أتدرون أي كبد لرسول الله فريتم، وأي كريمة له أبرزتم، وأي دم له سفكتم، وأي حرمة له انتهكتم؟!... أفعجبتم أن مطرت السماء دما؟!... ولعذاب الآخرة أخزى وأنتم لا تنصرون!...»

ويتعالى البكاء أكثر...، وإذا بشيخ قد بكى حتى اخضلت لحيته، يهتف بين دموعه:

«بأبي أنتم وأمي، كهولكم خير الكهول، وشبابكم خير الشباب، ونساؤكم خير النساء.»

ويهمس قرب أذني صوت أختي سكينة وهي تئن قائلة:

«إيه يا عمتاه..، بالأمس كان جدي يعظهم، واليوم أنت...، فما أشبه اليوم بالأمس...، بل إن اليوم هو ابن الأمس...،

بالأمس خذلوا جدي، واليوم قتلواأبناءه، وسبوا عياله ونساءه..، بالأمس كنت في دار جدي لايرى خيالك مخلوق، ولا يسمع صوتك حر ولا مملوك، واليوم، ها أنت تقفين بين الناس، فتصرخين وتخطبين، وتَبكين وتُبكين...، وتقولين ما تقولين...، لأن القائلين ذهبوا، وبقيت أنت لتنقلي عنهم، وتبيّني ما خفي من أمرهم.!... إيه يا عمتاه...، إلى أين بعد سيكون المصير؟!...».

... الناس يبكون أكثر...، يعولون أكثر...، رجالاً ونساءً، شيباً وشباناً...، الكل ينوح، وعمتي تصرخ من قلب مجروح، تذكّرهم، تؤنّبهم...، وبعض كلامها يخفى عليّ معناه، ولكنه يؤسيني، فأدفن وجهي في ثوبها، أصم أذنيّ لا أريد أن أسمع سوى صوت الحنين المنبعث من فوق...، من تلك الرؤوس الزواكي...، وأعجب...، هل لرأس فصل عن جسده قبل أيام أن يبكي ويئن؟!...

ولكن رؤوسكم أيها الأحبة ليست كالرؤوس، فأنتم أحياء رغم تقطع الأوصال..، أعلم يقيناً أنكم أحياء...، أنتم فوق رؤوسنا تنظرون، ونحن ننظر ونُنظر...، وإلى الله المشتكى....،

الـكـوفـة،

الثالث عشر من المحرم،

سنة إحدى وستين للهجرة

... الأيام تمر...، والساعات تكر وتفر...، وأبي لم يعد بعد...،

وأسأل عمتي...، ألح في السؤال، كلما ألح الأذان على سمعي بوقت الصلاة...، كل شيء ينقصني...، فراغ يملأالكون حولي...، أبتاه، أما برئت جراحك بعد؟... أما آن أوان العودة؟!... أبتاه...، لقد استضعفنا هؤلاء الأشرار...، كشفوا وجوهنا وضربوا متوننا، نهرونا وقهروناواستباحوا حرمتك وحرمتنا!...

أبتاه...، صقيع فؤادي يزداد، وأخشى إن أنت تأخرت عليّ أن يتجمد قلبي ويتوقف عن الخفقان...،

أبتاه...، من نبضك أستمد نبضي، ومن شمسك دفئي، ومن زفراتك الحرى أنفاسي، فأدركني يا أبتاه...، أدرك حبيبتك رقية...،

لقد آن أوان الصلاة، وها أنا ذي أنتظر...، ناشدتك الله يا أبتاه...، لا تطل عليّ الغياب.

... كل ما حولي يستوقف ذكراك...، ومتى غبت عني حتى أتذكر؟!... بل أنت ماثل أمامي، ملء القلب والروح، أما العين فقد بدأ نورها يخبو لطول تباعدها عن نورك، فنورك مصدر بصري كما أنت مصدر حياتي، يا كل حياتي ووجودي...، إذ لا وجود لي سواك!

... ويقاطعني أنين حميدة...، أتنبه لها...، لقد تباعدنا يا حميدة، بعدما قربتنا آلام المصائب، فقداً وأسراً وعناء....

لقد شغلني عنك ما شغلني عن الكون بأسره...، وها أنا أعالج فقد نفسي، وأنتظر بلسم آلامي، أما أنت فما بالك تتباعدين؟!...

يجيبني صوتها تهتف بين أناتها:

«أماه...، ألا من نظرة إلى أبي تطفئ حر شوقي إليه؟!... ألم تكن الكوفة له منزلاً قبل حين، ثم مرقداً بعد ذلك؟!.. ألا أزوره في مرقده؟!...»

وتجيب عمتي أم كلثوم بقلب مقروح:

«وأنى لنا بمرقده يا ابنتي؟!... وهل لنا أن نسأل فنجاب، ونطلب فنُعطى؟!... إنما نحن أسيرات أهل البغي يا ابنتي، فلا تطمعي بالقليل...، ولا تأملي هذا الكثير!»

لهفي عليك يا حميدة...، وعلى هذه الكوفة التي حسبتِها ستكون مرتعاً لنا وملعباً، فإذا هي أزقة تضج بالناكثين، وقصر طاغية عنيد، وخربة متناثرة تؤوي بقايانا، فلا تقينا ولا تسترنا، بل هي مكان دون كل الأمكنة فحسب!

... بالأمس أدخلونا بلاد الغدر هذه، وزجوا بنا، مقيّدات سافرات الوجوه بين الأجانب، ثم ساقونا كالإماء إلى مجلس ذاك الطاغية...، لقد تكبر علينا واستكبر، ولكنه لم يلبث أن تصاغرحين استصغر شأنُنا قدره...،

على أنه أراد أن يؤذينا...، بل أن يزيدنا أذى..، أن يقتص من طهارتنا برجسه...، ولكن، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾!

لقد كادت نفسي تطير شعاعاً حين ميّزت ببصري الكليل هجومه على عمتي زينب يريد أن.... يضربها!....

والهفاه...، أعمتي تضرب؟!.... وهي بنت سيدة النساء وسيد الرجال...، وما ذلك إلا لكلمة حق قالتها في وجه سلطان جائر...، وهل تقول عمتي إلا الحق؟!..

صبراً يا عمتي، صبراً...، فقد ضرب منه شر منه، من هي خير من النساء أجمعين!

لقد خاطبها بتشفّ وحقد، يسألها بنبرة يحلو معها فحيح الأفاعي:

«كيف رأيت صنع الله بأخيك الحسين؟»

فأجابته بهدوء وصبر يليق بمثلها:

«ما رأيت إلا جميلا!»

ولما رفع سوطه ليضرب، نهاه أحد جلاوزته...، أن يزيد نقمة الناقمين.

ولكنه لم يكن قد انتهى من تشفيه بعد، فهو قد ترك عمتي، ليلتفت إلى أخي علي، الواقف أمامه مغلولاً بالحبال، فيسأله بنبرة استهزاء يقوي بها ضعفه تجاه قوتنا:

«ألم يقتل الله علي بن الحسين؟!»

فرمقه علي بنظرة طويلة، كنت أعلم أن إذلالنا بمحضره يؤذيه أكثر من وقع القيود ووقع الكلام الجارح، وأن هجوم الطاغية على عمتي قد أشعل في قلبه ناراً ما كان إلى إخمادها من سبيل، بدا لي أخي أسداً جريحاً يقف أمام حرباء جرباء، تتمايل وتحسب أنها إن تطاولت ستبلغ عنان السماء...، وأجابه بصوت لم يستطع الوهن والمرض أن يضعفا نبراته:

«بل كان لي أخٌ يدعى علياً قتله الناس!»

أراد الخبيث أن يصر على دعواه، فأجابه أخي بهدوء قهر خبثه:

«إن الله يتوفى الأنفس حين موتها!»

... لقد استشاط الخبيث غضباً من جواب أخي وقوته عليه، حتى أمر جلاديه، أن يأخذوا علياً ويضربوا عنقه!

ويحي...، لقد تعالى صراخي، بل صراخنا جميعاً...، أيقتل علي ونحن ننظر إليه؟!... أيذهب ثمالة الماضين ونبقى دونما ولي ولا نصير؟!...

نظرت حولي..، ناديت أبي بملء جوارحي، وناديت عمي...،

هجمت عمتي زينب على القوم...، رمت بنفسها على أخي علي وهي تحول بين الجلاد وبينه صارخة:

«حسبك يا ابن زياد من دمائنا ماسفكت...، ولئن أردت قتله، فاقتلني معه!...»

... وارتفع السيف...، كان ليهوي على عمتي وأخي معاً، فهاج المجلس وماج...، وهتف ابن زياد وقد بان في صوته الخوف، وهويستوقف الجلاد:

«دعوه...، والله لأظنها ودت أني قتلتها معه...، دعوه...، فإنه لما به سيموت بعد حين!»

والهفاه عليك يا عمتي...، لقد فديت أخي علياً بنفسك مرتين، وأنقذته من الموت ثلاثاً...،

والهفاه...، إن ما نحن فيه لمرير، وإن ما يمرعلينا من الخطوب لصعب عسير!

... وتبقى هذه الخربة، التي تؤوي بقايانا، رغم حقارتها وشظف المقام فيها، خيراً من القصر المنيف الذي تقطر جدرانه بدماء الأبرياء.

لقد أشارت عمتي علينا، أن لا نستقبل من أهل الكوفة أحداً...، فقد كان غضبها عليهم يفوق الوصف...، كيف لا وهم الذين خذلونا، إذ دعونا لينصرونا، ثم عدوا علينا فحاربونا، وأسلمونا وقتلونا، ثم أسرونا وسبونا، وآذونا وضربونا...، فتعساً لهم وسحقاً.

ولكن امرأة عجوزاً جاهدت لتدخل إلينا، حتى إذا سألتها عمتي أم كلثوم عما تريد، وضعت بين أيدينا طبقاً فيه طعام.!...

كان الجوع غالباً علينا...، نظرت إلى أترابي الطاوين، كانت عيونهم غائرة لفرط الجوع...، ولكننا ما كنا لنمد أيدينا إلى طعام لا ندري ما هو!

نظرنا جميعاً إلى عمتي زينب، التي قامت من موضعها، لتحمل الطعام فترده إلى المرأة قائلة:

«أما علمتم يا أهل الكوفة أن الصدقة علينا حرام؟!»

فأجابت المرأة بلوعة:

«إنما هو نذر وليس صدقة يا سيدتي، نذر قديم، وقد آن أوان وفائه!»

سألتها عمتي:

«وما قصة هذا النذر؟»

فراحت المرأة تروي قصتها، كيف أنه، وفي أيام شبابها، كان لهاولد، أصابه مرض شديد، لم يكن إلى الشفاء منه سبيل، فنذرت لله أن تطعم الطعام لقوم يدخلون البلد مستضعفين مقهورين، إن شفى الله ولدها...، ، وتابعت المرأة، بصوت ضعيف يستدرج الذكريات:

«أي سيدتي...، لقد رأيت في تلك الليلة رسول الله، وإلى جانبه غلام أشبه الناس به، فشكوت حال ولدي إلى رسول الله، فالتفت إلى الغلام وقال: «بني حسين، ضع يدك على رأس هذا الصبي!».. وأفقت من رؤياي، والذي نفسي بيده، لقد منّ الله على ولدي بالشفاء...، ومرت الأيام، ولم أفِ بنذري، كنت أنتظر الإشارة...، إذ لم يدخل البلد قوم أتوسم فيهم وفاء نذري، حتى رأيتكم، فدخل في قلبي أنكم أنتم أصحاب النذر....، فلا تردوني خائبة يا سيدتي، بالله عليك!»...

نظرت عمتي إلى المرأة هنيهة، ثم تنهدت قائلة:

«أتعرفين ذاك الغلام الذي شفى ولدك؟...»

وغصت وهي تتابع:

«قفي على باب الخربة، وانظري...، إنما تنظرين الآن إلى أهله وعياله!...»

وصرخت المرأة وأعولت، حالما تبينت الأمر، وبكينا نحن، وهدّأتها عمتي إذ أشارت إلينا بقبول الطعام...، لقد تقبل الله نذر المرأة المسكينة، التي خرجت من خربتنا مجبورة الخاطر بوفاء نذرها، ولكن مكسورة القلب بما تبينته من أمرنا...، لقد بكينا طويلاً بعد، ومزجنا الطعام بدموعنا، وأكلناه هبة من يد جدنا، أرسلها إلينا عبر سنوات طويلة، لتصلنا....، لتذكّرنا بأن جدنا بكى على مصابنا قبل أن يكون، وذرف دمعته علينا قبل أن نولد...، حتى إذا كنا وصرنا، كان معيناً لنا حينما عز المعين.

... كان ذلك الطبق هو طعامنا منذ ثلاث...، وقد ذكرني بطعام جدتي فاطمة، الذي أتاها من عند الله يوم جاءها جدي رسول الله جائعاً فلم يكن لديها ما تطعمه...، لقد انكسر قلب جدتي يومها، فجبر الله قلبها بأن أطعمها وأباها وزوجها وأطفالها، وحتى جيرانها من طعام أهل الجنة ذاك!

ولئن استطعنا أن نسد غائلة الجوع عنا بذلك الطعام المختار، فإنا لم نستطع أن نسد غائلة الخزي والهوان، ساعة نودي على باب الخربة، بأن تخرج نساء الأنصار لموافاة عشائرهن التي أتت لاستلامهن!

وهبت نساء الأنصار يودّعننا، ويرحلن عنا، بعدما جمع بيننا وبينهن المصاب، وفرقتنا الأنساب والأحساب.

ولئن كان نسبنا خير نسب، وحسبنا لا يعلو عليه حسب،

فهو حسب ونسب خاتم الأنبياء، إلا أننا كنا الأقل حظاً اليوم في سلسلة أنساب العرب!...

لقد صارت كل عشيرة تنادي على نسائها وأطفالها، فرحلت النساء إلى عشائرهن...، ولكن عشيرتنا لم تأتِ.

وسألت عمتي مخذولة:

«عمة زينب، ما لبني هاشم لا يرفعون أصواتهم خارجاًويطلبوننا؟... أليسوا هم عشيرتنا؟!...»

هزت عمتي برأسها:

«وأي بني هاشم تعنين يا بنيتي؟... أولئك المجزرين كالأضاحي على رمال كربلاء، أم أولئك النائين عنا في مدينة جدنا، وقد غاب عن علمهم الخبر، وهم لو خبروالما استطاعوا الوصول إلينا، ولو وصلوا لما استطاعوا افتداءنا...، إن هؤلاء القوم لن يرضوا منا بأقل من سبينا وإذلالنا...، إن السبي قد كتب علينا ولا مناص لنا منه، فالله المستعان وإليه ترجع الأمور.»

«بل رأس بني هاشم عنيت، سيدهم وكبيرهم، سيدي ومولاي ووالدي، حبيبي وقرة عيني الحسين...، ألن يأتي ليفتدينا؟!... ألن يهب لاستخلاصنا من براثن هذه الوحوش الكاسرة؟!... ألم يؤن له أن يأتي بعد؟!...»

هذه المرة لم تصمت عمتي زينب، بل ازدردت غصة قبل أن تقربني إليها وتمسح على رأسي بحسرة لا تنتهي، وهي تقول:

«إن أباك يا بنيتي في سفر طويل...، ولم يؤن أوان رجوعه بعد!»

... للمرة الأولى أسمع جواباً واضحاً...، صحيح أنه اعتصر قلبي حتى صار كالهشاشة، وأحرق أنفاسي حتى ذراها في الهواء، ولكنه كان جواباً...، فانتحيت زاوية الخربة أفتش عن ملجأ أسكب فيه وحدتي،... أفتش عن أخي علي، لأدفن في قلبه جثمان قلبي الذي بدأ يتهاوى...، عساي أسمع منه كلمة تحييني...، ولكني لم أجده!...

رحت أنظر حولي بجزع شديد...، عزوت فقدي له إلى كلالة بصري وألم عينيّ، أني لم أره...، ولكن صوت سكينة الذي ارتفع قربي، تسأل عمتي عنه، أكّد مخاوفي....

كدت أرفع صوتي منتحبة لفقده، أنا التي لم أعد أستطيع تحمل فقد أو ابتعاد، ولكن جواب عمتي لسكينة سكّنني:

«إنه في حفظ الله وصونه...، إنه غائب لأمر....»

.... وانتظرناه...، ظلت عيوننا جامدة على الفراغ الذي كان يحتله، وقد امتلأت قلوبنا وحياتنا فراغاً في فراغ، ، حتى.... وجدناه فجأة بيننا...، كان بادي الوهن فوق وهنه، بادي الجزع فوق حزنه، على أثوابه الرثة التي أخلقها شظف الأسر، آثار دماء وتراب!

ارتفعت أصواتنا تدعوه...، وسألته عمتي زينب والهة:

«أين كنت يا ابن أخي؟!»

فاستدار ليتهاوى في مكانه فوق تراب الخربة محزوناً مغموماً، ويدفن وجهه الكريم، ناحلاً شاحباً بين كفيه المباركتين، الملطختين بتراب ودماء، ويتكلم بصوت بالكاد سمعت بعضه وخفي عليّ بعضه:

«الآن فرغت من دفنهم....»

أنّت عمتي زينب، وتأوهت عمتي أم كلثوم، وارتفع النحيب حتى ملأ جوانب الخربة، وجوانب القلوب، وارتفعت الأصوات:

«إلى الآن لم يدفنوا؟!... إلى الآن هم بالعراء تسفي عليهم ريح الصبا؟!... إلى الآن تصهر الشمس أبدانهم، وتأكل عسلان الفلوات أجسامهم الطاهرة؟!....»

... وكان الجواب، من أخي علي...، وربما من صفوف الملائكة المحدقين بمكاننا، بالرؤوس المنتصبة فوق الرماح المزروعة على بابنا...، أن وحوش الصحراء لم تقربهم، إلا لتتمسح وتتبرك...، أنها وحوش رؤوفة عطوفة، بكت وأنّت، وسالت دموعها على قوائمها...، إنها أرأف بكثير من تلك الوحوش التي مزقتهم، واستحلّت بحرمتهم حرمة الإسلام، وحملت ذراريهم على أقتاب المطايا، تطوف بها من بلد إلى بلد...، إن وحوش البشر لأشرس وأشد فتكاً من وحوش الصحراء!..

الـكـوفـة،

الرابع عشر من المحرم،

سنة إحدى وستين للهجرة

لم تكن صاحبة النذر الزائرة الوحيدة التي زارت خربتنا، بل لحقت بها أخرى اليوم....، امرأة محنية الضلوع، يكشف وجهها عن هم جسيم، فلما صاحت بها عمتي زينب تقول:

«يا نساء الكوفة، ألم أقل لكن لا تدخلن عليّ؟!»

حنّت وبكت ورفعت صوتها تجيب:

«سيدتي، والله ماجئتكم شامتة ولا متفرجة، وما أنا بعدوة لكم أهل البيت...، إنما أنا أمةٌ من إمائكم، وخادمةٌ على بابكم...، نصرت غريبكم «مسلم»وآويته، ولو استطعت أن أفديه بروحي لفعلت!»

... أقبلت عليها عمتي تسألها من تكون، فأجابت وهي تبحث بعينيها الدامعتين بيننا:

«أنا طوعة...، مولاتكِ طوعة...، وقد نزل ببابي غريب الكوفة مسلم بن عقيل...،بعدما تفرّقَ عنه الناس،... وقد آويته

وحميته، ولو استطعت لفديته، ولكن القوم اغتالوه.... والله إني لثاكلة، ولوأني فقدت ولدي لما كنت أشد لوعة مني الآن...، ولكن، عندي منه وصية، لبنت له تسمى حميدة.....، فهل هي معكم الآن؟!»

.... هدأنا واستكنّا...، وتباعدنا...، حتى أقبلت عمتي أم كلثوم، تشهق بدموعهاوتجر حميدة...، فما إن رأتها المرأة حتى ضمتها وشمتها وقبّلتها وضعتها في حجرها، وصارت تمسح على رأسها باكية وتقول:

«أي حميدة...، لقد انتظرتك طويلاً لأنقل الوصية...، إن والدك يقرئك السلام يا ابنتي....، أي بطل همام كان أبوك يا حميدة...، لقد حاربهم وناجزهم، ولولا الحيلة لما قدروا عليه...، حتى إذا أخذوه أسيراً، لحقت به إلى باب القصر، وبيدي قدح من الماء كان قد طلبه قبل أن يوثقوه غدراً...، لقد كان ظمآناً يا ابنتي، ولكنهم لم يمهلوه ليشرب...، وفيما أنا أنتظر، إذ رموا به من أعلى القصر بعدما ضربوا عنقه!»

... تزايد بكاؤنا...، لقد نكأت طوعة جرح عمي مسلم، الذي كانت قد أسكنته جراحنا، بل هي نكأت كل جراحنا...، لقد انضم عمي مسلم إلى ثلة شهداء كربلاء، بعد أن قتل كإياهم ظمآن محتسباً، في سبيل نصرة والدي الحسين!...

... وسألت عمتي أم كلثوم وهي تغالب دموعها:

«وما الوصية يا أخية؟!»

طأطأت المرأة رأسها وهي تقوم من مجلسها متخاذلة وتمسح دموعها بكمها، وتقول:

«لقد أديتها يا سيدتي...، لقد تذكر سيدي مسلم ابنته حينما علم بأن يومه قد دنا، وأوصاني أن أبلغها السلام، وأن أقبّلها نيابة عنه...، وقد فعلت...، فاعذروني إن كنت قد تأخرت أو قصّرت، فقد انتظرتكم، منذ استشهد غريباً مظلوماً حتى هذا الوقت!»

.... ومضت المرأة تجر دموعها وآهاتها، وتركت خلفهاحميدة، تنظر حولها ملهوفة مفجوعة...، تتحسس وجهها تارة، حيث أودعت طوعة قبلة والدها، ورأسها تارة حيث أودعت مسحته وحنانه... وانفجرت بالبكاء!....

سعيت إليها، اعتنقتها، وصرنا نبكي معاً....، هي تندب أباها الذي رحل، وأنا أندب أبي الذي رحل ولم يرحل...، كان فؤادي يزداد فراغاً، والمدى أمامي تحتله الرؤوس المنتصبة فوق الرماح...، ورأس أخي علي الأكبر يملأ ناظريّ الكليلين بنور طلته...، ولكن نوره لم يكن كافياً ليعيد إلى عينيّ البصر، لقد كانت الدموع التي أذرفها ليل نهار، كافية لتعشي عيني، ولكني لم أكن أستطيع أن أمتنع عن البكاء...، كلما طال سفر أبي، زاد بكائي، وكلّ بصري، ويبست عروقي وتجمدت دمائي..،

رباه...، كم سأصبر بعد؟!... إلى متى سأنتظر؟!... كم سأستطيع الإحتمال؟!... لست أدري!...

الـكـوفـة،

التاسع عشر من المحرم،

سنة إحدى وستين للهجرة

... لم أعلم قبلاً أن مرور الساعات الثقال يفتك بالصبر كما تفتك النار بالحطب...،

لا أقول عيل صبري...، فقد رضعنا، نحن بنات محمد، من لبن الصبر ما بنى عظامنا وكساها لحماً...، ولكن ما نعانيه اليوم لا تحمله الجبال، فكيف بنا، ونحن عيال وأطفال، في غربة عن القلب والروح والأهل والوطن، تباعد عنا الأولياء، وفقدناهم قتلاً وتشريدا، نلبس من بعد العز الأسمال، ونجر بعد ستور الجلال الأغلال، ونخرج من بعد الخدور إلى الأزقة بين الرجال...، ينظر إلينا، بعدما كنا مستورين عن العيون، القاصي والداني، ويحف بنا أراذل القوم بعدما كانت تحوطنا الأبطال!...

أوليس كل هذا في شرعة الصبر محال؟!...

أي واأبتاه...، إلى الرحيل اليوم قد نودي بنا...، وقبل الرحيل، انتزعوا الرؤوس المصلوبة على بابنا، وأرسلوها، لا

أدري إلى أين....، شعرت بأنني أفقد أخي ثانية، أنه ينسلخ عني كما انسلخ أول مرة...، وعلمت أن في الرؤوس رأس عمي مسلم...، أنبأني بذلك صوت حميدة، التي جلست قبالته في الأيام الماضية مراراً، تخاطبه وتناجيه، وأقرحت جفني بشجو عتابها...،

حتى سكينة، كانت تخاطب عمي العباس حيناً، وتخاطبك أنت أحيانا، لست أدري لماذا.....، ربما تأسياً بحميدة...، وربما كما أخاطبك أنا الآن، حنيناً واشتياقاً، لأنني أعلم يقيناً، أن ما نحن فيه يصير إليك، وتعلم به، وإن تباعدت الأسباب...، ولكن، كلما فكرت في أنك عني بعيد....، أرى روحي تتململ في كياني، ولا أطيق...، أبتاه...، إنني أكره الرحيل، فمع الرحيل بدأت القصة، ومع هذا الرحيل...، هل ستنتهي؟!... لست أدري!...

... وكما دخلنا هذا البلد المشؤوم، خرجنا منه، متوجهين إلى بلد..، أظنه أشد شؤماً منه!... وكيف لا يكون أشد شؤماً، وتجهيزنا للخروج إليه كان أشد ضراوة من تجهيزنا للخروج إلى الكوفة؟!...

أما الأقتاب والمطايا المهزولة، فهي هي...، وأما أخي علي، فقد صُب جام الحقد عليه...، وبدل الحبال التي شدوها على معصميه إذ ذاك، كانت الأصفاد والأغلال...، وجامعة أحاطت بعنقه..، لهفي على دمائك الجارية يا أخي من أثر الأغلال، لهفي على أنينك الذي يقطّع نياط قلبي، وأنا أعلم أنك

إمامي...، وأنك لا تئن إلا لعمق المصاب، فخذ أنيني يا أخي، وتواسَ بعمق حزني، تواسَ بكلال بصري، حتى أنني بالكاد أبصرك...، ولولا النور المحيط بك المتدفق من محياك، لما أبصرتك، أواه...،

ما أعظم المصاب، ولا يخفف غلواء اللوعة إلا الأمل باللقاء، ولو بعد حين...،

إذاً...، على الأمل أحيى، ومنه أرتوي وأقتات، ومعه أتحمل كل شيء، حتى ضرب السياط التي الذي لايفتر، ولسع اللسان الذي لا يتوقف، ولسع النظر الذي..... أسدل عليه غشاوتي، وأنساه.

إلى الملتقى يا أبتاه...، سأتحمل...، سأروض نفسي، على أن أتحمل...، طالماأن الملتقى بعد حين!...

من الكوفة إلى الشام،

الواحد والعشرون من المحرم،

سنة إحدى وستين للهجرة

... إنني، ومصداقاً لوعد والدي، حين أسرّ لي يوم كنا بكربلاء...، أعلم يقيناً...، أنني، مع السير قُدُماً، في السبيل إلى اللقاء بأبي!

... رغم أني أعلم أننا متوجهون إلى ذلك الطاغية الجديد المدعو يزيد، ولكنني أعلم أن لقاء أبي ينتظرني...، ولذا أجدني صابرة متشوقة، وربما، أنتظر على أحر من الجمر ساعة الوصول...،

لقد أرعبتني الفكرة في البداية، أن يكون لنا هذا الخبيث بالمرصاد، فقد حملت عنه صوراً شتى، منذ خروجنا من المدينة حتى الساعة...، وسمعت باسمه مراراً...، كان لي حلماً مرعباً، فقد بدأ باسمه الملعون أول فصول الحكاية المريرة، التي وصلت بنا إلى هنا...، ولا أدري ما يكون دوره بعد...، من الآن حتى نهاية الفصل الأخير!

أجل، فرغم كل شيء، أشعر أن لحظات اللقاء تقترب، مع كل خطوة نخطوها إلى الأمام.

والخطوات تتعثر فوق أشواك وعثرات، ولكنها تستمر...، والأرض تطوى تحت أقدامنا، وأرجل مطايانا المعروقة المهزولة، ولكنها تطوى.....

.... نمشي فوق الرمال ونمشي، وكأننا لا نمشي، فالمشهد يتكرر، كثبان ورمال في المدى، وقساة عصاة من العدى، يحدوننا بالمسير،

... المشهد يتكرر...، منازل ننزلها، فينصبون خيامهم وموائدهم يأكلون ويشربون...، وننتحي ركننا، ركن الحطيم، نلوذ بأخي علي، نتحلق حوله، نستمد القوة من صبره، والسلوى من عطفه، ونركن إلى عمتي زينب، نتعلق بأذيالها...، نشم فيها رائحة الغائب الذي أطال الغياب.

ولكن...، رغم كل شيء...، أشعر أن لحظات اللقاء تقترب، مع كل خطوة نخطوها إلى الأمام.

... عيناي تؤلمانني...، حرارة الشمس قد زادتهما ألماً وعلة، فربطت عمتي عليهما خرقة بالية لتحميني من الأشعة الساخطة....،

... ها عينيّ قد حميتِهما الآن يا عمتي، وها جسدي قد

تلقيتِ عنه السياط مراراً...، ولكن أنى لك أن تحمي فؤادي الذي تجتاحه حمى الصقيع منذ كانت الواقعة...، إن دفء صبرك قد سكّن حمّاي، ولكنه لم يعافني...، إن دائي هو الفراق، ولا دواء له سوى الوصال...،

أبتاه...، أنا قادمة إليك، بل أنت قادم إليّ....، لن أتأخر عليك فلا تتأخر عليّ!...

ما عرفتك إلا وافياً لعهودك، وقد عاهدتني...، ضربت لي موعداً للقاء...، وأعلم أنك ستفي بعهدك...، وإن كنت لا أدري متى...، ولكنني أعلم ذلك...، وأعيش على أمل ذاك اللقاء!

على الطريق إلى الشام،

الثاني والعشرون من المحرم،

سنة إحدى وستين للهجرة

اليوم تغير المشهد...،

ففي المدى المتلوي بالرمال قدماً، بدت رؤوس الأسنة، والرؤوس.

لم أرَ المشهد، بل سمعت...، كان النداء بأن رؤوس الأحبة أمامنا، والعيون التي لم تمل ذرف الدموع، والحناجر التي أبحها النحيب، والمتون التي سودتها السياط...، كل ذلك كان شاهداً...، عندما برزت الرؤوس في المدى.

إذاً...، أخي الأكبر هناك، عمي مسلم، ولده عبد الله، القاسم، و... و....، كل الأحبة...، يتقدمون الركب...، يريدهم الطغاةرُسُل المصاب، فإذا هم فاتحة الكتاب...،

... وإذا هم يميزون العدو من الصديق...،

ورب قرية دخلناها فكان لها علينا أنين وحنين...، ثم صهيل

جياد وقرقعة سلاح، ثم معركة أريد بها استنقاذنا من براثن الباغين، فسقط شهداء، ونزفت دماء....، ولكن...، عدنا نجد المسير راغمين، إلى حيث لا أدري...،

... فقط أدري...، أنه قد استمر المسير...

وأننا...، رغم وعثاء السفر...، ومرض ينتاب البعض، وألم لا يفارق الكل...، لا نزال نجد المسير راغمين...،

على طريق الشام،

الرابع والعشرون من المحرم،

سنة إحدى وستين للهجرة

أبتاه...، اليوم أيضاً تغير المشهد...،

... بل جرى أمر كدت لهوله أفقد حتى ثمالة الصبر، الذي أتسلح به لمواصلة الإنتظار.

... وكيف لا أفقد ثمالة الصبر، وقد أوجعني مصاب جديد، مصاب قاهر، حتى كدت أتخلف عن الركب...، وأغرق في عتمة الصحراء...، وتبتلعني ثنايا الرمال، فلا أصل إلى مبتغاي!

أبتاه...، اليوم...، وفيما المطية تؤرجح أوصالي، وتهزهز الرمال التي أظنها عالقة بجفنيّ، تمنعهما عن التفتح والنظر، فتنجرح حدقتاي، وأحس فيهما ناراً تستعر...، فيما أنا أتأمل صورتك الماثلة في فضاء مخيلتي، أتسلى بها عما بي، وأتناسى أوجاعي وآلامي وعنائي...، وإذا بصوت يتناهى إلى مسمعي، صرخة تملأ عليّ آفاق خيالي، وتكاد تطمس الصورة...، بل يغشّيها احمرار ونجيع...،

لقد كان صوت سكينة...، تشكو همها لباريها، ويرتفع صوت بكائها كعادتها منذ أحاطنا البلاء، وكعادتها تتلقى وقع السياط على متنها، لتصمت...، ولكنها بدلاً من أن تبتلع غصتها كعادتها أيضاً، وتصمت بقهر، فهي قد تململت، زاد بها الألم، وأطلقت شكواها في المدى مبحوحة النبرات، لا تريد الصمت:

«أواه...، أي واأبتاه...، أي واعماه...، واذلاه بعدك يا أبا الفضل...، أهكذا تتركنا ياعماه...، أهكذا تنظر إلينا من مكانك الرفيع فترانا ولا تحرك ساكناً...، أهكذا ترى ما يفعل بنا..، أَنضرب ونجلد أمام ناظريك وأنت في عليائك لا تتدخل؟!... لقد حميتنا وسقيتنا وأغثتنا، وكنت نعم الحامي والساقي والمغيث...، ألن يأذن لك المولى أن تهبط من قبتك، أي قمر العشيرة، لتحمينا وتغيثنا؟... إيه يا أبا الفضل...، إما الغوث الآن، وإما فلا!....»

لقد ارتفع مع نداء سكينة بكاء النسوة وصراخ الأطفال...، وارتفع صوت الجلاوزة يأمرون بإسكاتهم...، وصوت السياط ترتفع وتهبط من جديد، لقد نالني منها ما نالني، ولكن ما نال فؤادي من نداء سكينة كان أشد وأدهى...، فلقد شعرت بالعصابة على عينيّ تخنق أنفاسي، فأزحتها بصعوبة...، ورحت أحاول النظر بصعوبة أكبر، لأتبين ما هناك.

للمرة الأولى، منذ سمعت نجوى سكينة، وقد سمعتها طويلاً، أردت أن أتحقق من مخاوفي.

رغم أن ما راودني كان فظيعاً، ولكني أردت أن أتبينه...، لم يسعفني نور النهار وشعاع الشمس، فقد كان الوقت ليلاً، أنبأتني بظلمته برودة الصحراء.

ولم يسعفني نور البصر وشعاع الباصرة، فقد كانت الغشاوة على عينيّ بازدياد...، ولكن أسعفتني يداي، اللتان أمسكت بهما ذراع سكينة،القابعة قربي،على راحلة عجفاء أخرى، ورحت ألحّ بالسؤال:

«سكينة، بالله عليك يا أخية...، بحق أبينا، بحق أخينا علي الأكبر، وأخينا عبد الله الرضيع، بحق عمنا العباس الذي كنت تناجينه قبل لحظات، أخبريني، ما تقصدين؟!...»

أنّت طويلاً وهي تجيب:

«أوليس قصدي واضحاً يا رقية؟!... ألم يؤن لك أن تدركي بعد؟!»

عدت ألحّ أكثر من السابق، وأسأل بوله شديد:

«سكينة، بحق غياب والدنا....، أتنادين عمي العباس؟... أترينه من حيث لا أراه؟... أخبريني أين؟!»

... لم تجب، بل أمسكت بيدي القابضة على ذراعها، ووضعتها على... قبضة سنان بارد...، ورفعت ذقني إلى الأعلى وقالت:

«هناك!»

حاولت أن أستجمع كل قدرتي على البصر، مذ ولدت حتى الساعة، وكل أنفاسي المكبوتة المنكمشة على أمل اللقاء...، ولمحت شيئاً..،

رغم أن الليل كان دامساً، إلا أنني رأيته!

ورغم الغشاوة المنسدلة أمام ناظريّ، إلا أنني رأيته...،

كان يطلّ علينا من علُ...، رأساً أزهر وضّاح الجبين، مضرّجاً بالدماء...، رأساً.... فحسب!

امتلأ الكون حولي دماءً....

والأرض والسماء ضباباًوظلاماً...، تخبّطت أنفاسي...، ربما بلغت روحي الحلقوم...، واختنق صوتي...، غصصت فما عدت أستطيع الكلام...، وغطّت سكينة وجهها بيديها وأشاحت عني لكي لا تراني، وانخرطَتْ في بكاء مكتوم....

... وتابع الركب المسير...، أما أنا فكنت لا أزال أعالج غصتي...، لم يكن بمقدوري أن أخرج هول المصاب من أعماقي؛ صراخاً، نحيباً، نداءً أو مناجاة...، أي شيء...، ولكنني لم أستطع...، اختنقت أكثر...، وفقدت الشعور بكل ما حولي، وتهاويت...،

وتلاطمت رمال الليل أمامي...، فرحت أغوص في ثناياها، لا صوت يسعفني فأستنجد، ولا بكاء...،

وغبت أمداً لا أعرف مداه، وعندما أفقت، فتحت ناظريّ...، فتحتهما على الفراغ...، ولم أعد أميّز حتى الظلام...،

ولكن، عندما بدأت أميّزه، شعرت بصلابة الأرض تحتي، وثقل السماء...، لا أتأرجح ولا أهتز...، لا من مطية، ولامن رمح يعتليه رأس عمي الحبيب...، لا من سكينة، لا من أخي علي، لا من عمتي زينب...، لا من أحد!....

كنت وحدي...، والسكون يحيط بي، يلفني بأشواك الفزع والوحدة، فوق الرمال الباردة...،

... عفوك يا أبتاه....، عفوك يا صنو روحي...، أعلم أني لم أكن وحدي، فالله الحافظ معي، وعينك الحنون الدامعة على وحدتي، ترعاني...، ولكن، كان جسمي الصغير المتألم المتلهف لضمتك الحانية، يتلوى اشتياقاً وصقيعاً...،

وانطلق صوتي المحتبس، وتلاحقت أنفاسي...، وصرخت أدعو عمي العباس، أن ينتظرني،... وأدعوك..،

ورحت أعدو فوق الرمال...، فوق أشواك الصحراء...، لم أعلم أنها وخزتني وطعنت أقدامي، إلا عندما شعرت بسخونة الدماء المتدفقة...، لم أبالِ...، فالدم قد صار وضوءنا لكل صلاة، وبه تكفنت أجساد أحبتنا بعد الممات.

إيه يا عماه...، إيه يا أبتاه!...

أحقاً قد فقدتَه وفقدناه؟!... أحقاً قد لحق بالسابقين إلى جنة الخلد، وتركنا ها هنا؟!... وتركك أيضاً؟!...

أبتاه...، إذاً من يداوي جراحك؟... من رفعك من تلك الكبوة وأخرجك من ذلك الخطب المهول؟!...

أعذر سؤالي...، أعلم أنك لو شئت لما خرجت من هناك فقط، بل لنلت الغلبة على القوم الظالمين، فقد علمت أن الملائكة احتشدت لنصرتك على طريق كربلاء، ولكنك أبيت إلاّ أن تنال أقصى درجات البلاء!

إنك لأمر لا أدريه...، لم تدعُ برفع البلاء...، وعشته حتى الثمالة...، حتى...، لست أدري...، وأخشى...، أخشى ملء روحي أن أدري!

... ولكن شعوري لا يكذبني...، أعلم أنني سألقاك هناك...، حيث تتوجه القافلة على طريق الوصول...، وأعلم أن الرحلة مهما استمرت وطالت بنا، فهي لن تطول...،

ولكن، ويحي...، أين أنا من الرحلة؟... من الركب الماضي قدما لا يريم صوب الوصول؟!...

وعدت أعدو...، والدموع تزيد ألم عينيّ، والريح اللاطمة خدي، والظلام...، والأشواك تزيد وخز قدميّ...، إذلاح لي في المدى نور يقترب!

هل هي أنوار الركب؟!...

رفعت صوتي أكثر...، واقترب النور...، كان بهياً ساطعاً، أبهى من أي نور رأيته من قبل...، وارتجف فؤادي...، رغم كلالة بصري، رأيت وجهاً يطلّ ويقترب...، وامرأة مجللة بالسواد....، كلا...، لم تكن عمتي زينب، بل.... كانت تشبهها...، كان النور منبثقاً من وجهها أكثر...، أشبه بنور والدي!

وصلت إليّ...، فتحت ذراعيها، فارتميت في أحضانها، وبكيت...، بكيت كما لم أبكِ من قبل، إلا بين يديك يا أبتاه...،

وتنشقت عطراً، ليس في العطر ما يشبهه، سوى عطرك...،

وتحسست دفئاً...، لم أتحسسه منذ أمدٍ، منذ فارقتك...، إنه دفئك يا أبتاه...،

ولكن، لم تكن أنت...، بل كانت «هي»...،

قلبي وروحي، كل كياني يقول أنها هي...، وصوتها الذي راح يهدهدني، يواسيني...، لم أسمع أعذب منه ولا أرق، لكنه كان مبحوحاً، كأنما بكت طويلاً...،

علمت أنها هي...، أمي...، سيدة النساء...، أمك يا أبتاه...، أمنا فاطمة...،

وازداد نحيبي...، أردت أن أفرغ كل همي...، أن أبثها كل شكواي...، فاعتنقتني...، ضمتني إليها بشدة، ونادتني بحبيبة

الحسين...، آنستني ضمتها، وددت أن لا تنتهي...، وددت أنها تأخذني إليها...، ولكن...،تحسّست موضع المسمار،والضلع المكسور،...فازداد بكائي،...

... أتانا صوت من المدى...، صوت عمتي زينب تناديني، وتعدو نحونا...، تماماً كما عدوت أنا قبل قليل، وتهتف بلوعة...،

ووصلتنا عمتي...، وما إن رأتنا حتى تهاوت..، وجثت على ركبتيها.....

للمرة الأولى في حياتي أرى عمتي تجثو أمام أحد سوى بارئها...، لقد عرفَتها...، إنها أمها الزهراء...،

جثت أمامها بانكسار، بحرقة، بذهول...، وفاض بها الحنين والأنين، سكبت بين يديها دموعاً وآهات وزفرات...، ودفنت في صدرها المكسور كل انكسارها وهمها...،

ثم كان لا بد من الفراق...، فانتقلتُ منها...، إليها!...

اعتنقت يد عمتي، وعدت معها إلى القافلة الثاكلة، وأنا ألتفت إلى الوراء...، ولكن، كان لا بد من أن نتابع المسير...، إليك!

وهناك...، وافتني سكينة ملهوفة، وضمتني بحرقة واشتياق، كأنما قد عاد عبد الله!

وسمعت همساً:

«الرمح الذي يحمل الرأس قد انتصب وارتكز...، لم يعد يتحرك، كانت دلالة لم يعرفها إلا علي بن الحسين، أن طفلة قد سقطت من الركب...، من الخير أننا عدنا...، وإلا...، لا بأس بأننا عدنا...، فلعلنا كدنا نفقد جائزة ما...»

وتلا الهمس ضحك مكتوم، كاد يرعبني، لولا أن ما تزودته قبل قليل من زاد الصبر، كان يكفيني لما تبقى من الرحلة...، ولربما زيادة!

على طريق الشام،

الخامس والعشرون من المحرم،

سنة إحدى وستين للهجرة

... يا رب...، رحماك يا رب...،

ما لهذه الرحلة لا تنتهي!... مالها تطول وتطول...، ويجول في ثنايا أيامها شروق وأفول...، ومعارك تصول وتجول..، وأقوام لا نعرفهم، يبكون لحالنا، يفزعون لنجدتنا...، يُقتلون لأجلنا...، فنبكي رحمة بهم، نحن الذين لا نكل ولا نمل من البكاء.

ولكن هؤلاء الجلاوزة الذين يحفّون بنا، لا يزالون يحفّون...، عجيب أمرهم...، أي جائزة هذه التي يوعدون، فيبيعون لأجلها أرواحهم ويشترون غضب الرحمان وسخطه؟!...

ألا يرون ما نرى؟!... ألا يعلمون ما نعلم؟!... أليسوا مسلمين؟!...

ويجيبني صوت حر أراد نصرتنا فيمن نصرنا من الأحرار...، كان يخاطب الطغاة الذين يسوقوننا أمامهم كالأغنام، ويواجههم بلسانه قبل يده:

«المسلم من سلم المسلمون من يده ولسانه، كذا علّمنا جد هؤلاء...، وأنتم حاربتم وقتلتم وشرّدتم أبناءه وعياله وذراريه، سادة المسلمين، قولاً وفعلاً...، فكيف تكونون مسلمين؟!..»

... وبعد معركة جديدة...، عرجت إلى الجنة أرواح طاهرة...، وبقينا نحن في أغلالنا...، قد أبت الأرض أن تفلتنا، وإن اجتذبتنا السماء...، وتنازعتنا كلتاهما...، ولكن جرت المقادير بما أراد الخالق وشاء...،

إنه لم ينتهِ بعدُ ما قُدّر لنا من بلاء!...

... وأُخبرت أن القوم أنزلوا الرؤوس عن الأسنة ووضعوها في صناديق مغلقة...،

لعل شعاعها أعمى عيونهم، فما عاد بوسعهم النظر...،

ولعل خوفهم من الأبطال الممتطين صهوة الرماح، غلب على اغترارهم بما جنت أيديهم...،

يخافونهم ويرتعبون...، وهم لأهلهم يُرهبون ويُشردون...، إن لهم ليوماً ينالون فيه ما يحذرون...، فمهلاً.... مهلاً أيها المجرمون!...

على طريق الشام،

السادس والعشرون من المحرم،

سنة إحدى وستين للهجرة

... لم تعد الطريق آمنة...، لهم لا لنا...،

فنحن آمنون أينما كنا...، حتى ولو بين براثنهم!

أما هم...، فقد فضحت أحوالنا سرائرهم، وصار مكوثنا بين أيديهم هماً يقتلهم ويقضّ مضاجعهم...، فقد سمعتهم مراراً يشكون...، تارة من مرسلهم، لعينهم ابن زياد، ويلعنونه...، وتارة من صاحبهم الموعود، الألعن يزيد، فلا يجرؤون على لعنه...، يخشون بعضهم بعضاً...، ويلعنوننا، فلا يخشون الله...،

ما لهذه الدنيا قد انقلبت موازينها، وصار الخيرفيها مستقبَحاً مكروهاً، والشر مستساغاً مستحباً؟!... إنه حقاً لأمر عجيب.

لم تعد الطريق آمنة لهم...، فرغم أن الرؤوس التي كانت ترهبهم، وتعلن تجبرهم وانتهاكهم حرمة الرسول، رغم أن الرؤوس أخفيت في صناديقهم، إلا أنهم لم يعودوا يأمنون معرفة الناس بنا، ومن ثم نصرتهم لنا، فصاروا يمضون بنا بأسرع مما

كانوا يفعلون، ويؤوونا ليلاً حيث يأمنون....، يجدّون السير، ونحن نجدّ في إثرهم راغمين...، لا تؤخرنا عثرات الطريق، ولا العناء الذي نعانيه، ولا حتى المرض..،

... ها هو أخي علي، يزداد ضعفاً وعلة، وإن أنينه يكاد يذيب الجَلَد عن قلوبنا...، وإني لأسمع عمتي تحاوره:

«ما بالك تئن يا ابن أخي؟!... ما عرفتك إلا صابراً...، ألا تصبر وتحتسب آلامك في هذه الدنيا؟!... أَوَبي حاجة إلى نصحك يا حجة الله؟!»

«ما للألم أئن يا عمة...، بل أئن لما يُفعل بكن، وأنا غير مأذون أن أغيّر أو أبدّل...، ما كان للألم أن يذيب حشاي، ولا لهذه القيود الموثقة حول معصميّ وقدميّ، وهي تقطر دماً...، ولا لهذه الجامعة الملتفة حول عنقي تكاد تذيب لحمه...، ما كان لكل هذا أن يحملني على الأنين، فإن لنا في رسول الله أسوة حسنة، وعزاء... ولكنها السياط المنهالة عليكن بين الحين والحين...، أي واعمتاه...، ما لجسمي المدمى أبكي، بل لأجسامكن المقرّحة من لطم السياط وكيد العتاة! أللهم لا اعتراض على قضائك يا رب...، أللهم أوزعنا أن نشكر نعمتك ونصبر على بلائك...، ولا تجعلنا من القانطين».

فتزفر عمتي من كبد حرى:

«أجل، تأسَّ يابن أخي بجدك أمير المؤمنين، فما أنت بأكثر بلاء منه، كما نتأسى نحن بأمنا فاطمة، وما نحن بأكثر بلاء

منها...، لقد شهد جدك أكثر مما تشهد، ولُطمت أمنا بأقسى مما نُلطَم، ولولا ما شهده جدك وما جرى لأمنا، لما شهدتَ أنت ولما جرى لنا كل هذا...، عند الله نحتسب ما جرى ويجري، وبه نستنصر ونستعين، فهو نعم المولى ونعم النصير!»

... أبكاني الحديث...، فأشارت إليّ أختي سكينة بأن أتوقف عن البكاء قائلة:

«إن الدمع يؤذي عينيك يا رقية...، بالله عليك يا أختاه، لا تذرفي الدمع بعد...، إن بصرك يكاد يذهب إلى غير رجعة!»

وأجيبها بقلب ذائب لوعة وحنيناً:

«ما حاجتي إلى البصر يا أختاه؟!... لئن لم يكن البصر ليكشف لي عن وجه أحب الناس إليّ، فلا أريده...، دعيني أبكي يا أختاه، فلعل دموعي ترفعني إليه...، أو لعله يرحم لوعتي فيعود سريعاً...، إنه لطالما كان يعود حين أناديه، ويوافيني حين أستصرخه...، لست أدري لِمَ تأخر عليّ كثيراً هذه المرة...، ولعل بكائي يكون أبلغ في مناجاته...، لم يعد يهمني الآن أن أبصر أو لا أبصر، طالما أنه ليس بقربي لأبصره!»

... وسمعت لها نشيجاً...، أرادت أن تقول شيئاً، ولكن عمتي زينب منعتها...، وارتفع صوت صرنا نعرفه، ونألفه رغم أنه ليس من الألفة في شيء، بل هو يقرع أسماعنا بفظاظة منطقه...، كان حادي الركب يهتف بقائده:

«دير للنصارى على مقربة، أترونه مناسباً لمبيت الليلة؟»

... علمت أن القائد اللعين قد وافقه حين تباطأ بنا المسير، ونزلنا...، ودُفعنا للدخول إلى مكان، عبق برائحة البخور...، وأشياء أخرى.

... جلسنا في ناحية من المكان...، ودخل علينا رجل فهابه القوم...وصمتوا، علمت أنه رئيس الدير،... لقد جعل ينظر في أحوالنا، ويوصي جماعته بنا...، ، ثم انتحى بأخي علي زاوية وصار يحادثه، ويسأله مسائل يستزيد بها من علمه...، لم يبخل أخي بالجواب على النصراني، رغم شدة علته...، ولما سأله الرجل عنا، ومن نكون، ولِمَ نحن في هذا المكان وعلى هذه الهيئة...، أجابه بما شفى غليله، ولكن أثار عجبه ودهشته، فما كان منه إلاّ أن وقف في وجه جلادنا قائلاً، وقد بان في صوته تأثر وانفعال:

«عجيب أمركم يا أمة محمد...، نحن معشر النصارى نقدس المسيح عليه السلام، ونحترم كل أثر يدل عليه...، بل إن في بعض جزر النصارى مقام لنعل حماره، والنصارى يزورونه ويتبركون به...، أما أنتم...، فقد فعلتم هذا الفعل بأهل بيت نبيكم وذريته الأقربين، وعبقُ أنفاسه لا يزال بين ظهرانيكم...، إننا لنحن خير منكم!...».

... لم يرد عليه اللعين، أما نحن فقد انتفضنا لقوله...، وارتفع صوت من بيننا يرد بقهر:

«ليس هؤلاء من أمة محمد يا أخا النصارى...، إنما هم كافرون وإن أظهروا الإيمان...، إنما أمة محمد من تعرف حق

القربى، وتراعي حرمة نبي الله...، إنهم هؤلاء المنتصبة رؤوسهم على رؤوس الرماح، ولئن فُتحَت تلك الصناديق الآن لتروُنّ عجبا!»

... كنت أصغي للكلام، وأجمع أنفاسي لأرد بقول يشفي صدري، إن كان إلى شفائه من سبيل، ولكن صوتاً من أمامي نبّهني، فقد كان أقرب إلى وجهي وسمعي مما توقعت...، كان صوت امرأة تسأل، وهي تمد يدها إلى عصابة عيني فَتزيحها:

«أبعيني طفلتكم رمد؟... إن كان كذلك، فأظن أن عندي دواءً يشفيها».

... كانت إحدى نساء الدير...، وهي غابت قليلاً، لتعود بعد هنيهات بقارورة سمعت تلاطم سائل ما بداخلها، فأعطتها لعمتي وهي تقول:

«إذا وضعت من هذا السائل بعينيها، فهي ستشفى بإذن الرب».

... سمعت عمتي تتنهد من قلب مفطور:

«إن رب العالمين هو الشافي والمعين...، وله في الشفاء طرق وأسباب...، لا بأس بالدواء!»

... لم يكن يعنيني كثيراً، لولا ما كنت أحسه من ألم شديد، أن تشفى عينيّ، فالنظر إلى حطام الدنيا لم يكن بغيتي، وكنت قانعة أن أغرق في عتمة تضيئها ذكريات أبي، على أن أفتح عينيّ على كون يخلو من نوره...، إنه لعسير عليّ أيّما عسر، أن أقبل هذه الدنيا خالية منه...، أبداً...، لا كان ولا يكون!...

على مشارف الشام،

السابع والعشرون من المحرم،

سنة إحدى وستين للهجرة

كلما مضت بنا القافلة أميالاً، وقرّبتنا من تلك البلاد التي نقصدها، ازداد إلحاح الشوق في داخلي،... واحتبست أنفاسي...، فقد كان الموعد يقترب!

لكننا توقفنا فجأة، وأطلنا الوقوف...، وعلمت من جلبة القوم حولنا وانشغالهم، ومن أحاديث شتى كانوا يتناقلونها، فتصل إلى مسمعي، أننا وصلنا إلى مشارف الشام!

هل هي البلاد المقصودة؟!...

سألت عمتي، فتنهدت مهمومة وأجابت بالإيجاب.

وتنفست سكينة الصعداء، وهي تطلق أنة طويلة وتقول:

«شؤم وبلاء أيتها الشام...، شؤم وبلاء!»

ونظرت حولي...، صار بوسعي أن أبصر قليلاً، بعدما داوت عمتي عينيّ بذلك الدواء، وبدعائها المستفيض...، ورأيت في المدى مكاناً فيه خضرة وماء...، وتصدر عنه أصوات.... غناء!

أجفلت ودهشت، وسألت سكينة:

«أهي بلاد المسلمين...، بلاد الغناء هذه؟!»

فسرح ناظراها في البعيد وهي تجيب:

«وما تقولين يا أختاه، في بلد أميرها يزيد، وقائدها ابن زياد، وراعيها شمر؟!... لا تستغربي يا أختاه، فالآتي أعظم!»

أجفلت أكثر، وخفت ذلك الآتي، فما مررت به حتى الساعة من أهوالٍ يكفيني...، ولكنني سألقى أبي...، إن هذا يعزيني، ويقيم بيني وبين تلك الأهوال سداً من الصبر لا ينهار....

... ولكن الوقوف طال...، واستمر...، وخيّم الليل ونحن وقوف...،

لم يكن من شأننا أن نَسأل فنُجاب، ولكنني تساءلت:

«ما لوقوفنا قد طال؟!... ألن نتابع المسير؟!...»

لم أكن أوجه سؤالي إلى أحد بعينه، ولكن سكينة أجابتني بحرقة وهم:

«لِمَ العجلة يا أختاه؟!... أتتعجلين زيادة الهوان والمذلة حال الوصول؟!... أتتعجلين انتهاك حرمتنا وحرمة الرسول، أكثر فأكثر؟!... لا كان هذا الوصول...، ولو انتظرنا الدهر لكان خيراً لنا!»

... وقهقه لعين كان يجول بقربنا يتابعنا:

«لن تنتظروا الدهر...، إن هي إلا بضع ساعات بعد، أو ربما يوم وبعض يوم، ريثما تستعد المدينة لاستقبالكم!»

قرأت الشماتة في حديثه، فخفق قلبي بعنف، وخبّأت وجهي بثوب عمتي وأنا أستشعر الخزي...، رباه...، أي استقبال هذا الذي يهيؤون له؟!... أي ذلّ يكنزون لنا بعد؟!»

كان جواب سؤالي في طيات الغيب، في ثنايا الأيام القادمة المكشّرة عن نهارها المصفرّ حقداً وليلها المظلم كرهاً...، ولم يكن بوسعنا سوى الإنتظار!...

الشـــام،

الأول من صفر، سنة إحدى وستين للهجرة

... اليوم تحركنا من جديد، بعدما لاحت لناالأعلام فوق الدور، وأُخرجت الرؤوس من الصناديق، ووُزعت بين المحامل والنياق...،

... كانت الشام مزينة بأعلامها، تصدح في أجوائها أصوات لم أسمع مثلها من قبل...، وغناء....

وكانت قافلتنا مزينة برؤوس شهدائنا المنصوبة فوق الرماح، تصدح في أجوائها أصوات أنين الثكالى وصراخ الأيتام، والنحيب....

... رأيت عمتي زينب تلتفت إلى قائد القافلة، ذاك المدعو شمراً...،

ارتعدت وأنا أراقبها...، ويحي عليك يا عمتي...، أوليس هذا الذي أراد قتلك وأخي علياً يوم كنا بكربلاء؟!... إذاً فما تريدين منه؟!...

أنصتّ لأسمع ما تقول وإذا بها تخاطبه:

«ياهذا، لي إليك حاجة.»

فأجابها بصوت كالنعيب:

«ما حاجتك؟»

«إذا دخلتَ بنا الشام، فاسلك بنا في درب قليل النظارة، واطلب منهم أن يخرجوا هذه الرؤوس من بين المحامل وينحّوها عنا، فقد خزينا من كثرة النظر إلينا ونحن في هذه الحالة».

أشاح اللعين عن عمتي وهو يقهقه، ثم أهاب بحادي الركب أن يدخل من «باب الساعات»!

... ويا لها من ساعات مرت علينا، لم يمر علينا مثلها، على هول ما مر؛... لقد أمر اللعين بالرؤوس فوُضعت في وسط المحامل، ودخلنا من ذلك الباب، فإذا بالناس يزدحمون على جانبي الطريق، يتطلعون إلينا، يشتموننا، ويرموننا بالحجارة...، وهم ما بين ذلك يغنون ويرقصون، نساءً ورجالاً، شيباً وشباناً!....

تذكرت قول أختي سكينة، فبكيت...، صدقتِ يا أختاه...، هي بلاد أميرها يزيد...، فلا بد أن تكون هذه صفتها وأكثر...،

بكيت وامتلأقلبي غماً، إن كان إلى أكثر من ذلك الامتلاء سبيل، فقد سمعت صوت الحادي ينادي:

«يا أهل الشام، هؤلاء سبايا آل محمد!»

... أولم يدركوا هول النداء؟!... أن يكون لمحمد آل ويُسبَون، في بلد تدّعي دين محمد؟!...»

وصرخت ملء صوتي:

«وامحمداه...، واعلياه...، والإسلاماه...، أين أنت يا أبتاه؟!...»

فوكزني أحدهم بعقب رمح بين كتفَيّ، فصرخت ألماً، وسقطت مغمىً علي...،

لم أفق إلا على هرج ومرج...، وإذا برجل شاهر سيفه يحارب القوم، وهو ينطق بالشهادتين، ويبكي...،وقد راحوا يفرون بين يديه...، علمت أنه ناصر لنا...،

ثم إن القوم احتوشوه....، ثم علمت أنهم قتلوه!

وعلمت بعد ذلك، وبعدما رأيت أخي علياً يسترجع مراراً، أنه نصراني أسلم الساعة، بعدما رأى محنتنا وفهم مصابنا، وبعدما سمعت عمتي زينب تقول بحسرة:

«واعجباه!... النصارى يرقّون لنا، والمسلمون يتفرجون علينا!...»

... ورأيت رجلاً شيخاً ذا لحية بيضاء يبكي ويقترب...، حتى إذا حاذانا كلّم أقربنا إليه، وكانت سكينة:

«يا جارية، من أنتِ؟»

غطت سكينة وجهها بكفها وهي تجيبه بغصة:

«أنا سكينة بنت الحسين!»

فلطم الشيخ وجهه، ثم عاد يسأل متأثراً:

«ألك حاجة يا سيدتي؟... أنا سهل بن سعد الساعدي، قد رأيت جدك المصطفى وسمعت حديثه.»

غلبت الدموع على سكينة وهي تسمعه، فأشارت إلى أخي علي وهي تقول:

«هاك إمامك يا شيخ، فامضِ إليه!...»

فأقبل الشيخ متلهفاً إلى أخي علي، وسلّم عليه، فاستغرب أخي سلامه، ورد يقول:

«يا أيها المسلّم عليّ، أعرفتني من الترك أم من الروم؟!»

أجهش الشيخ بالبكاء وهو يجيب:

«بل عرفتك ابن محمد ﷺ، وأنا خادمك سهل بن سعد الساعدي، كيف حالك يا مولاي؟!»

تنهد أخي علي بحرقة وهو يجيب:

«يا سهل، كيف حال من تراه بذاك الحال، وأنا أسير إلى يزيد بن معاوية؟!... يا سهل، هل رأت عيناك أم سمعت أذناك أن امرأة سُبيت لنا قبل يوم كربلاء؟!»

... عاد الشيخ يبكي، ويلح في سؤال أخي إن كان لديه حاجة...، فسأله أخي:

«ياسهل، هل عندك مال؟»

«نعم سيدي، فما تأمرني؟»

«إدفعه إلى حاملي الرؤوس ومُرهم أن يبتعدوا من وسط المحامل، فلقد خزيت عماتي وأخواتي من كثرة النظر إليهن!»

أي واأبتاه...، أينما نكون تكون فوق رؤوسنا، ترعانا ولا تهملنا قط، وها هوهذا الشيخ الجليل، قد قيّضه الله لنا، إكراماً لوجهك، لينقذنا من بعض ما انتهك من حرمتك وحرمتنا...،

ثم إن أخي علياً سأل الشيخ أمراً آخر:

«يا سهل، هل عندك ثوب عتيق؟»

«ولِمَ تريده عتيقاً يا مولاي؟»

تنهد علي وهو يجيبه:

«لأضعه تحت الجامعة، فقد أكلت عنقي!»

هرع الشيخ ينتزع عمامته من على رأسه ويدفعها إلى أخي...،

رفع علي الجامعة ليضع الثوب، فانبعث الدم من رقبته إلى كتفيه...،

أغمضت عينيّ لهول المنظر، وتنبهت ساعتئذٍ، أن ثوب عليّ كان مصطبغاً منذ حين بالأحمر القاني!...

ويحي لدمائك يا أخي، تواسي بها دماء أبينا التي سالت على أرض كربلاء...،

واأبتاه...، أنظر ما يصنع بنا وأنت عنا بمنأى...، ألم يؤن أوان عودتك بعد؟!

الشـــام،

الثاني من صفر، سنة إحدى وستين للهجرة

... كان الإيوان فسيحاً...، لم أرَ أفسح منه سوى الصحراء...، ضيّقاً حرجاً لا يكاد يتسع حتى لأنفاسي، وكان مكتظاً بالأنظار المتطلعة والبسمات المكشّرة والضحكات المولولة، ولقلقات الألسن.

... خبّأت وجهي بثوب سكينة ومشيت خلفها...، مشيت راغمة، فقد كان القيد الذي أوثقنا به متصلاً، من عنق أخي علي، إلى عنق عمتي زينب، فعمتي أم كلثوم، إلى... إلى..... إلى أن يصل إلينا...،

كنا نمشي مطأطئات الرؤوس، خجلاً وخزياً من النظرات المنصبّة... والشتائم...،

عجبت كيف لا يُخسف الإيوان، كما خسف إيوان كسرى بولادة جدنا...، وعجبت كيف لم تمطر السماء دماً، ثانية....، كما أمطرت يوم كنا بكربلاء!

كنت خائفة من النظر إلى الأمام إلى ذلك المدعوّ «يزيد»،

فقد كان في خيالي صورة قبيحة كريهة نتنة، لا يمكن أن أطيق رؤيتها، ولذا فقد أخفيت وجهي في رداء سكينة، ولم أزحه عن عينيّ طيلة الوقت...، كنت أسمع ما يقال فحسب، أفهم بعضه، وأجهل بعضه...، وأنا بين ما أفهم وما أجهل حائرة لا أدري ما أصنع.

سمعت صوتاً غريباً، فيه خشونة ومجون، أسكتَ القوم.

اضطرب فؤادي وأنا أصغي راغمة ...، لم أميّز من قوله سوى قهقهة جعلت قلبي يضطرب أكثر...، وارتفع صوت أخي علي وهو يقول:

«أنشدك الله يا يزيد، ما ظنك برسول الله لو رآنا على هذه الصفة؟!»

وكأنه استحيى، ليس من الله بل من جلسائه، الذين راحوا يتمتمون ويهمهمون، وتحول بعضهم إلى البكاء...، شعرت بأن ثمة من يقطع القيود والحبال...، فنظرت من طرف عيني إلى أخي علي، فإذا بأحدهم يفك الغل عنه...، تنفست الصعداء، وقد استشعرت وجود والدي على مقربة، ولكن رعبي لم يتبدد، فعدت أخفي وجهي ثانية...،

ثم حدث أمر لم أدرِما هو...، أفزعني أكثر، فقد ارتفع صوت عمتي زينب فجأة تنوح قائلة:

«واأخاه...، واحسيناه...، يا ابن مكة ومنى، يا ابن زمزم والصفا...، يا ابن فاطمة الزهراء...»،

وضجّ القوم بالبكاء فلم أعد أسمع...، ضجّ قلبي بالوجيب فلم أعد اسمع...، ولكني استشعرت وجود والدي على مقربة!

وسمعت حركة على مقربة...، ورغم أن شعوري بوجود والدي كان طاغياً، إلا أني لم أجرؤ على النظر، فقد كان في تلك الحركة، في من أصدرها، أمر مرعب..، وازداد رعبي حين سمعته يقترب أكثر حتى يحاذينا، ويروح يسأل عن كل واحدة منا، ويجيبه أحدهم..،

حتى إذا وصل إلى خالتي الرباب، سألها متشفياً:

«رباب...، أتعرفين هذا الرأس؟!»

تصاغرت حتى كدت ألامس الأرض هولاً، وتساميت حتى بلغت عنان السماء، أبحث عنك!...

كان نورك محيطاً بي من كل ناحية، لا أدري من أين يصدر!

واكتفيت بأن أسلمت قلبي لخفق لا يهدأ...، يضجّ في عروقي وفكري...، وحتى في مسمعي المتلهف لمعرفة ما يجري...، ولكني لم أزح رداء سكينة عن عيني، بل جاهدت لكي لا أسمع صوت أمها الرباب، وهي تجيب بأنة وبكاء:

«وإني لأستحييه والترب بيننا كما كنت أستحييه وهو يراني
عليّ عزيز أن أراه كما ترى عليه عزيز أن يرا ك تراني»

وشغلني عن التفكير في قصدها، صوت أختي سكينة تبكي بلوعة ما بكت بها من قبل، على كثرة ما بكت...، لقد شعرت

بأنها تكاد تلفظ روحها لشدة البكاء، فقد وصلها ذاك اللعين، ولما عُرّف بها سألها شامتاً:

«أنت سكينة؟!...»

... لله دمعك يا سكينة...، لله بكاؤك وحزنك، وحقنا المهدور، وحرمتنا المستباحة...، صدقتِ يا أختاه....، لا هوان كهذا الهوان...، ولا مذلة كهذه المذلة!!..

لقد مضينا من كربلاء إلى الكوفة، ومن الكوفة إلى هنا...، مرت علينا أهوال وأهوال، بعد مصارع أحبتنا وحماتنا، وغياب ولينا....، برد قارس وحر لاهب، جوع مستديم وظمأ لا يريم، عناء وجَلد وسقم وآلام...، شتم وتجريح، يوجع القلب والروح...، والآن، شماتة ما بعدها شماتة!...

أواه...، أبتاه...، كنت أحسب أن لا شيء يستنفد صبري، فما لي أرى صبري على وشك النفاد، وأنا لما أرك بعد!

أي والدي، أربط على قلبي بحنانك وعطفك، أنظر إليّ بعينك التي أعلم أنها لا تغفل عني، وأمدني بروحك، فأنا أخشى أن تتصاعد روحي قبل لقائك...،

بالله عليك يا أبتاه...، لا تتأخر علي!

بحق جدك المصطفى وأبيك المرتضى، عد إليّ فقد نفد الزيت من سراجي...،

بحق أمك الزهراء، بحق أم أبيها...، بحقي عليك، أنا شبيهة أمك، كما نعتّني يوماً...، أُحضُر إليّ في الحال...، أُحضُر إليّ، فإن الشعاع قد مال...، وآن أوان الغياب!...

الشـــام،

الرابع من صفر، سنة إحدى وستين للهجرة

... مضى يومان...، بل دهران...،

والزمن في حسابي قد توقف...، ران عليه جمود وطمست معالمه غياهب بلا حدود...،

لم يعد المكان حيزاً نحتله، بل أضحى قبراً يضم رفات الآمال والأحلام، سوى حلمي الأوحد، الذي يلوح لي في المدى، تارة يلامس وجداني، وتارة ينأى ويلسع جسدي، بلسع لا كجلد السياط، بل هو أدهى...، فهو يحز في أعماق الكيان، ولا يكتفي بالإهاب..

وتطل علينا شمس لا تكلّ من البكاء...،

أجل...، منذ يوم كربلاء، رأيتها دامعة محمرة العين، تقطر دماً...، وهي حتى الساعة تنتحب، ولا تهدأ!

مرآتنا هي؟!... ربما...، وربما لسان الزمن الذي ينطق ببعض أفاعيله!

.... شمس كربلاء لم تزل تزاور عن خربتنا ذات اليمين وتقرضنا ذات الشمال...، ونحن نلوذ بفجوتنا، تارة من حرها وشعاعها اللاذع، وأخرى من ألسنة البشر...،

كلا...، حتى أصحاب الكهف والرقيم لم يقاسوا محنتنا، ولو فعلوا لما استيقظوا أبداً، بل للبثوا في كهفهم إلى يوم يبعثون!

أجل...، ففي تلك الخربة المشؤومة التي فاقت خربة الكوفة شظفاً وقساوة، كنا نحاول أن نستظل، بجدران الخربة حيناً، وبظل بعضنا بعضاً أحياناً...، سوى خالتي الرباب، التي كانت تتحاشى الظل كما نتحاشى نحن الشمس...، كان ذلك ديدنها منذ خرجنا من كربلاء...، وكانت عمتي زينب تدعوها للتظلل، ولكن، دون جدوى، حتى إذا نادتها اليوم، وقد رأت جلوسها على التراب في وسط الخربة، حيث لا جدار ولا أحد، سوى أشعة الشمس المحرقة، تباعدت واعتذرت عن القبول قائلة، وهي تطلق تنهيدة طال احتباسها:

«كلا يا سيدتي...، لاتطلبي مني ما أربأ بنفسي عن فعله، وحاشى لك أن تفعلي...، سيدتي...، بالله عليك، لا تلوميني...، إن أبا عبد الله قضى ثلاثاً على رمضاء كربلاء، تصهره الشمس بأشعتها...، أفأستظل بعده؟!... لا والله...، لا ظل لي وابن رسول الله لا ظل له...، لا ظل بعد ظلك يا أبا عبد الله!...»

وفي مواعيد الصلاة أسمع الأذان، أهرع إلى زاوية من

الخربة مهّدتها بدموعي، أفترش الحصى وأمد كفي إلى السماء، وأدعو...، أستشعر أنفاس والدي قرب وجهي...، أنتفض والهة، فلا أجده...، وأبكي بكاءً مراً.

أسعى إلى عمتي، أسألها مرة أخرى:

«عمة زينب، وقت الصلاة قد حان...، وأبي...، ألن يعود إلينا ليصلي قربي؟... إن شوقي إليه يكاد يقتلني يا عمة...، ألن يختم سفره الطويل ويعود؟!»

وبدلاً من نحيب سكينة، والرباب، وسائر النساء، وضمة عمتي الرؤوم...، أسمع صوتاً منكراً...، صوتاً، يختم الأذان...، بشتم جدي امير المؤمنين!...

أتسمر في مكاني...، يتملكني غضب يفوق الوصف، يملأعليّ جوارحي...، أنظر يمنة ويسرة...،

أيعقل؟!... ماللسماء لا تطبق على الأرض؟!... أيُلعن وصي رسول الله على منبر رسول الله؟!!

... وتربّت سكينة على عاتقي وهي تهدئني، وتجمعني إليها وهي تقول بنبرة مفعمة بالدموع:

«أختاه...، لا تعجبي ولا تنذهلي...، فمن تلوثت يداه بدماء آل الرسول، لن يكون عسيراً عليه أن يلعن وصي الرسول، ولـــكـــن...، ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾.

... لم تهدئني الكلمات، بل زادت تأجج ناري..، ولكني استكنت، وتركت النار تضطرم في أحشائي، وتستعر ويتعالى لهيبها...، لم يكن بوسعي أن أفعل شيئاً...، انتظرت طويلاً ليصل بلسم جراحي...، عساه يلقي على ناري برداً وسلاماً، كما ألقي على إبراهيم!

انتظرت طويلاً...، افترشت مصلى أبي...،

انتظرت نافلة الليل...، انتظرت طويلاً طويلاً...، وغرقت في سبات الإنتظار!....

خربة الشام،

فجر الخامس من صفر، سنة إحدى وستين للهجرة

على مشارف الفجر ألقيت رحلي...، واحة الفجر تنبسط أمامي على ضفاف الكوثر...، وأنا أنطرح عندها، جسداً يتلوى جراحاً...، قلباً يقطر حنيناً.... ودموعاً، تنزف وتنزف ما تجمع فوق القلب من دماء....،

... الظلمة داجية، قارسة السواد، تتوسل ذاك الشعاع...،

ويداي ممدودتان إلى الأعلى...، ما رُدتا خاليتين قبل اليوم قط، وإن تأخر العطاء...، وإن طال البلاء.....

أرى شعاعاً...، طيف دفء يتناثر...،

أنتفض....، نبتة ذابلة مسها طل، فأطلت على أفق جديد.

ويمتلئ المدى سطوعاً، شمساً باهرة الضياء...،

أتذكر...، لقد أعشى عينيّ نور تلك الشمس حين ولدت، ثم صارت لي بعد ذلك مصدراً للحياة...، لقد تعودت عيناي على وهجها القدسي...،

وافرحتاه...، هي شمسك تشرق على قلبي وعينيّ، هوجبينك الوضاء يطل عليّ بعد طول غياب!

أي واأبتاه...، ، لقد آن أوان اللقاء!...

ها أنت تهبط من عليائك إليّ، تفتح ذراعيك وتدعوني...، «إليّ إليّ، بنيتي رقية...، إليّ...، إليّ»...،

وأستجيب...،

... تمتد يداي إلى يديك، وناظراي الظامئان لنورك إلى ناظريك...، وروحي الفياضة بالحنين، تفيض وتفيض...، وتنسكب عند قدميك...،

أجل...، خذني إليك!....

... دفء شعاعك يملأ صقيع قلبي...، وجودك الملكوتي يحتويني...، وخفقات قلبك تملأ أذنيّ بنغمات طال شوقي لسماعها، وعبير أنفاسك يملأ كل حواسي بعطر الجنة...،

... ها أنا ذي...، أغفو على ذراعيك، خفق فؤادك يهدهد وجداني...، ويأخذني إليك.....

هو ذا أذان الفجر يرفرف في سمائك، هو ذا مصلاك ينتظرك...، هي ذي أنا، أتغلغل في نورك، وأصلي...،

وفجأة...، يزعق في الوجود صوت كالنعيق...، إنه...، لعن جدي أمير المؤمنين!...

أفتح عينيّ...، ويملأني الفراغ...، يجمّدني الصقيع، وينهشني من الأعماق...، ويغمرني الظلام، من القلب إلى الأحداق...، وتعتصر كياني وحدة لا تطاق...،

أبتاه...،

الآن كنتَ معي...، والآن لست أراك...، الآن جمعتَ أَشتاتي...، والآن بعثرني نواك...،

الآن لملمتَ أشواقي، ضمدتَ آهاتي...، والآن أبحث في المدى...، ولست أراك...،

الآن كنتُ بين يديك، ، كنت أنام في مأواك...، والآن...، لست أراك...،

صقيع الفراق يجلد قلبي، وحلقي، وصوتي..، فأتلوى، صراخاً...، ولا أدري...، ماذا أقول؟!

وأصيح...، مثل النجم إن آن الأفول...، فيسيل من صميم الروح أنواراً تقول:

«أبتاه...، لا، لا...، أستطيع...،

يا شمس أيامي...، بغيرك لا حياة ولا ممات ولا فصول...،

ولا شتاء ولا خريف ولا ربيع...، لا أستطيع...،

أبتاه، عد...، أبتاه عد....»،

وأرى حواليّ النساء...، أرى الجموع...، أرى الجميع...،

والكل يهتف: «أصمتي!».... لكنني لا أستطيع

وإذا بصوت منكر من خارج الكهف يصيح...،

وإذا بجلفٍ قادمٌ، وعلى يديه... طلاسمٌ...،

ماذا لديك؟!... يا أيها الباغي علينا، ما لديك؟!...

... يضع الوعاء...، ينوء من ثقلٍ...، وكأنما يضع السماء!

«عمتي...، أنا ما رمت زاداً....، عمتي، ما رمت ماء...، ليس الذي عندي جوع أو ظمأ...»،

... تردّ...، بالدمع ينساب كأمطار السماء، :

«رقية، إن ما... تبغين في هذا الوعاء!»

... أرنو...، أحس برعشة...، هو ذا شعاعك قد رنا...

... أدنو...، أحس برعدة...، هو منبع النور دنا.....

وأمد كفي الراعشة...، لأزيح ما غطى الوعاء...

.... وأطلّ!....

لا!... لا، ليس حقاً ما أرى!...

هي صورةٌ...، وهمٌ.... سراب!....

ولعل نور الفجر لايكفي ليجعلني أرى!...

... لكن نورك ساطعٌ!!...

... أبتاه....!.... قد عم المدى لون النجيع!...

... أبتاه....!... شمسك، بل سماؤك، بل ضياؤك...، والربيع!...

والفجر يبكي، مثلما...، قلبي تفتّت، مثل أنفاسٍ تضيع...، أبتاه....،

وأمدّ كفي الراعدة....، أمدّ كلتي راحتيّ مجاهدة...،

وأحيط... رأسك؟!.... وحده؟!..... أين البقية؟!....

أين اليدين...، تضمّني؟!

أين الفؤاد....، بشجوِ خفقه أحتمي...، ويلفّني؟!....

أين البقية؟!....

... وأحيط رأسك...، أحتويه، فيحتويني....

وأضمّه...، قد طال عني بعده.....، فيضمّني....، نبقى سوية!...

.... أبتاه...، من حزّ وريدك؟!... إنه، حزّ وريدي!...

أبتاه...، كيف أتاك؟!... من أي ناحية أتاك؟!... وهل استطاع السيف....، أن يحتزّ جيدك؟!

وعليه من أنفاس جدك بلسمُ....، ومن عناقه ثم لثمه مرهمُ...،

أبتاه...، يا أبتاه...،

.... وأمدّ كفي الصاعدة...، كي أمسح الدماء الندية...، عن كريمتك الطاهرة الزكية...،

... فإذا بها... تبقى..... ندية!....

أعلم أنك لا تزال.... حياً!.... لا تزال قربي...، أننا الآن سوية!...

... أعلم أنني الآن التقيتك...، أن لا فراق بعد هذا اللقاء...، لا...، لا فراق!...

أغرق وجهي في دماء نحرك، في عناق...،

أناجيك...، أناديك....،

كل روحي...، كل أصداء جروحي، في اشتياق...،

خذني إليك...،

أبتاه...، بالذي تهواه، بالباري، سألتك....، لا فراق!...

بحق أمك، قد سألتك...، إنها، أم أبيها!

وهي كانت بعده، الأولى...، على درب اللحاق...،

وأنا...، أم أبي!.... وأريد أن أمضي، كما.... أم أبيها...،

.... أبتاه

آه....، يا أبتاه.....، يا أبتاه!.....

.... صوتٌ..... من عروق النحر، يدعوني، يناجيني، ويشجيني:

«بنية رقية...، إليّ....، إليّ....»،

أبتاه...، ياأبتاه...، لبيك...، لبيك!...

.... وأطير...، أطير شعاعاً، لألبيك...، منك إليك!....

وتستحيل الظلمة نوراً...، ويجتاح كياني نورك العلوي...،

ومع شهقة النشيج المكتوم...، تبلغ روحي الحلقوم...،

ظمأ كان يجتاح حنجرتي، فارتوى.... وقيد كان مطبقاً فانفلت...

... وجناحٌ أخضر، ينطلق.... يطير نحوي...، يتناول كأس جدي....، هو عمي العباس...، ها قد جاء يسقيني!...

هوذا أبي...، قد جاء يحملني، ويغمرني، ويحويني، ...

فأهبّ نحوه... كالصباح.....، وكنسمةٍ ذات جناح....،

لا ألم أحس ولا عناء...، بل أرتمي في حضنك الدافئ...، أوسّد رأسي على عاتقك المقدس، وأصغي لخفق فؤادك....، فأهدأ، وأرتاح!...

... وأرنو إلى الوراء...، أرى جسداً صغيراً مكوّماً فوق الأديم...، يضمّ رأساً مضمخاً بالدماء...،

... ويهمس في أذني، وأنا أبتعد...، صوت أخي السجاد...، ينادي بشجوٍ حزين:

«عمة زينب....، ارفعي أختي عن رأس والدي...»،

فترد عمتي كالحائرة، وهي تكفكف بعض ما فاض من دموع:

«لعلها... نامت؟!...»

ويشهق أخي بدمعه:

«لقد ماتت رقية يا عمة!... ماتت فاطمة الصغرى يا بنت فاطمة...، مرة أخرى...، لقد استشهدت فاطمة!»

... تصرخ أختي سكينة...، تجاوبها حميدة...، ، وعماتي، وخالاتي....، وينفجرون بالبكاء!...

.... مع أنني في حضن والدي...، تحت ظله الوارف، على شفتي نداوة الكوثر، من يد جدي أمير المؤمنين، بين عمي أبي الفضل وأخي الأكبر...، فإن الحزن لا يفارقني....، فمن فارقتهم يتألمون...،

إيه يا أبتاه...، تهاليل الملائكة تشنّف أسماعي، ولكن العويل يجتاحها...،

هي تمهّد لي مقصورتي لأرتاح...، ولكني أقف ها هنا، أنظر إلى الوراء...،

ولا أدري...، أرحيل أم بقاء؟!...

بل رحيل...، ولكن، غصة الفراق الجديد، تتغلغل في عذوبة اللقاء...،

حزن يلف الأرض، وحزن يكتسح السماء...،

نحر ينزف بالدماء...، ونحر يتألق بالضياء...،

هو فجر يملأ الكون دماءً، وسناءً...، وعطاء!...

وأعانق الشعاع...، ثم أرتقي...، أتهادى على الجناح الأخضر، أتوسد مقطع النحر الأحمر...،

ثم أرتقي...، وأعانق.... السماء!...

تمت بعون الله وفضله،
وعلى حب المصطفى وأهله

في الرابع من شباط ٢٠١٣ م

الموافق ٢٣ من ربيع الآخر ١٤٣٤ هـ

المصادر والمراجع

- **لواعج الأشجان**: العلامة السيد محسن الأمين.
- **الخصائص الحسينية ـ خصائص الحسين ومزايا المظلوم**: الشيخ التستري.
- **عاشوراء وما تلاها**: الشيخ محمد جعفر الطبسي.
- **الطريق إلى منبر الحسين لنيل سعادة الدارين**: الشيخ عبدالوهاب الكاشي.
- **العبرة الساكتة**: السيدة ليلى دهيني.

المحتويات

كلمة لا بدّ منها... وإهداء ٧

التمهيد ١٣

بيت من بيوتات الحسين عليه السلام مدينة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، يوم مبارك من أيام سنة سبعة وخمسين للهجرة ١٥

... بعد سبعة أيام ١٨

..... بعد بضعة شهور ٢٠

مدينة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، يوم مبارك من أيام الحسين عليه السلام سنة ثمانية وخمسين للهجرة ٢٣

... بعد يومين... في مجلس الحسين عليه السلام ٢٦

... بعد بضعة شهور..... سنة ثمانية وخمسين للهجرة ٢٨

... أيضاً بعد شهور أخرى...، سنة تسعة وخمسين للهجرة ٣٠

بيت آخر من بيوتات الحسين، مدينة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، يوم مبارك آخر من أيام الحسين، سنة ستين للهجرة ٣٣

... بعد سبعة أيام...، سنة ستين للهجرة ٣٧
... بعد شهرين...، سنة ستين للهجرة ٣٩
مدينة الرسول ﷺ، العشرون من رجب سنة ستين للهجرة . ٤٥
مدينة الرسول، الثالث والعشرون من رجب سنة ستين للهجرة ٤٨
مدينة الرسول، الخامس والعشرون من رجب، سنة ستين للهجرة ٥١
مدينة الرسول ﷺ، الثامن والعشرون من رجب سنة ستين للهجرة ٥٤
مشارف مكة، الثالث من شعبان سنة تسع وخمسين للهجرة ٦٠
مكة أم القرى، الخامس من رمضان، سنة ستين للهجرة .. ٦٣
مكة أم القرى، العشرون من رمضان سنة ستين للهجرة ... ٦٦
مكة أم القرى، الأول من شوال سنة ستين للهجرة ٧٠
مكة أم القرى، السابع من ذي الحجة سنة ستين للهجرة .. ٧٣
مكة أم القرى، الثامن من ذي الحجة سنة ستين للهجرة .. ٨٠
بعد الخروج من مكة، الثامن عشر من ذي الحجة سنة ستين للهجرة ٨٥

على طريق الكوفة، الرابع والعشرون من ذي الحجة سنة ستين للهجرة ٨٧

الثعلبية، موقع بين مكة والكوفة، السابع والعشرون من ذي الحجة سنة ستين للهجرة ٩١

على طريق نينوى، الثامن والعشرون من ذي الحجة سنة ستين للهجرة ٩٦

كربلاء، الثاني من المحرم، سنة إحدى وستين للهجرة .. ٩٨

كربلاء، السادس من المحرم سنة إحدى وستين للهجرة . ١٠٢

كربلاء، السابع من المحرم سنة إحدى وستين للهجرة ... ١٠٨

كربلاء، التاسع من المحرم، سنة إحدى وستين للهجرة .. ١١١

كربلاء، صبيحة العاشر من المحرم سنة إحدى وستين للهجرة ١١٩

كربلاء، ظهيرة اليوم العاشر من المحرم، سنة إحدى وستين للهجرة ١٢٨

كربلاء، بعد ظهر العاشر من المحرم سنة إحدى وستين للهجرة ١٤٦

كربلاء، عصر العاشر من المحرم، سنة إحدى وستين للهجرة ١٦٨

كربلاء، عشية العاشر من المحرم سنة إحدى وستين للهجرة ٢٠٠

من كربلاء إلى الكوفة، الحادي عشر من المحرم، سنة إحدى وستين للهجرة ٢١٠

على أبواب الكوفة، الثاني عشر من المحرم، سنة إحدى وستين للهجرة ٢١٥

الكوفة، الثالث عشر من المحرم، سنة إحدى وستين للهجرة ٢٢٤

الكوفة، الرابع عشر من المحرم، سنة إحدى وستين للهجرة ٢٣٥

الكوفة، التاسع عشر من المحرم، سنة إحدى وستين للهجرة ٢٣٨

من الكوفة إلى الشام، الواحد والعشرون من المحرم، سنة إحدى وستين للهجرة ٢٤١

على الطريق إلى الشام، الثاني والعشرون من المحرم، سنة إحدى وستين للهجرة ٢٤٤

على طريق الشام، الرابع والعشرون من المحرم، سنة إحدى وستين للهجرة ٢٤٦

على طريق الشام، الخامس والعشرون من المحرم، سنة إحدى وستين للهجرة ٢٥٥

على طريق الشام، السادس والعشرون من المحرم، سنة إحدى وستين للهجرة ٢٥٧

على مشارف الشام، السابع والعشرون من المحرم، سنة إحدى وستين للهجرة ٢٦٢

الشام، الأول من صفر، سنة إحدى وستين للهجرة ٢٦٥

الشام، الثاني من صفر، سنة إحدى وستين للهجرة ٢٧٠

الشام، الرابع من صفر، سنة إحدى وستين للهجرة ٢٧٥

خربة الشام، فجر الخامس من صفر، سنة إحدى وستين للهجرة ٢٧٩

المصادر والمراجع ٢٨٩

المحتويات ٢٩١